رواية

أنور مصطفى برواري

تارا ورحلة المليون



مكتبة حسين العصرية
للطباعة والنشر والتوزيع

تارا ورحلة المليون

رواية

أنور مصطفى برواري

تارا ورحلة المليون



الطبعة الثانية : 1434هـ/ 2013 م

عنوان الكتاب : تارا ورحلة المليون

تأليف : أنور مصطفى برواري

عدد الصفحات : 224 صفحة

قياس : 14 × 22

صف وإخراج : غنى الريّس الشحيمي

الناشر : مكتبة حسن العصرية

العنوان : بيروت- كورنيش المزرعة بناية الحسن سنتر- بلوك 2- ط 4

هاتف خليوي : 009613790520

تلفاكس : 009617920452 - 09611306951

ص.ب. : 6501 – 14 بيروت- لبنان

الترقيم الدولي : 978 – 9953 – 561 – 70 – 7

E-mail: Library.hasansaad@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف:

anwer340@yahoo.com

Printed in Lebanon 2013 طبع في لبنان

الإهــداء

إلى شهداء رحلة المليون

أنور برواري

السيرة الذاتية

1- مواليد 1948، دهوك / العراق.

2- تخرج من كلية العلوم / قسم الجيولوجيا / جامعة بغداد 1971.

3- فنان تشكيلي من جماعة الانطباعيين العراقيين منذ أواسط الستينات من القرن الماضي و أشترك في معارضهم.

4- أقام سبعة معارض فنية شخصية، واشترك في معارض جماعية كثيرة منذ أربعين سنة

5- أصدر الروايات التالية :

أ- تارا و رحلة المليون 2002.

ب- دلشير 2003.

ج- مزرعة الفراشات الجميلة 2004.

د- بيريفان 2006 .

6- تأخر طبع الروايات بسبب أجهزة الرقابة للنظام السابق في بغداد.

7- يهوى الموسيقى (يعزف عدة آلات) ويمارس الرياضة بانتظام.

8- عمل موظفاً في الدوائر الحكومية الرسمية لمدة أربعين سنة.

كان صباح يوم الحادي والثلاثين من شهر آذار عام 1991 صباحاً جميلاً، فرشت فيه الشمس أشعتها فوق جبالنا التي تعرضت كثيراً إلى موجات الغزاة عبر التأريخ. وكنا ننتظر أن يكون ذلك الربيع مختلفاً عن سابقاته، فلقد اشتقنا إلى ربيع كثير الخضرة والورد والرقص، ربيع لنا وحدنا وليس فوق رؤوسنا من يعكر مزاجنا ويقلق راحتنا ويتعرض إلى حريتنا التي أرقنا من أجلها دماءً زكيه عبر رحلة التأريخ الذي لم ينصف غير من ظلم وقتل وحرق وأباد. وكانت مدينة دهوك، إحدى المدن الثلاثة الرئيسية في كوردستان العراق تعيش في رعب شديد، وقد هجرها أهلها وتركوا وراءهم كل شيء، لعلهم يحافظون على أرواحهم، تركوا المدينة بشكل عشوائي دون هدف غير التستر بوعورة الجبال، والهرب خارج الحدود الدولية أن أمكن ذلك؛ خوفا من بطش قوات السلطة.

كان الجيش قد بدأ زحفه لدخول المدينة منذ الصباح الباكر، وأخذ يمطر الجبال التي تحيط بالمدينة بالمدفعية الثقيلة، وكان ذلك كافياً ليدخل الرعب إلى قلوب أشجع الرجال، حيث لازالت عمليات الأنفال وبشاعتها اثلة أمام أعيننا. في ذلك الصباح، قررنا أنا وثلاثة من اخوتي أن ننضم إلى قوافل المهاجرين، سيما وان قوات السلطة تستهدف قتل

الرجال، ذلك ما تعلمناه من دروس الأنفال البشعة. وبقي والدنا وأمنا واختنا حيث قرروا البقاء.

كنا نحن الأربعة في حالة إرباك شديد، مدفوعين بالخوف والتعب حيث لم ينم أحد في دهوك الليلة الماضية، وخرج جمع غفير أثناء الليل. أعددنا لأنفسنا بعض الطعام وأخذنا الملابس والأحذية الملائمة للهجرة، وودعنا الوالدين وأختنا، بكت أمي، وابتهل والدنا إلى السماء بالدعاء كعادته. وكان بيتنا قريباً من وادي دهوك، فتسللنا على عجلة بين أزقة المدينة، وكانت طلائع الجيش قد وصلت إلى قصبة مالطة، وأخذ يكثف من القصف المدفعي، فتسقط القذائف قريبا من تلك البيوت التي تجثو على المنحدر الجنوبي للجبل، وتحدث دوياً هائلاً يصحبها تصاعد الدخان والأتربة.

وعندما انحدرنا إلى الوادي وسط أشجار الصنوبر، مشينا مع جمع آخر كان يتسلل من هنا وهناك وهم في أشد حالات الذعر والخوف، يركضون باتجاه السد المائي مثلنا ومثل الألوف الذين سبقونا. وقرب جدار السد توقف عمر فجأة وقال:

– اختنا نرمين، لقد بقيت في البيت تحت رحمة الغزاة، سوف أعود لأصطحبها معي، أما أنتم فتابعوا السير نحو قصبة مانگيّش حيث نلتقي هناك. لم تنفع معه اعتراضاتنا على قراره المفاجئ والخطر الذي قد يتعرض له. وعاد عمر أدراجه وهو يركض، وتابعنا نحن الثلاثة الباقين سيرنا باتجاه الشمال فعبرنا حاجز السد ثم سلكنا الطريق المبلط القديم الذي كانت السيارات تستعمله من مدينة دهوك إلى زاويته قبل إنشاء السد المائي قبل سنوات.

وبدت البحيرة الصغيرة هادئة تماماً، وكان الطقس جميلاً للغاية، فكل شيء حولنا يستغرب من وضعنا. وسألنا بعض الناس عن الطريق الذي يؤدي إلى مانگێش ، فتطوع للإجابة رجل في الأربعين من عمره، وكان مثلنا كثير الخوف والحيرة والنبل وفي عجلة من أمره أيضاً، وصوت المدفعية لا يهدأ، وكانت القذائف تعبر الجبل هذه المرة، كأنها تستهدفنا، وكان الجمع القليل الذي يهرع للفرار والابتعاد عن المدينة قدر المستطاع، شتاتاً وراء شتات، عائلة صغيرة، أو بعض الرجال فقط، أو نساء وشباب وأطفال، وكل واحد قد رسم لنفسه هدفا مرحلياً لليوم الأول، لأننا نعرف جميعا أن إدراك الحدود الدولية مع تركيا، مثلا، يتطلب مسيرة يومين على الأقل لرجل جبلي ذي خبرة ويتمتع بقوة جسدية ملائمة أيضاً. وأكثرنا يفتقر إلى تلك الصفات، لما لحياة المدينة وترفها من تأثير كبير على اللياقة البدنية اللازمة أولاً وللخبرة في السير في المناطق الجبلية الوعرة وقطع المسافات الطويلة ثانياً.

عندما أصبحنا على مقربة من بقايا قرية سندور، والأصح أطلال تلك القرية التي سكنها اليهود وتركوها سنة 1948 عندما هاجروا إلى فلسطين بعد تكوين الدولة اليهودية بقرار دولي، كانت البحيرة التي تمتد خلف السد شمالاً وجنوباً لم تزل تغط في نوم هادئ لا يعكر صفوها كل ما يواجهنا نحن البشر، حيث نصر أن نحمل معنا جنون التأريخ عبر العصور دون أن يغير منها الوعي والتطور والتقدم شيئاً غير الأدوات التي ننتجها، لنزيد بها من ذلك الجنون الأزلي، ونضفي عليه قدراً من الشمولية والبشاعة كل مرة. في تلك اللحظات كانت الساعة تقترب من التاسعة صباحاً، تبادر إلى سمعنا أزيز مثل أزيز الطائرات؛ فتوقفنا، وقال فهمي:

– اسمع يا (شفان) ما هذا الصوت؟

مضت دقيقة وظهرت طائرتان مروحيتان من خلف الجبل باتجاهنا، أشار علينا فهمي أن نلتجئ إلى بعض الشجيرات تحسباً للموقف، وقد فعلنا ذلك ونحن في أشد حالات الخوف والحيرة، خوف على أهلنا الذين تركناهم، وخوف على عمر الذي عاد أدراجه إلى البيت؛ ليصطحب معه نرمين لتلحق بنا، غير أن الطائرتين لم تفعلا أي شيء، ومرت لحظات فاختفتا وراء الجبل من جديد. كان القصف المدفعي على الجبال مستمراً، وتأكد لنا أن الجيش أصبح في تلك اللحظات داخل المدينة المهجورة وسيفعل فعله المعتاد، فيعيث فساداً في البيوت والمحلات ويبيح لنفسه كل شيء.

وصلنا إلى قرية سندور حيث تغطي المنطقة المحيطة بها صخور طينية زرقاء ورمادية، وأخذ بقايا الطريق القديم المبلط اتجاه الشرق إلى بلدة زاويته وذلك لم يكن في خطتنا، فسألنا رجلاً كان يمشي مع زوجته وثلاثة أطفال عن أقصر الطرق القديمة، ونقصد بها طرق القوافل سابقاً التي توصلنا إلى قصبة مانگيش ، فأشار الرجل نحو الشمال وانصرف.. كان علينا أن نتسلق مضرب طية دهوك الشمالية، وكنت خبيراً بتلك المواضيع، وشرحت لأخوي طبيعة الأرض التي علينا أن نقطعها، حيث تتكون المنطقة من سلسلة متعاقبة من الطيات المرتفعة والطيات المقعرة.

وقررنا أن نسلك أقصر الطرق رغم وعورة الأرض وما يتطلبه ذلك من جهود بدنية إضافية، كنا أنا وفهمي قلقين على صالح، أضعفنا في القافلة الصغيرة في ذلك الوقت حيث كان ولم يزل يشكو من مرض مزمن لا ينصح معه أن يقوم بجهد بدني أكثر من الحياة الاعتيادية، ولكونه قد تعرض إلى حادث سيارة فأصابه كسر فوق ركبة قدمه اليمنى، ولازال

قضيب البلاتين المثبت والمزروع في عظم الفخذ يسبب له الألم أثناء السير خاصة إذا كان ذلك المسير في الأراضي غير المستوية.

قال فهمي:

- كيف حالك يا صالح، هل نبطئ من سيرنا؟

- كلا، أنا بخير ولكن دعونا نرتاح قليلاً

انتبهنا لأول مرة أننا يجب أن نبطئ من سيرنا ونضعه تحت مراقبتنا الدائمة وقررنا أيضاً أن نجعل في منهاج سيرنا محطات توقف لكي يرتاح وحسب وعورة الأرض.

وبدأنا نتسلق أول المرتفعات الجبلية، المتكون من مجموعة متعاقبة من الصخور الطينية والرملية والحصوية، حمراء اللون، ولا بد أنها غنية بمعدن الحديد! وفى القمة تغطى الطبقات المذكورة بطبقات من الصخور الكلسية البيضاء من نفس النوع الذي يغطي السفح الجنوبي الذي يحد مدينة دهوك من الشمال على شكل موجات بيضاء.

كان فهمي مطرق الرأس صامتاً ومتوتراً؛ لعله يفكر بزوجته التي تركها مع أمها وحيدتين في بيتهما، وأخي فهمي لازال في خدمة الجيش منذ أكثر من تسع سنوات، بعد أن كان قد أنهى علومه فتخرج مهندسا مدنيا، وتعثر حظه كثيراً نسبة إلى أقرانه، فقد دمرته الحرب وشهد أوائل الثمانينات المعارك الطاحنة التي جرت شرق مدينة البصرة والتنومة ونهر جاسم ومدينة خرم شهر الإيرانية وغيرها، تلك المجازر البشرية البشعة، ثم هرب من صفوف الجيش، وبعد انتهاء الحرب في أب 1988 عاد إلى الجيش ونقل إلى محافظة الموصل. وكان قد تزوج في خريف عام 1990.

كنا نتسلق المنحدر ونتحدث بشكل متقطع، وكان صالح يحاول كل جهده لكي لا يكون عائقاً أمام سرعة سيرنا، وذلك كان فوق طاقته،

وقبل بلوغنا قمة أول منحدر زلت قدمه فوقع وتدحرج لمسافة عدة أمتار، فتوقفنا وقلت له:

– هل أصبت، هل تعبت؟

– كلا مجرد عدم توازن وقلة خبرة

– حسناً دعونا نأخذ قسطاً من الراحة

فقال صالح:

– لا داعي لذلك، دعونا ندرك القمة وهناك سوف نأخذ قسطاً من الراحة

فوافقنا ثم تناولنا منه بعض الأحمال، وكانت بطانية وأشياء أخرى.

وأدركنا أول قمة، وهناك جلسنا تحت لواء الشمس وأخذنا نملأ صدورنا بهواء عليل رغم بعض التعب الذي أصابنا. كان أمامنا منحدر صخري، ثم منخفض ويأتي بعده مرتفع آخر. وفي تلك اللحظة لم نعد نسمع غير أصوات متقطعة من انفجار القذائف الثقيلة. وهنا أشرت إلى أخوي بضرورة التوقف وانتظار عمر ونرمين لكلا نتيه عن بعضنا، وكان المرتفع يشرف إلى الجنوب على مفترق طرق كثيرة، فوافق فهمي وصالح، وكانت أولى الخطوات في اتخاذ قرار بالمشورة، وذلك ما ساد علاقاتنا طيلة الرحلة التي دخلت التأريخ البشري عنوة.

قال صالح:

– لقد تأخر عمر، بدأت أقلق

فقال له فهمي:

– لا داعي للقلق انه مجرد وقت ليس إلا

– ألا تعتقدون إننا قطعنا مسافة لا بأس بها؟، ومر وقت طويل نسبياً، ولو كانت الأمور تجري لصالحهما كان يمكن أن يكونا الآن معنا

أو على الأقل على مرمى أبصارنا.

فقلت:

- لا داعي للقلق أيها الإخوان، دعونا ننتظر

وامتدت أناملي تبحث عن علبة السجائر وبعد أن وجدتها أخذت لنفسي واحدة وقدمت أخرى إلى فهمي الذي قال:

- علينا أن نخفف من التدخين، بل الأفضل أن لا ندخن على الإطلاق لحين المساء عندما نخيم، وبعد أن توقف لحظة أضاف قائلاً:

- ناولني واحدة، فما جدوى الصحة!

- هل معك نار؟

- بالطبع يا أخي، أنسيت أنك أكدت على النار والحبل والسكين والملح ونحن لم نزل في البيت؟

فضحكت وضحك معي اخوتي لأول مرة منذ أن خرجنا من مدينة دهوك.

ربما كنا من بين القليل من الناس ممن لا يملكون أية خبرة تذكر في مثل تلك المواقف، وأقصد الهجرة المفاجئة؛ لذلك كان القلق بادياً علينا، وكنا نحن الثلاثة نقرأ ذلك في وجوهنا عندما نتطلع لبعضنا، وأثرنا الصمت، ثم وقف فهمي على قدميه وراح يتطلع صوب الجنوب ليمسح ببصره ما يمكن أن يراه من أجزاء المنحدر، وأبعد من ذلك أيضاً ثم قال:

- شفان لقد تأخر عمر، هل تعتقد أنه وقع في يد الجيش؟، كان عليهما أن يكونا هنا قبل هذا الوقت. ثم أضاف:

- لقد بدأت أشعر بالقلق

- ليس أمامنا سوى الانتظار

- أجل يا شفان ، ولكن إلى متى ننتظر؟، ساعة، ساعتين، لحين

منتصف النهار، وإذا لم يعد ماذا نفعل؟ ثم إلى أين نتجه غداً من مانكيشك، وما مصيرنا؟، يجب أن نبحث بعض الأمور بجدية أكثر ونحدد بعض النقاط، أليس كذلك؟ أنت أكبرنا وأكثرنا خبرة بالجبال. قال ذلك ومشى بضع خطوات ثم رجع على عقبيه وأخذ نفسا هائلاً من سيجارته. هذا هو حال فهمي أكثر الأحيان، مفضوح العاطفة يسبق الأمور، ويتعجل فهم النهايات، لا يطيق الأزمات التي تؤثر على سلوكه وتشوه نبله وكرمه، ورغم ذلك فان فهمي مقاتل عنيد ساعة الشدة، وسباق في المغامرة والهجوم، وخوفه ظاهر للعيان كالأطفال متردد ويفكر بالنتائج أكثر مما يجب، رغم أنه بتداولها في عقله ويناقش الآخرين في أتفه الأمور، ثم يأتي قراره بعيداً عن تلك المناقشات والاستنتاجات. وعندما أمسكت بصمتي، التفت إلى صالح وقال:

– ما رأيك أنت يا صالح؟ ماذا نفعل برأيك؟

فالتفت إلي صالح يريد رداً، ثم قال بتردد:

– لا أدري يا فهمي، دعنا ننتظر مصير عمر ونرمين

– هل ستواجهون مصيرنا بهذا البر ود وعدم الاكتراث؟ وسوف تأتي نرمين، أتعلمون إنها لا تزال فتاة رقيقة وصغيرة، وستشكل عبئاً علينا.

عندها قال صالح:

– إنها أختنا وسنتحمل ذلك، وأرجو أن تتحملوا ضعفي أنا أيضاً، هذا هو واقع حالنا.

شعر فهمي بالإحراج. وظن صالح بأن ضعفه البدني مشكل وعائق منذ البداية، وذلك ما لم يقصده فهمي على الإطلاق؛ لذلك تقرب منه وقبله قائلا:

– لم أقصد ذلك يا أخي العزيز، قالها وقد تحركت عواطفه المعهودة،

وابتعد بضع خطوات نحو المنحدر يرقب عمر لعله يراه ومعه نرمين ليطرح بعضاً من القلق الذي تسلل إليه في وقت مبكر.

ساد الصمت بيننا، وكان الانتظار صعباً، وكنت اعلم قبل ذلك الصباح أن أصعب حالات الانتظار هي انتظار العاشقين أو الخائفين فقط غير أن انتظارنا ذلك اليوم كان ممزوجا بقلق زائد على وجودنا ومصيرنا أيضاً.

استلقيت على ظهري، ورحت أهدئ من روعي وبدأت أستعرض أشرطة من حياتي ومشاهد مقطوعة كثيرة تتزاحم في خيالي، ولا أدري لماذا امتد خيالي إلى (عاصفة الصحراء)، وتذكرت كيف ابتدأت في الساعات الأولى من صباح السابع عشر من كانون الأول عام 1991 بقصف مركّز لشبكة المواصلات والدفاعات وأنظمة الصواريخ والمعسكرات ومؤسسات التصنيع العسكري ثم المقرات فالجيش، فجرى تمزيقها بالقنابل والصواريخ الذكية ثم بتحريك القوات البرية في المراحل النهائية لتطهير دولة الكويت بعد أن ضمها العراق كمحافظة تاسعة عشر.

وخلال تلك الفترة الرتيبة كانت دهوك بعيدة عن مسرح الأحداث، عدى انقطاع التيار الكهربائي والماء ومنذ الأيام الأولى وما أعقبها من شحة شديدة في الوقود والمواد الغذائية.

وكنا نعيش تلك الفترة (حوالي 45 يوماً) على طعام بسيط ونحاول توفير المياه والوقود. وفي الليل بعد العشاء نجتمع لنلعب الدومينو أو الورق عندما نكون لوحدنا. وكانت طائرات الحلفاء تعبر فوقنا على علو شاهق قادمة من قواعدها في تركيا متجهة صوب أهدافها جنوب دهوك، وكان

ذلك يعني أن تدق صفارات الإنذار كل مرة ويتوجب علينا أن نهرع إلى الملاجئ في النهار أو في الليل البارد.

مضت تلك الأيام بهدوء، وككل الناس، كنا ليلاً نتعقب آخر الأخبار في الإذاعات الأجنبية. وحدث في الثلث الأخير من تلك الفترة أن سمعنا صوت الطائرات ككل مرة وسرعان ما ازداد الصوت، وكان الوقت مغرباً نجلس في حديقة منزلنا، وكان صالح على سطح المنزل يتفحص مستوى المياه في خزانات الماء الموجودة هناك، ومع ازدياد صوت الطائرات سمعنا صوت انفجار قوي، فقال صالح:

- إن الإصابة قرب المتحف

ولم يكد يفرغ من جملته حتى سمعنا صوت انفجار هائل آخر اهتز له البيت وسمع صوت ارتجاج زجاج النوافذ، فصرخ الأطفال ودب فينا الذعر، فصاح أحدنا على صالح أن ينزل، وهرعنا إلى الملجأ، وكان الانفجار شديداً للغاية وقريباً من بيتنا من جهة الجنوب، ثم غادرت الطائرة أجواء مدينة دهوك.

في تلك الليلة زارنا اثنان من أولاد أعمامي ليطمئنا على سلامتنا، وهي بادرة لاقت الاستحسان. وفي صباح اليوم الثاني اكتشفنا أن القصف كان مركزاً على دائرة الزراعة لوجود وحدة لمقاومة الطائرات على سطحها. أما القذائف الأولى فقد سقطت في واد قرب جسر صغير في المناطق الشرقية من المدينة.

بعد ذلك الحادث كنا نتخذ مسألة الذهاب إلى الملجأ بجدية أكثر رغم أن صوت صفارات الإنذار وتزامنها مع مرور الطائرات كان شيئاً يدعو للضحك كثيراً. وعندما انتهت العمليات وأنسحب ما تبقى من

الجيش العراقي من دولة الكويت بشكل عشوائي وعاد معظم الجنود المساكين إلى البيت سيراً على الأقدام! وأتذكر أيضاً أن أخي عمر كان يومها في الجيش في منطقة(سيدكان) وعاد إلى البيت سيراً على الأقدام في ذلك الشتاء البارد، قاطعاً تلك المسافة وأكثرها وسط ثلوج سميكة ولعدة أيام، وأذكر أنها كانت فرحة لا توصف، وأعود فأقول بعد انتهاء العمليات عاد أزلام السلطة للظهور وقد طرحوا الخوف وأخذوا يمارسون أدوارهم القذرة بعد كل أزمة وكعادتهم كل مرة.

ولم تمض غير أيام حتى انطلقت شرارة الثورة في البصرة وعمت بقية المحافظات الجنوبية وفي عموم كوردستان أيضاً وذلك بعد وقف القتال بأيام، وكانت طلائع الثورة قد وصلت في الجنوب إلى مقربة من العاصمة بغداد في غضون أسبوع واحد تقريباً.

أما في محافظة دهوك فقد بدأ الحزبيون الكبار والمحافظ ورجال الأمن بالفرار. أما الجيش فلم يقاتل في مناطق برواري بالا وزاخو وسرسنك وزاويته وفي كل مكان، حيث رمى أفراده السلاح وظلوا هائمين على وجوههم في المنطقة، فناموا في الجوامع، ورفض الكثير منهم العودة إلى أهلهم خوفاً من غدر السلطة. وفي الجوامع حيث تزاحم الجند، قام الأهالي بتوزيع الطعام عليهم.

وكان قائد الفرقة في زاخو مع عدد من الضباط الكبار في ضيافة أحد رؤساء وحدات السرايا الخفيفة(قوات الفرسان) بشكل سري حيث خافوا العودة إلى أهاليهم من بطش السلطة، وبقوا على ذي الحال حتى فشل الانتفاضة وانسحاب قوات **البيشمەرگە** من مدينة دهوك يوم 30 آذار.

ومع نمو الانتفاضة، دخلت قوات إلى مدينة دهوك يوم الرابع عشر

من آذار دون مقاومة. وفي ذلك اليوم هرب من تبقى ممن خاف على حياته من ذنوبه وجرائمه من أهالي المنطقة أيضاً. وبقى نفر قليل تحصنوا في بناية الأمن العامة ودافعو عن أنفسهم. فهاجمتهم قوات الثوار وعالجوهم بقذائف أل(آر. بي. جي) وتم قتلهم. وراح ضحية تلك العملية عدد من **البێشمەرگه** الأبطال، سقطوا شهداء من اجل الحرية.

وفي زنزانات تلك الدائرة البشعة ودهاليزها وجدنا الكثير من الناس وهم في أشد حالات الإهمال والغرابة. وتعرضوا لشتى أنواع التعذيب الجسدي على ايدي جلاوزة امن النظام ما لا يمكن أن يوصف. والغريب أن عمليات التعذيب والأساليب المختلفة كان يجرى تسجيلها بدقة وحرص شديدين. وأذكر أن تلك الأيام القليلة كانت من أجمل الأيام حيث عاش الناس بحرية مطلقة. تلك الحرية التي يعشقها شعبنا كثيراً وافتقدها منذ أمد بعيد. واتجهت كل التوقعات إلى سقوط السلطة. وقيل أن طائرات الحلفاء كانت تحوم في سماء بغداد وترسم بدخانها وتكتب عبارات. وكانت قوات **البێشمەرگه** قد وصلت إلى ضواحي الموصل.

وبينما كان الناس ينتظرون سقوط السلطة في أية لحظة، انقلبت الموازين رأسا على عقب وتحركت قوات السلطة وألوية الحرس الجمهوري صوب المحافظات الجنوبية ومدينة كركوك، وترأس العمليات أكبر المسؤولين وأبشعهم شراسة وقتلاً، عندما قرر الحلفاء فجأة الإبقاء على شكل السلطة في بغداد. وخلال أيام معدودة تمت السيطرة على الأوضاع باستعمال أبشع أشكال القمع والقتل والهدم، فانهارت الانتفاضة وهرب عشرات الألوف إلى خارج الحدود الدولية، إلى إيران والى السعودية.

وفي مدينة دهوك تركزت قوات من **البێشمەرگه** في قصبة (فايدة)،

مع ظهور أول طلائع قوات السلطة، ثم انسحبوا إلى دهوك مع وصول مزيد من قوات الجيش وانتظام صفوفه، ومع وصول المدفعية تم قصف قصبة مالطة ومن ثم مدينة دهوك نفسها بالمدفعية بعيدة المدى، وأستمر الحال كذلك عدة أيام، وفي تلك الفترة قام الأغنياء ورؤساء العشائر وغيرهم بنقل أهاليهم وقسم من الأمتعة والأموال إلى الخطوط الخلفية مع الإبقاء على مراقبة التطورات، ودب القلق بين الأهالي، فأصبحوا على أهبة الاستعداد، ورتبوا أوضاعهم لمغادرة المدينة في أية لحظة. وفي يوم 28 آذار أزداد القصف وتركز بشكل أكثر جدية.

وفي اليوم التالي دب الذعر بين الناس وتم قصف مدينة دهوك والجبال المحيطة بها، وبدأ الناس بالهجرة بشكل عشوائي وبدون هدف، وساد الهرج والمرج صفوفهم وهم في حيرة من أمرهم، فخرجوا مستخدمين سياراتهم الخصوصية واللوريات والساحبات الزراعية، حاملين معهم ما يمكن حمله من الأموال والطعام والشراب والملبس والفرش. وفي اليوم التالي أي الثلاثين من آذار أشتد القصف المدفعي كثيراً وبخاصة بعد الظهر فابتدأت المشاورات بين الناس، وانقسموا على أساس القرابة، فكان الزحف الذي استمر خلال الليل، حيث لم يذق طعم النوم ليلتها أحد، مدفوعين بخوف شديد، تاركين ورائهم كل شيء دون أن يحرضهم أحد.

كان خوفا من رعب تكرار عمليات الأنفال التي نفذت من قبل السلطة في خريف عام 1988 وراح ضحيتها عشرات الألوف من شعبنا المسالم. وتم يومها حرق وهدم كل ما يمت بصلة بالحياة من قرى ومزارع وبساتين بل وتم ردم عيون الماء أيضا.

وبحلول منتصف الليل غادر المدينة معظم الناس وبقي القليل، وهي

العوائل التي كانت تعتقد أن بإمكانها البقاء دون خوف من عودة النظام، والمسنون والعجزة والمعوقون فقط، وفي تلك الليلة الأخيرة أتصل بنا نفر من أولاد أعمامنا لنتشاور في الأمر ونخرج بقرار، غير أننا لم نكن قد قررنا أن ننضم إلى المهاجرين بعد. فعادوا أدراجهم.

صحوت من تأملاتي عندما قفز فهمي وترك حافة المنحدر وأتجه نحونا قائلاً:

– لقد وصل عمر ونرمين، قالها بفرح واضح وقد طرح الكثير من قلقه وبدأ ذلك واضحاً في عينيه. فقال صالح بعد أن وقف يتطلع صوب المدينة:

– أين هما يا فهمي؟

– هناك يا صالح، يبدو أنهما لم يسلكا طريقاً مستقيماً. قال فهمي ذلك مشيراً إلى جهة الغرب

وبعد لحظات صعد عمر ومن ورائه نرمين حافة المنحدر على بعد حوالي 100 متر من المكان الذي نتخذ منه مجلساً، فناداهما فهمي، وعندما رأيانا اتجها ناحيتنا، وعلى مقربة منا سلم عمر، وقالت نرمين فرحة والحزن يملأ وجهها!:

– شفان، فهمي، صالح، هلو...

تعانقنا من جديد وشعرنا أن اتحادنا هو الرأسمال الأول في رحلتنا المجهولة. جلسنا جميعاً وشكلنا حلقة مغلقة. قال فهمي موجهاً كلامه إلى عمر:

–كيف الأحوال في دهوك؟

- لا أدرى بالضبط، فقد تسللت إلى البيت وأخذت نرمين، كانت في المدينة أصوات، وحلقت طائرات الهليكوبتر، وكان قصف الجبال المحيطة يتم بانتظام، وعندما خرجنا حاولنا أن نتستر بالبيوت التي تقع على مقربة من سفح الجبل، وكانت القذائف تسقط على مقربة منا أحيانا، وكنا نركض لندرك منطقة الـ (گـهلى) أي المضيق بأسرع وقت. وتأكدنا أن الجيش كان ينتشر داخل المدينة. عندها قال صالح:

- وكيف كان الوالد والوالدة؟

- أنهما بخير على الأقل لحين ساعة تركناهم، أما ماذا سيفعل الجيش بعد دخول المدينة، فلا أحد يعلم، وتأكد لنا خلو المدينة من الناس تقريباً، ذلك ما لاحظناه أثناء مرورنا بأزقة عديدة.

فقلت أخيراً:

- نحمد الله على سلامتكما أما من بقى في البيت فلهم رب كريم يتولاهم برحمته الواسعة.

وبعد أن أخذ عمر وكذلك نرمين قسطاً من الراحة، جلسنا نبحث الخطوة التالية وحددنا بعض الأمور، وأهمها أن نظل متحدين، متحابين ونعتمد على قدراتنا الذاتية، ورفعنا مبدأ التعاون في كل خطوة، وأنيطت مهمة القيادة لي عندما تتأزم الأمور، واتفقنا أن يكون عمر في المقدمة ويمارس أعمال المستكشف وأنا في خلف القافلة مع الملاحظة الدائمة لأحوال صالح البدنية والصحية ورعاية نرمين التي عادت تنخرط في البكاء على أمنا وأبونا حيث تركناهما في مدينة دهوك يواجهان مصيراً مجهولاً، وأكدنا أيضاً أن تكون قصبة (مـانگيْش) أولى المحطات الليلية، وكانت تلك فكرة فهمي حيث أصر أن نزور أحد رفاقه أيام الجندية؛ لنستطلع

الأمور ونجمع ما يمكن جمعه من معلومات عن هجرة الناس الذين سبقونا بيوم أو يومين وعن الجهة التي ذهبوا إليها.

قال عمر لنرمين:

– هيا قفي على قدميك فليس في الوقت متسع للبكاء، يجب أن نفكر الآن في مصيرنا، وأرجو أن تتحلى بالصبر ولا تخافي شيئاً فمعك أربعة رجال أقوياء ويتحلون بالخبرة والقوة والشجاعة وعليك أن تتوقعي أياماً عصيبة وقد لا نفلح في الهرب، من يدري قد يدركنا الجيش فيقطع علينا طريق الهرب، فهو أسرع منا في تنقلاته، ليكن أيمانك بالله قوياً، فمصيرنا مرتبط بمصير مئات الألوف من أبناء شعبنا وما قدر لنا سيكون حتماً.

ثم التفت إلى صالح وأضاف قائلاً:

– كيف أنت أيها الأخ العزيز، هل معك أدوية كافية؟، فأجابه صالح قائلاً:

– نعم لقد جلبت كل ما كان معي من الأدوية وأظنها تكفي لشهرين.

وأضفت قائلاً:

– صالح أرجو أن تشعرنا في كل مرة عندما تتعب أو تحتاج أي شيء وكذلك أنت يا نرمين.

– نحن بخير وعلى أتم الاستعداد

فقلت:

– حسناً أخوتي الأعزاء وأختي العزيزة، بصفتي الكبير بحكم السن والمنتخب من قبلكم، أرجو أن نبدأ المسير نحو الشمال؛ لندرك مانگيْش قبل حلول الظلام، قلتها بلهجة مسرحية واضحة، فضحك الجميع،

وتناولنا الأحمال التي قسمناها لكل حسب طاقته، وكانت في يدي عصا غليظة لا أدري لماذا تناولتها قبل وصولنا حافة المنحدر. وعندما نزلنا مع المنحدر، غابت مدينة دهوك عن أنظارنا، ولم نعد نسمع أي صوت، غير أصوات خطواتنا، وساد بيننا صمت غير متفق عليه.

كان الصباح دافئاً، ومظاهر الربيع المبكرة ظاهرة من حشائش، وخروج الطيور والتربة الرطبة، وفي تلك اللحظة قال فهمي مخاطباً عمر الذي كان في المقدمة:

- عمر حاذر من الألغام! هل تستطيع تمييزها؟

- سوف أحاول ذلك، لا تقلق، ثم ألتفت صوبنا وأضاف قائلاً:

- عند وجود الصخور حاولوا أن تنتقلوا فوقها

فوافق الجميع. وهكذا بدأنا الخطوات الأولى الفعلية للهجرة الجماعية التي سميت فيما بعد (رحلة المليون) التي هزت الضمير العالمي، وأوصلت صوت القضية الكوردية إلى أرجاء المعمورة، واستأثرت بعطفهم، وسارع الضمير الإنساني الحي لنجدتنا، وأصبحت الرحلة مادة إعلامية رئيسية في العالم ولمدة شهرين .

سرنا ببطء بعض الشيء بسبب خوفنا على صالح وكذلك عدم قدرة نرمين على مجاراتنا نحن الثلاثة، وأقصد أنا وفهمي وعمر فقد كنا أقوياء البدن ونمارس الرياضة، وكان عمر أكثرنا قوة بالطبع، واستفاد من فترة خدمته العسكرية التي قضاها في منطقة سيدكان كما قلت سابقاً، وفي كل الأحوال كنا نشكل معاً قافلة خفيفة ومتجانسة نسبة إلى العوائل

الكثيرة التي كان الأطفال والنساء والشيوخ يشكلون عائقاً كبيراً أثناء السير.

كان كل شيء هادئاً وعاديا للغاية فسرعان ما نسينا العالم حولنا وتركز همنا على قطع أكبر مسافة ممكنة، حيث كان الوطن المصغر الذي نتجه إليه حافزاً قوياً وجيداً، على الأقل كان ذلك شعوري، وأقصد بذلك أطلال قريتنا المبادة في بر واري بالا، حيث أشتاق لربوعها دوماً، فقد شهدت طفولتي ومرحي ونموي، أما بقية أفراد قافلتنا فقد ولدوا خارج القرية. ذلك الشوق إلى ربوع القرية أحمله معي كل لحظة، لذلك ظل عشق الجبال يترعرع في داخلي باستمرار رغم وجودي في المدن الكبيرة ومغريات الحياة المدنية ومظاهر الحضارة، غير أن نزعتي للطبيعة والحرية شديدة ولم أتخل عنهما ولو للحظة.

نزلنا إلى المنحدر ولم نبذل الكثير من الجهد، ثم بدأنا بصعود المرتفع الثاني، وبعد أن تفحصنا حالة صالح ونرمين، طلبنا منهما الاستمرار لعدم حاجتهما لنتوقف قليلاً، وكان المرتفع الثاني أقل ارتفاعاً من المرتفع الأول ولكنه يتصف بالوعورة والانحدار الشديد، فهو مرتفع أملس بسبب من طبيعة أرضه الطينية. وكان سلاحنا خنجرا كردياً متوسط الحجم يحمله عمر معه، فقد استعاده من فهمي بعد التحاقه بنا من جديد.

وعادت بي الذكريات إلى الوراء، وتزاحمت الصور من جديد، وكانت هذه المرة عن نشأة أختنا نرمين التي كانت تمشي أمامي وأمد لها يدي لأساعدها على السير في المناطق الوعرة، فهي أختنا المدللة الوحيدة، جاءت إلى الحياة وعمرها سبع شهور، يومها خفنا عليها كثيراً، ولم تكن

في المدينة الحاضنات الحديثة لمثل تلك الولادات المبكرة، ولكنها وبالرغم من وعينا الصحي المتواضع، عاشت ونشأت طفلة موفورة الصحة، ذكية وعقلها يسبق نموها الطبيعي. وفي دراستها كانت متفوقة بشكل مطلق، شديدة التمسك برأيها، مرهفة الحس، سليمة النطق، سلاحها دموعها التي تنهمر لأتفه الأسباب، وكنا ولم نزل نحبها لتلك الصفات النادرة.

وعندما أنهت دراستها الثانوية، التحقت بكلية الهندسة، ولا زالت في الصف الخامس، أي السنة الأخيرة، حيث لم يبق على تخرجها غير أشهر. وعندما بدأت حرب الخليج الثانية، عادت إلى البيت مثل بقية أخوتي، ولعلها الآن تفكر بمستقبلها المجهول هذه اللحظة، ولربما تضيع جهود السنين الطويلة التي قضتها في الدراسة هباء منثوراً. وخلال تلك المشاهد التي مرت بخاطري كان يتبادر إلى سمعي صوت أحاديث أخوتي دون تمييز، وطرحت تلك الذكريات جانباً على صوت أخي فهمي قائلاً:

- أين فكرك يا شفان ؟ إنني أناديك منذ ساعة

- آسف، لقد عصفت بي موجة من الذكريات الغابرة

-ذكريات حب!

فضحكت قائلاً:

- كلا، أي حب، مجرد حفنة من أمور الدنيا

--حسناً ماذا تقول أنت؟

- عن ماذا؟

- لقد كنا نناقش ماذا نفعل لو وقعنا في كمين للجيش مثلاً؟

- لا أدري، حسب الموقف، ربما نهرب!

فقال عمر ضاحكاً:

-أين نهرب؟، سوف نحاربهم، وأستل خنجره ورفعه في الهواء

فغرقنا جميعاً في موجة من الضحك الطويل.

ثم أدركنا قمة المرتفع الثاني، وتتكون من طبقات من الصخور الكلسية أيضاً، وقررنا أن نأخذ قسطاً من الراحة لمدة ربع ساعة فقط، وتطلع فهمي نحو الشمال وقال:

- أمامنا منحدر أخر ثم مرتفع، إنها حرب نفسية، ثم أخرج لنفسه لفافة تبغ وفعلت أنا كذلك وقدمت واحدة لعمر الذي قال:

- كم معكم من علب السجائر؟

فتفحصنا ما معنا، فكانت ثلاث علب غير كاملة

فقال فهمي:

- سوف نشتري السجائر من مانگيّش ، ثم أضاف أي نوع كان

وأستمر سيرنا القاسي، وتعبنا جميعاً، فقد كان الجهد الذي نبذله عنيفاً يفوق طاقاتنا، وواجهنا أول مشكلة، فقد تمزقت إحدى فردات حذاء نرمين، فتبرع فهمي بحذائه، ثم لبس حذاءها وربط مقدمته بحبل حول مشط قدمه، وأستمر المسير، وكان الطريق كما أشرت إلى ذلك سابقاً عبارة عن مرتفع ثم منخفض. وشعر بالعطش كل من صالح وعمر، ولكننا لم نكن نحمل ماء. وكنا ننتشر في طريق سيرنا نفتش عن عين ماء ولكن دون جدوى، وبعد ساعة صاح عمر فينا، وكان قد سبقنا بمسافة، فتجمعنا حول قليل من الماء كان ينبع من قاعدة طبقة صخرية رملية سميكة، فعملنا بأيدينا حوضا صغيراً بواسطة الأطيان وشظايا الصخور، ثم انتظرنا لكي يصبح الماء المتجمع صافياً، وتلك كانت من بنات أفكاري،

تعلمتها في القرية في صباي، وكان ماء بارداً وعذباً، ارتوينا منه جميعاً، ثم غسلنا وجوهنا وتابعنا السير مرة أخرى.

لم يذق أحد منا شيئاً من الطعام، وكنا نرفض كلما طلب أحدنا إن كان أي منا يشعر بالجوع. وفي المساء بدأنا نشك باتجاه سيرنا، هل سنصل إلى مانكَيْش ؟، أم سننحرف عنها شرقاً أو غرباً، وقبل هبوط الظلام نزلنا منحدراً بسيطاً مغطى بغطاء كثيف نسبياً من أشجار وشجيرات العفص والبلوط، ثم كانت قرية صغيرة إلى يسارنا تتكون من عدة بيوت بسيطة، وعندما طلبت منهم أن نتجه صوبها اعترض فهمي وأيده عمر ثم صالح، فسقط الأمر في يدي فالأغلبية تفوز بالرأي وذلك ما اتفقنا عليه في الصباح، ولكنني قلت:

– لقد حل الظلام وكيف سننام في العراء؟ وماذا بشأن نرمين؟ لماذا لا نودعها لتنام مع عائلة حتى الصباح؟

فقال فهمي:

– دعها تبقى معنا، يجب أن تتعود على حياة القسوة والحرمان منذ الآن، ، ثم أضاف بعد لحظة تردد، لا أجد حركة في القرية، ربما هي مهجورة. وأخيراً قررنا أن نمشي بضع مئات من الأمتار نحو سهل ضيق، ووقع اختيارنا على كومة من الصخور تتكور قرب جذع شجرة بلوط كبيرة، فقررنا أن نقضي الليل تحت أغصانها العملاقة.

رتبنا المكان وفرشنا البطانيات التي كانت معنا، وجلست نرمين ثم جلس صالح وكانا يئنان من شدة التعب، وأصدرت الأوامر بضرورة جمع أكبر قدر من الحطب اليابس، وتولى أمر ذلك فهمي وعمر رجلا الشدة والتضحية والصبر، فجمعا كومة كبيرة من الحطب يعرفان أنها تكفي

لإبقاء النار مشتعلة بشكل مستمر حتى بزوغ فجر اليوم التالي. جلسنا حول النار وكان الجو باردا بعض الشيء، وأخرجنا الخبز الذي حملناه معنا من دهوك، وشعرنا بالوحشة لأول مرة، ووجدنا أنفسنا فجأة في أحضان ظلام دامس وهدوء يبعث على كل الأفكار المجنونة التي من شأنها أن تجعلنا نشعر بالخوف والقلق.

وبعد أن تناولنا الطعام أخذت أنا وعمر نروي لهم بعض الطرائف القصيرة، ونحاول شحذ الهمم ورفع المعنويات المنهارة، وقال فهمي:

– نتناوب في الحراسة حتى الصباح، ونبقي النار مشتعلة على الدوام تحسباً للطوارئ وللتدفئة والتسلية، وفيما عدى نرمين ستكون المناوبة الأولى لصالح، من الثامنة وحتى العاشرة؛ لكي يرتاح بعدها وينام حتى الصباح، ومن الساعة العاشرة إلى منتصف الليل شفان ، يتبعه فهمي إلى الساعة الثانية صباحاً، وأكون أنا الأخير حتى الرابعة وبعدها سأختار واحداً منكم ليغطي الساعة أو الساعتين الأخيرتين، وسوف نبكر في النهوض. فوافقنا جميعاً.

تفحصت نرمين وأخذت أدلك عضلات ساقيها، وكذلك فعل عمر نفس الشيء لأخينا صالح الذي أثبت مع نرمين كفاءة ممتازة في تغطية المسافة التي قطعناها في اليوم الأول، وقلت لنرمين:

– كيف تشعرين أيتها الأخت العزيزة؟

– جيدة جداً، أنا متعبة كثيراً ولكن ذلك سيزول حتماً.

والتفتنا إلى صالح، فقال نفس ما قالت نرمين، وكانت معنوياته عالية أيضاً، حيث قال:

– لا تحملوا همي، فلا يعوزني أي شيء، ارتاحوا أنتم

وقال عمر:

- إذاً أخوان، لقد انتصرنا، وكانت خسائرنا بعض التعب وسننام في العراء دون وسادة أو فراش وثير، وعليكم أن تعتادوا على ذلك منذ الليلة. فضحكنا ما استطعنا، لأن التعب بعد تناولنا الطعام والجلوس بدأ يظهر بشكل واضح على الجميع.

وقلت لنرمين:

- سوف أصنع لك وسادة.

وقال صالح:

- لن يتخل أحد منكم عن أية قطعة من ملابسه، ليحتفظ كل منا بقمصلته

فقلت:

- كلا، هناك فكرة، انظروا، وأخذت إحدى البطانيات وفرشتها بالعرض أمام النار ثم عند حافتها عملت وسادة طويلة من التراب، وغطيناها معاً بالحشائش الصفراء اليابسة وأوراق الأشجار اليابسة أيضا، وقررنا أن يتمدد الجميع معاً ويتقاسم كل أثنين بطانية واحدة كغطاء، وهكذا ينام أربعة ويبقى الخامس في العراء قرب النار، وقد يقوم بجولة دائرية قصيرة المدى حول النار لكي يبقى مستيقظاً، فسر الجميع للفكرة ونفذت في وقت قصير.

تمددت نرمين ومن ثم صالح وبقينا نحن الثلاثة الباقين جالسين حول النار من الجهة الأخرى، وأخذنا ندخن السجائر، ثم أخرج فهمي جهازاً صغيراً للراديو يعمل بالبطاريات الجافة، ومن حسن الصدف كانت أغنية للمطرب فريد الأطرش، وكانت أغنية(علشان ما ليش غيرك)، ولما كنت من محبي فريد الأطرش راح فهمي وعمر يمازحاني على طريقتنا عندما

نجتمع معا لنلعب الورق ونمرح مع بعضنا حتى الصباح في بيت الوالد. وبعد لحظات صمت قال فهمي:

- هل تهنا يا شفان ؟، أين **مانكيش** ؟، كان علينا أن نصلها في المساء حسب تقديراتنا، أليس كذلك؟

- نعم هذا صحيح

لقد كنت في قصبة **مانكيش** لإنجاز بعض الأعمال في خريف عام 1980 وكانت المرة الثانية، وكذلك زارها فهمي مرة عام 1987 فقط.

وقال عمر:

- دعونا منها الآن، سوف نرى أمرها في الصباح، وأظن ليس من الضروري أن نكون فيها.

فقال فهمي:

- بل أرى ذلك ضرورياً؛ لكي نعرف بعض الأخبار، ومنها نحدد اتجاهنا القادم، ونحتاج للسجائر والطعام وإناء لحمل الماء.

فقلت، موجها كلامي لأخواني، وكان صالح لم يزل مستيقظاً، أما نرمين فقد كانت هامدة من شدة التعب:

- سوف نبحث غداً في الصباح عن **مانكيش** إذا تبين لنا أننا على مقربة منها، وخلاف ذلك، أرى من الضروري أن نستمر في السير صوب الشمال، سوف نتجه صوب جبل (متين) ونعبره إلى بر واري بالا، ثم نتجه إلى الحدود التركية، ولا ندري اتجاه وتجمعات الناس بعد، وتعرفون جيداً من التجارب التاريخية المشابهة أن الناس في مثل هذه الظروف يميلون إلى التجمع بدل التشتت، وأنا خبير بتلك الجبال وبقايا القرى الحدودية.

- إلى أين سنصل مساء غد بتقديراتك يا شفان ؟

- يجب أن نصل إلى أقدام جبل متين، فعبوره يتطلب حوالي نصف نهار، وذلك يعتمد بالأساس على وضعنا العام، وإذا سارت الأمور لصالحنا

- من أين نعبر الجبل؟، من بامرني حيث أقصر الطرق، ولكن ذلك المعبر وعر للغاية وقاس كما أعرف، حيث لم يسبق لي عبوره.

- لقد عبرته أنا في منتصف الخمسينات في الليل، وكنت يومها طفلاً، وساعدني سيد صالح ومن ثم حملني على ظهره لمسافات طويلة وفعل ذلك أيضاً في المعابر الصخرية القاسية.

فقال فهمي:

- سيد صالح، أبن عم الوالد، القائد الحربي

- نعم، وقد كان يومها جندياً في الموصل، وأرسلني والدي معه إلى القرية للإقامة مع جدي وجدتي رحمهما الله وأعمامي بعد انتهاء السنة الدراسية، وأذكر يومها أننا أدركنا إحدى القرى بعد عبور الجبل بعد منتصف الليل وكانت تبعد عن قريتنا بضعة كيلومترات، وتركوني أنام في كنف أسرة أبنة عم جدي، وفي الصباح أخذني شاب إلى قريتنا.

- يالها من ذكريات

- أغلب الظن سوف نعبر الجبل من الجهة الغربية، غرب (**بامەرنێ**)، من (**دهێ**)، ثم إلى (**كانیبەلاڤ**)، ومن هناك نعبر النهر الذي يمر بقريتنا، وأقصد نهر (نيهنيك)، ثم نصبح على مقربة من بقايا

قرية(**گركـا**)، وسوف نرى هناك الناس حتمـا، وسوف نختار الطريق المناسب إن شاء الله، هذا إذا انطلقنا من منطقة **مانگيْش**.

وعندما دقت الساعة الثامنة طلبنا من صالح أن يظل مستلقياً حيث لم نكن نحن الثلاثة قد قررنا النوم، وكانت نرمين تئن من شدة التعب، فذهبنا إليها نستطلع أمرها، فقال فهمي:

– ماذا بك يا نرمين؟

– شكراً أنا بخير، ولكنني لا أستطيع النوم، بالرغم من شعوري بتعب شـديد حـد الإعيـاء. فطلبـت منهـا أن تـستلقي علـى ظهرهـا وتحـاول الاسترخاء وتفريغ الفكر على طريقة ممارسة تمارين (**اليوگـا**) فسخر عمر بطريقة مهذبة قائلاً:

– أية **يوگا** تنفع معنا، ألا ترى حالنا؟

– أننا لا زلنا بخير جميعاً يا أخي، أين أيمانك؟

ثم تمدد عمر وتبعه فهمي بعد لحظات فيما وقفت أنا على قدمي لأتمشى قليلاً بهدف تحريكهما. كان البرد يزداد شيئاً فشيئاً مع الولوج أكثر في بطن الليل، ولكننا بوجود القمصلات التي أخذناها معنا من البيت ووجود النار لم يكن البرد ليشكل أية مشكل.

قفز صالح من مكانه بحركة خفيفة وجاء ناحيتي قائلاً:

– أنا بخير يا شفان فلتذهب أنت للنوم

– لست راغباً بالنوم

– على الأقل تمدد بعض الوقت

– حسناً سوف أفعل

وبعد أن تطلع في جوف الليل وأسترق السمع إلى سكونه المطبق قال:

– هل هناك خوف من الحيوانات؟، كالذئاب مثلاً

– لا أظن ذلك، وإذا وجدت فلا تخف، فنحن بعددنا ووجود النار نشكل فريقاً مقاتلاً لن يستطيع أي ذئب أن يفكر بمهاجمتنا، ولكن مع ذلك كن متيقظاً، ويجب أن تشعرنا بأي موقف طارئ مهما كان بسيطاً، ولا تبتعد عن النار كثيراً، وليكن سمعك متيقظاً طول الوقت لتصيد أي صوت غريب حولك.

– حسناً

– وإذا شعرت بالنعاس أو التعب بادر إلى إيقاظي فوراً

– حسناً، لا تقلق أبداً، فكل شيء سيسير على ما يرام

ثم استلقيت قرب فهمي وتقاسمنا معا بطانية واحدة كغطاء، وتكورنا تحتها.

وكان فهمي وعمر ونرمين يغطون في نوم عميق، ولم أصح إلا على صوت صالح وهو يهز كتفي، فأدركت أن الساعة كانت قد بلغت العاشرة ليلاً.

– هيا استيقظ يا شفان ، هل صحوت؟

– نعم......نعم

وتبادلنا الأدوار، حيث دلف هو بجسده تحت البطانية، وكان فهمي يصدر شخيراً قوياً فقام بتحريكه بلطف لئلا يقفز من مكانه ويصحو.

أما أنا فأشعلت سيجارة وجلست قرب النار ثم وقفت على قدمي أحرك أطرافي لأطرد النوم، وأخذت أشهق عدة مرات بأنفاس عميقة مدخلاً كمية هائلة من الهواء إلى رئتي لتنشيط جسمي وطرد النعاس.

بدأ البرد يشتد وكان الابتعاد عن النار صعباً؛ فأضفت عدة أغصان أخرى للنار التي كانت على وشك أن تنطفئ وأصلحت من شأنها فارتفعت ألسنتها وأخذت تصدر الأصوات المعهودة عندما يكون الحطب رطباً بعض الشيء، ثم جلست القرفصاء وأخذت أدخن سيجارتي بشراهة. وكان صالح أثناء ذلك قد أستسلم لسلطان النوم هو الآخر. كان السكون مملاً، والنار في مثل تلك الحالات سلاح ذو حدين، فهو أداة للتسلية والتدفئة والدفاع عن النفس من جهة، وقد يكون سبباً في أن تتعرض للخطر من جهة أخرى، فهو علامة دالة لا يخطئها أحد في الليل.

وخطر لي ذلك تلك اللحظة، وأنا في جوف الليل وحيداً وقد دفنت ورائي أجمل أحلامي، وأرغمت على أن أتخلى عن أي هدف اخترته في حياتي التي مضى منها أربعون عاماً، ولم أزل أعزباً، فقد نبذت فكرة الزواج، وسرقتنا السنين الطويلة للحرب العراقية الإيرانية حيث كان المستقبل مجهولاً. لقد كنت أول من تخرج من بين أخوتي من الجامعة، واخترت وظيفة حكومية سرقت أحلى أيام شبابي ولم تعطني شيئاً مقابل تلك السنين التي ذابت من عمري. وكنت منذ حداثتي مولعاً بالرياضة وقراءة الكتب والفنون والآداب، وقطعت أشواطاً في بعضها، وبسبب من تلك التركيبة المعقدة المشحونة بعواطف إنسانية لا تصلح أن تكون بضاعة في زماننا هذا وفي ظروفنا تلك على وجه الخصوص.

كنت أبحث دوماً عن امرأة تكون هدفاً صالحاً لتلك العواطف؛ لنؤلف معاً لحناً شجياً يملأ الدنيا بهجة وجمالاً، ولكن ذلك لم يحدث أبداً على امتداد السنين التي ضاعت من عمرنا، أنا ومعظم الناس في مدينتي الصغيرة. مرت تلك الخواطر ببالي كشريط طويل وصحوت من تأملاتي عندما وصل نار السيجارة قرب إصبعي فنفضتها بعيداً ولعنت في سري السجائر ومن يدخنها.

ومضى الوقت ببطء شديد وأنا أقع فريسة لخواطر مجنونة تارة ولحبل الذكريات الكثيرة تارة أخرى، وعندما أنقذت نفسي من براثنها، أحسست بالعودة إلى الشعور بالمسؤولية عن القافلة من جديد، بعد أن كان دوري قد بدأ ينحسر كثيراً عندما بدأت السنين تجري وأصبح أخوتي رجالاً، وقفوا على أرض صلبة، وتسلحوا بالمعرفة والعلم والخبرات الاجتماعية، ولكنني وبسبب من حرصي وقابليتي على نكران الذات والتضحية بها، وتلك أيضاً من صفاتي التي لا تنسجم وروح العصر، والتغيرات السريعة التي ترافقها، ولكوننا مجتمعاً شرقياً أيضاً، لذلك كله فقد أصبح أخوتي في نظري مجرد حفنة من الأطفال يتكورون تحت بطانيتين، ووجوههم مليئة بالبراءة والعجز وقلة الخبرة، ثم عدت أحاول التخلص من تلك اللحظة الشعورية، وأترك لفهمي وعمر مساحة أكبر للتحرك والتدبير ومعالجة الأمور، فهم يعتبرونني أقل كفاءة منهم بسبب العمر وحفنة من اعتبارات أخرى، ومنها إثبات الذات، وتحقيق شيء، والظرف الذي أجبرنا أن نعيشه والذي بدأ منذ الصباح ولم يمض عليه غير يوم واحد فرصة ممتازة لتحقيق تلك النزعات على صعيد الفرد على الأقل.

وقفت على قدمي من جديد لأتغلب على التعب ومن ثم النعاس الذي بدأ يضعف صحوي، ومشيت حول النار عدة مرات، وأمتد بصري تجاه القرية الصغيرة فألفيتها دون أي مصدر ضوء فعلمت أنها لا بد أن تكون مهجورة، وعندما أمتد تفكيري إلى أننا وحيدون ولم نصادف بشراً منذ أن تسلقنا أول مرتفع قرب بقايا قرية سندور خفت من أن نكون قد سرنا في اتجاه خاطئ.

واقتربت عقارب الساعة من منتصف الليل وكان علي أن أوقظ فهمي حسب الاتفاق ليغطي أول الساعتين من صباح اليوم التالي، وعندما تقربت منه وجدته يغط في نوم عميق، فامتلأ قلبي بعاطفة جياشة، وفكرت أن أستمر في حراستهم الى الصباح، ولكنني أخيراً تغلبت على تأثير تلك العاطفة العابرة وقررت أن اظل معقولاً وعملياً لتحري الأمور بشكل طبيعي وامتدت أناملي تداعب رأسه برفق، فأنقلب على جنبيه وظهره عدة مرات قبل أن يفتح عينيه، فقلت له:

– هيا يا فهمي لقد حان دورك في نوبة الحراسة، انه منتصف الليل

ومرت لحظات أخرى قبل أن يصحو تماماً، ، وجلس بتثاقل وأخذ ينظر حوله فلا يرى غير الظلام، ثم تقرب من النار وأخذ يفرك يديه، وقال:

– لقد أخطأنا بعدم التفكير بمسألة الماء

– هل أنت عطشان؟

– بعض الشيء

ثم أخذت مكانه وحاولت أن أنام بسرعة، ولكن ذلك لم يحدث لي يوماً، فحتى أغط في النوم، يمر وقت غير قصير دائماً مهما كانت الظروف، ومسألة تغيير الفراش تشكل بالنسبة لي مشكلة أخرى، ولكنني هذه المرة وبسبب التعب غبت عن الوعي ورحت أغط في النوم.

استيقظنا في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، وكانت عضلات أجسامنا متشنجة بدرجات كل حسب لياقته بالطبع. كانت نرمين أكثرنا شعوراً بالتعب ثم صالح، وكنا بهيئة غريبة من حيث النظافة والترتيب وطبيعة الملابس التي كنا نرتديها، وكان الجو جميلاً كأن الأقدار قررت هذه المرة أن تقف إلى جانبنا، وكانت أشعة الشمس تغمر المكان؛ فوقفنا نتمشى وأخذنا نحرك أجسادنا لنعيد لها النشاط حيث ينتظرنا سير طويل شاق قبل أن يهبط الظلام لنرتاح من جديد.

تناولنا ما تبقى معنا من كسرات الخبز وبعض قطع البسكويت، ثم رتبنا أمتعتنا وقررنا السير نحو الشمال، ولشدة دهشتنا وجدنا أن طريق السيارات المبلط الذي يؤدي إلى **مانكَيْش** يقع بالقرب منا، ولكننا طيلة الليل لم نسمع أن مرت أية سيارة وذلك قد يعود لأننا كنا أخر من ترك مدينة دهوك، فأصحاب السيارات كانوا قد تركوها قبلنا إضافة إلى فرق المسافة التي قطعناها سيراً على الأقدام وتلك التي تقطعها السيارة في نفس الزمن. فقررنا السير مع الطريق غرباً، وكان بعض الوقت وظهرت قصبة **مانكَيْش** جاثمة على أقدام امتداد السفح الجنوبي لطية **(گاره)** المحدبة، فاتجهنا صوبها إلى بيت (ايشو) أحد رفاق فهمي في الجندية أبان خدمته قبل حرب الخليج الثانية، وعندما صعدنا المرتفع أصبحنا وسط **مانكَيْش** ، فأشار فهمي إلى ناحية حيث يقع بيته.

رحب بنا (ايشو) بحرارة وتعانق مع فهمي، وكان شاباً في العقد الرابع من العمر، وسيماً رقيق العود، له عينان صغيرتان، وبشرة بيضاء، قدمنا إلى زوجته وأطفاله، وطلب منا الجلوس، وأوصى أهله بتحضير طعام الفطور والشاي، ولم تنفع محاولاتنا لنغير أمره. تناولنا الطعام وكان خبزاً رقيقاً ولبناً وراشياً، وبيضاً، وقبلها طلبنا كمية كبيرة من الماء وسط دهشة مضيفنا، وبعد أن فرغنا من الطعام، قال المضيف موجها كلامه إلى فهمي:

- لقد تأخرتم

-- لم نكن قد قررنا ترك المدينة قبل صباح يوم أمس، وقد كنا ضمن آخر قافلة تركت دهوك قبل دخول الجيش

- لقد مر من هنا الكثير من الناس أول أمس واليوم الذي قبله، وقلقت عليكم، ووضعت الأمل جانباً، وظننت أنكم اخترتم طريقاً آخر للهرب

- كلا فلقد وعدتك أن أمر عليك إذا ما حدث أمر طارئ يستوجب الهجرة

- أهلاً وسهلاً بكم، هل أنتم بخير؟

- شكراً نحن بخير

وقلت أنا:

- أين اتجه الناس؟

- لا أدري بالضبط، ولكنني سمعت أنهم يجاهدون للوصول إلى الحدود بأسرع وقت ممكن خوفاً من ملاحقة الجيش والقبض عليهم.

ثم وقف عمر على قدميه دون مقدمات، بعد أن انتهينا من تناول الطعام وتدخين سجائرنا وقال:

– إخوان، علينا أن نستفيد من الوقت، وقد يسد علينا الجيش طريق الهرب

قال فهمي موجهاً كلامه إلى مضيفنا:

– هل أنت جاهز؟

فقال ايشو بعد لحظات صمت:

– لقد قررنا البقاء أنا وأهلي، ولكنني أرجوكم أن تأخذوا معكم بعض أقربائي وهي عائلة صغيرة، تتكون من امرأة وأختها وطفلين أثنين ليس لها أحد، وتخشى البقاء وهي في انتظاركم.

نظر كل منا إلى الآخر؛ لأن ذلك كان يعني عبئاً ثقيلاً علينا، يحد من سرعة تحركنا، ويضيف مسؤوليات جديدة على عاتق كل واحد منا. وتركنا القرار لفهمي الذي فهم الموقف عندما التزمنا جانب الصمت حيث قال أخيراً:

– لا أدري ماذا أقول، القرار لأخوتي، لأنها مسؤولية كما تعرف

فقال ايشو:

– أرجوكم إخواني، لقد ذهب الجميع كما تعرفون، ولن تستطيع الهجرة وحدها، ثم إنني لا أثق بأحد غيركم، فأرجو أن تأخذوها معكم، ولن أنسى لكم هذا المعروف أبداً.

بعد أن تبادلنا النظرات، قررنا أن ينضموا إلى قافلتنا؛ ففرح ايشو وقبل فهمي وقال:

– إذاً هيا إلى بيتها، ستفرح كثيراً

وانطلقنا بسرعة إلى بيت بسيط لا يبعد كثيراً عن بيت ايشو، وهناك تعرفنا على العائلة التي سنأخذها معنا، وكانت تتكون من (سميرة) التي

فقدت زوجها في الحرب العراقية الإيرانية، وكانت امرأة في حوالي الثلاثين من عمرها، رشيقة وقوية البنية، وأبنها الكبير(گـورگيس)، وعمره عشر سنوات، وابنها الأصغر(يوخنا)، وعمره ثماني سنوات، وأختها(تارا) تكبرها بعدة سنوات، رشيقة أيضاً وقوية البنية.

وبعد أن تعارفنا، قاموا بأعداد حاجياتهم، وطلبنا منهم أن يخففوا منها إلى الحد الأدنى، ويكتفوا ببعض الطعام والملابس السميكة وبطانيتين أو ثلاث، وكانوا في حيرة من أمرهم، لذلك تدخلت أنا وأبقيت على كمية معقولة من الخبز الرقيق، وكمية من الزبيب ومثلها من التين المجفف، ووعاء بلاستيكي متوسط الحجم مزود بسداد محكم للماء الذي قررنا أن يستعمل للشرب فقط.

انطلقنا جميعا بعد أن جرت مراسيم الوداع، وانحدرنا إلى وسط القصبة، ومن دكان صغير تزودنا بكمية كافية من السجائر وزوج من البطاريات الجافة من الحجم الصغير لنستعمله في جهاز الراديو الصغير الذي يملكه فهمي، كذلك القليل من البسكويت وعلبة واحدة من اللحم المعلب. وصلنا طريق السيارات، وأخذنا نسارع من خطانا، يقود القافلة فهمي وأنا في المؤخرة. وكان انضمام سميرة وأختها إلى قافلتنا مفيداً بالنسبة لأختنا نرمين، وربما كان ذلك السبب الأول والأخير لموافقتنا على انضمامهم إلى القافلة، وفي وقت مبكر لاحظنا ظهور الأحاديث النسائية، وبدت نرمين أكثر استقراراً مع وجود نساء أخريات معنا. كنا نسير على شكل رتل طويل على الطريق المبلط بالإسفلت، وكانت نرمين تتحدث مع سميرة التي دفعت أطفالها للأمام، وكانا على درجة مقبولة من

النشاط، بحيث طرحنا فكرة أن تكون تلك العائلة عبئاً علينا، وكانت تارا تمشي خلف سميرة دون أن تشاركهما الكلام، وسمعت نرمين تقوم بتعريفنا إلى سميرة، وعندما وصلت إلي التفتت إلى الوراء وقالت:

- وأخيراً شفان ، موظف، وأخونا الأكبر،

فابتسمت وعبرت لها عن احترامي بإيماءة خفيفة من رأسي مع ابتسامة رسمية تتلاءم مع الموقف، وأذكر أن أختها تارا التفتت إلى الوراء لتتفحصني، ولا أدري لماذا خفق قلبي لحظتها، وبدت لي مألوفة للغاية، كأنني أعرفها سابقاً، وكانت صامتة، قوية البنية، ذات سيقان صلبة وقوية، وأسنان كبيرة نسبياً، وشعر جميل، مطرقة الرأس، واثقة الخطوات، وتحمل على ظهرها البطانيات، وكانت نظيفة الجسم وقد تركت شعرها المجعد بعض الشيء ينتشر على خديها وقد فركته فوق الجبين بشكل جميل. ثم سمعت سميرة تقوم بتعريف نفسها وعائلتها، وبدت لنا امرأة أمية أكثر من امرأة نالت قسطاً وافراً من التعليم. تكلمت عن زوجها وأطفالها، ثم قالت بعد أن التفتت إلى الوراء:

- وهذه أختي الوحيدة تارا، معلمة في مدينتنا الصغيرة، غير متزوجة، وليس لنا أحد سوى أخ واحد يقيم مع عائلته في بغداد، يزورنا ونزوره في فترات زمنية متباعدة، وكانت تارا مقيمة معه وأنهت تعليمها هناك، ثم جاءت إلى **مانكيش** والتحقت بمدرستها الابتدائية، وتدرجت حتى أصبحت معاونة لمديرة المدرسة.

كانت تارا ترتدي بنطالاً من نوع الجينز، أزرق اللون، لم يكن جديداً، وثوباً أزرق اللون أيضاً، وقمصلة سوداء من الجلد الصناعي،

وربطة تلتف حول عنقها ويتهدل طرفاها على صدرها الذي كان ضامراً بشكل واضح.

واستمرت قافلتنا في سيرها الرتيب دون توقف، كان خلالها يشكل وعاء الماء السالف الذكر مشكلة بسبب من وزنه وصعوبة حمله، وقد تعاونا أنا وفهمي وعمر على حمله، ورفضنا أن تشارك النسوة في حمله، غير أن تارا تطوعت بإلحاح شديد حينما توقفت فجأة أمامي حتى كدنا نصطدم ببعضنا مما أربكنا معاً، والتقت عيوننا، فاكتشفت روعة عينيها الملونة والواسعة التي تعكس الكثير من الأدب والحياء والصرامة أيضاً، فتناولت الوعاء مني وسط ذهولي بحيث لم أجد فرصة للرفض، فقد جعلتني عيناها أنسى حالنا، هكذا أنا سريع التأثر، ضعيف أمام الأشياء الجميلة، وسرعان ما أستقر الوعاء على كتفها الأيمن واستمرت في السير بصمت وقد حملت أنا ما كانت تحمل من الأمتعة.

بلغنا القمة الجبلية التي تؤلف جزءا من سلسلة جبل (گـاره) كما قلت، ولاح أمامنا أجمل المناظر الطبيعية التي يمكن للإنسان أن يراها، ولم يتعجب أحد منا لأننا أغلبنا سبق وأن كنا في تلك المناطق يوماً ما، فأمامنا منحدر طويل بغطائه الصخري الشائك وغطائه النباتي أيضاً، الذي كان كثيفاً. وفي أسفل المنحدر حيث أوطأ النقاط يمر نهر صغير، يجمع مياه العيون من القرى التي تقع إلى شرقنا، فتؤلف معاً نهراً صغيراً يتجه غرباً ليصب في نهر الخابور، ثم ترتفع الأرض بشكل تدريجي حتى أقدام جبل متينة الذي كان وعراً وصلباً بطبقاته الصخرية ذات الانحدار الكثير، وخلفه تظهر القمم والجبال الأعلى منه، وأجزاء من الجبال الحدودية العالية مع تركيا، وكانت قممها لا زالت مغطاة بالثلج الأبيض الناصع، كان المنظر رائعاً حقاً، وسمعت ذلك من الجميع، وقال فهمي:

- كان يجب أن نكون في تلك الأماكن الساحرة في ظرف غير ظرفنا الحالي ليتسنى لنا التمتع بكل هذا الجمال الطبيعي البكر.

جلسنا جميعاً وأنزلنا أحمالنا، وأخذ عمر يداعب أطفال سميرة قائلاً:

- لقد أثبتما كفاءة نادرة، هل تشعران بالتعب؟

فقالا باستحياء:

- كلا أبداً

وتم توزيع بعض الماء على من كان في حاجة إليه، وقررنا أن لا نملأه إلا من ماء العيون النظيفة. وكانت خسائرنا حتى ذلك الحين وعلى لسان عمر الذي داعب فهمي قائلاً:

- عدم صلاحية حذاء فهمي، رغم أن فهمي أصلح من شأن الحذاء ليجعله صالحاً لمسافة أطول، وذلك بحل الرباط وإعادة ربطه من جديد.

وأخذنا نمسح كل ما تصل إليه أبصارنا لنتأكد من عدم وصول قوات جيش السلطة فلم نر شيئاً.

ولما كان النهار قد أنتصف؛ اقترحت أن نتناول شيئاً من الطعام، وفعلاً قامت سميرة برش كمية كافية من الخبز بالماء، وأقترح عمر استعمال اللحم المعلب، وتناولنا الطعام، وقال صالح موجها كلامه إلي مباشرة:

- أين تقترح أن نقضي الليلة القادمة يا شفان ؟

- في(دهـي)، وأشرت بإصبعي نحو الشمال، حيث كانت أطلال القرية تبدو من بعيد صغيرة للغاية، وأضفت، لأننا قد نصلها في المغرب، ولن نستطيع تسلق الجبل في الليل على أية حال.

فقال فهمي:

- وبعد ذلك

– لا أعرف، لا بد أن نلتقي بالناس، وبعد عبور الجبل سنقرر إلى أين نتجه.

وقالت نرمين:

– إنني أستغرب، أين كل ذلك الجمع الغفير من الناس؟

فقالت سميرة:

– عبروا الجبل أغلب الظن، لأنهم يسبقوننا بمسيرة يوم أو أكثر

وقال عمر:

– لا تنسوا أن أصحاب السيارات قد أتجه الكثير منهم إلى العمادية ومنها اتجهوا نحو الشرق باتجاه الحدود العراقية الإيرانية، أما الباقي فلابد أنهم الآن على الطريق المبلط الذي يؤدي إلى (كانىماسى) أو اتجهوا غرباً إلى منطقة (شـــهرانش) شمال مدينة زاخو، أو ربما ترجلوا من السيارات اتجهوا شمالاً بشكل مستقيم، فرغم أن المسافة طويلة لكن جبالها وعرة وتساعدهم على الاختفاء والتستر.

ثم قال فهمي:

– ولكن تلك الجبال على الأكثر ملغومة وتشكل خطراً كبيراً على العوائل.

ثم قررنا السير بعد تناول الطعام والتدخين كالعادة، وتقرب مني فهمي وقال:

– ما رأيك بتارا؟

– فابتسمت قائلاً، إنها تبدو فتاة عادية، وليس فيها ما يثيرني

فأبتسم وقال:

– ربما، ولكنني أراها مهتمة بك

فقلت مندهشاً:

– انه إطراء خفيف الظل، هيا دع المزاح جانباً ودعنا نصب جهودنا في عبور هذا المنحدر الوعر الذي يشكل مشكلة بالنسبة لنرمين وصالح والأطفال.

– الأطفال وذووهم مدربون على السير بشكل جيد، إنني أشك بقدرات نرمين وصالح فقط

ثم نادى على صالح قائلاً:

–كيف أحوالك يا صالح؟

– بخير

– هل أنت متأكد؟

– نعم، لا تخشى شيئاً

– ولكن مع ذلك كن حذراً ومتأنياً في النزول فهو خطر، ولا تكن عجولاً أو متهوراً وأبق في الأخير مع شفان فهو خبير في السير في مثل هذه التضاريس الوعرة، ثم نادا الطفلين وطلب منهما أن يلازما أمهما، كما طلب من نرمين أن تكون قريبة منه ليساعدها وقت الحاجة. وناولت العصا التي كانت بحوزتي إلى صالح ليتكئ عليها أثناء عملية النزول، وذلك ما لا يعرفه بسبب من قلة خبرته. وأبتدأ سيرنا، فكان بطيئاً بشكل يبعث الملل والضجر، وكان أضعفنا في القافلة نرمين، أختنا المدللة، ورغم ذلك فقد أثبتت كفاءة مرضية نسبياً. أما الطفلان فكانا خفيفي الحركة يميلان للمغامرة، فأستوقفهما عمر وطلب منهما عدم التسرع، وأشار إلى عمق الوادي قائلاً:

–اذا وقع أحدكما فسوف يتدحرج إلى الأسفل ويتحول جسده إلى قطع صغيرة.

وكانت تارا أكثرنا صمتاً، عدا ما كانت تتبادلها من كلمات قليلة مع أختها باللغة الآشورية، ونسيت أن أقول أن سميرة وعائلتها، عائلة مسيحية بالديانة، ولكنهم يتكلمون اللغة الكردية بشكل مرض شأنهم شأن الآشوريين في كوردستان. وكان صمتها يثيرني لحظتها ونحن منهمكون في تثبيت أقدامنا، فنمسك بغصن شجيرة، أو نتوء صخري، ولم يبق أحد منا لم تنزلق قدماه عدة مرات، وقسم منا وقع وتدحرج، وكنا رغم ذلك نتبادل الطرائف والأحاديث، ونضحك، نعم كنا نضحك أيضاً. وشكلت سميرة وعائلتها إضافة ذات نكهة خاصة لقافلتنا.

تدحرجت تارا أمامي، فهرعت للإمساك بها، ووقفت على قدميها وأخذت تنفض التراب الذي علق بملابسها وقالت بثقة:

- أنا بخير. قالتها باللغة العربية التي كانت تتقنها أكثر من اللغة الكوردية

وقلت لها:

- لا تتعجلي في السير وتفحصي مواقع إقدامك جيداً، واحرصي أن يميل جسدك عكس اتجاه المنحدر أثناء السير.

فرمقتني بنظرة صامتة مع ابتسامة لا تعبر عن شيء. كان وجهها نحيلاً وطويلاً، لها أنف يميل رأسه نحو الأسفل، وحنك قوي طويل يميل هو الآخر نحو الفم المزود بشفتين أقرب إلى الرقة، وذات لون وردي، وكانت بشرتها بيضاء ناصعة، ويداها خشنتان ولكنهما رغم ذلك غاية في الرقة والجمال!، ولها بروز واضح في أعلى جمجمة الرأس مع تسطح واضح في مؤخرته، وجبهتها تميل إلى الطول رأسياً، عظمها خشن، وتمتاز بقوام مستقيم وممشوق، موفورة الصحة، وأجمل ما فيها عيناها الملونتان

بعدة ألوان، وخاصة في الضوء، فهي بنية وصفراء وخضراء وحدقة واسعة، ونظرة ثاقبة متفحصة وحذرة.

وأخيراً قطعنا المنحدر، ووصلنا إلى الوادي، فجلسنا نأخذ قسطاً من الراحة، وكانت أجسادنا تتصبب عرقاً، فقد كان الجو مشمساً، دافئاً من جهة وبسبب من ملابسنا السميكة والحركة من جهة أخرى. وقمنا بغسل أيدينا ووجوهنا من الماء الذي كان يتفجر على شكل عين، وهي من تلك العيون الكثيرة التي تكثر في الربيع وتجف في الصيف. وكذلك أبدلنا ماء الشرب. كانت سميرة من ذلك النوع من النساء اللواتي يتصفن بالثرثرة، ذات صوت عالي الدرجة أو الطبقة بلغة الموسيقى، لا تكف عن الكلام، أي موضوع كان. أما طفلاها فكانا كثيري الحركة، وكان الأكبر أكثر تهوراً وتمرداً. أما تارا فكأنما لم تكن لتنتمي إلى تلك العائلة التي اقتحمت الهدوء الذي نتصف به جميعاً، فأول ما يميزها اسمها الجميل، وصوتها الهادئ المليء بالحرارة والأنوثة والذوق، وكانت تستمع بكل جد للمواضيع التي كنا نناقشها أنا وأخوتي طول الطريق، أما تعاونها في العمل فليس له نظير، فهي صامتة وتعمل دون كلام أو رفض، وتتصف بذكاء واضح، وحب صادق لتعلم الأشياء.

تقرب فهمي من سميرة وهو يفرك سيجارته بين أصابعه وقال لها:

– أم يوخنا، يجب أن تعلموا بعض الأشياء، وبعد لحظات صمت قليلة أضاف: لقد أصبحنا وإياكم قافلة، ونحن لا نعرف ماذا ينتظرنا، المهم أود أن تعلمي، أننا طالما نكون معاً، فنحن مسؤولون عنك وعن أختك وطفليك، وكل جمع له كبير، أو خبير أو مسؤول، ومسؤول رحلتنا أخونا الأكبر شفان ، اتفقنا أن نخوله كامل الصلاحيات لقيادتنا، وتوزيع الأرزاق أو الحراسة وحتى القتال إن استوجب الأمر، لذلك فنحن أمامه

سواء وعلينا طاعته والاستفادة من خبرته، فأن شئتم أن نكون معاً، عليكم الالتزام بالنظام، ومتى ما أردتم أن تنفصلوا عنا فذلك شأنكم رغم أنني وعدت قريبك ايشو أن أصل بكم إلى بر الأمان ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

فقالت سميرة:

-حسناً نحن نتفهم ذلك، يجب أن يكون لنا مسؤول.

ثم ألتفت فهمي إلى تارا التي كانت منهمكة بغسل قدميها بعد أن كانت قد طرحت الحذاء والجوارب جانباً وقال لها:

- وأنت يا أخت تارا هل سمعتنا؟، هل أنت موافقة؟

فرفعت رأسها الصغير، وأجمل ما فيه عيناها الواسعتين الدافئتين، وشعرها الجميل الذي يميل إلى الصفرة قليلا، وقالت:

- بالطبع أنا موافقة، فمصيرنا مرتبط بمصيركم، ويجب أن تكون الأمور بهذا الشكل، ثم التفتت إلى حيث كنت أجلس وقد أصابني بعض الحرج وأضافت:

- وان الأستاذ شفان جدير بهذه الثقة، فتوكلوا على الله.

وفي تلك اللحظة شعرت أن هناك شيئا قد تغير في داخلي، وحاولت أن أفهم ذلك الموقف الشعوري فلم أهتد إلى ذلك بالضبط غير الإحساس بأن معنوياتي قد ازدادت فجأة، وخف حملي، وشعرت براحة وبقوة عزم وهدوء أيضاً.

ثم علا صوت سميرة بالصياح على ولدها الأكبر وهي تسحبه من ذراعه بقوة وأخذت تصلح من شأن ملابسه، وقالت كلمات بلغة آمرة

وصارمة باللغة الآشورية لم نفهم منها شيئاً سوى كلمة حمار، فتدخلت تارا وأخذت تكلمها بهدوء وهي تنظر إلينا، وأغلب الظن كانت تعاتبها وتطلب منها أن تتصرف بهدوء وأدب. ثم أخذت تكلم الطفلين بعد أن نادت على يوخنا وراحت تملي عليهما أوامرها، ثم التفتت إلى سميرة وقالت لها بضع كلمات أخرى.

أصدرت الأوامر بضرورة التهيؤ لنبدأ السير من جديد، فتناول فهمي أناء الماء ووزعنا بقية الأشياء فيما بيننا، وسار رتلنا حسب الترتيب المتفق عليه سابقاً. كان المرتفع إلى بقايا قرية (دهـێ) سهلاً، لذلك وصلناها مع غروب الشمس، فقررنا أن نخيم فيها وقضاء الليل، ووقع اختيارنا على سقيفة مفتوحة الجوانب من جهات ثلاث، وتدعى باللغة الكوردية (كەپر)، وتبنى عادة من جذوع الأشجار، وهي عبارة عن أربعة أعمدة ويغطى سقفها بأغصان الأشجار. وكانت القرية تتكون سابقاً من بيوت قليلة، تسكنها عوائل مسيحية هجرها أهلها في بداية الثمانينات، فأتخذها الجيش مقراً لأحد السرايا، وكان فيها مستشفى ميداني يقدم خدماته للقطاعات التي كانت موزعة على شكل ربايا في تلك الجبال، وبعد الانتفاضة الشعبية أوائل شهر آذار أصبحت مهجورة تماماً.

وضعنا أمتعتنا، ولم نكن نشعر بالتعب كثيرا سوى بعض التشنجات العضلية البسيطة وكان ذلك امتداداً لجهود اليوم الأول. اجتمعنا أنا وفهمي وعمر وصالح، وجلسنا بعيداً عن النساء والأطفال، وبالطبع كان التدخين هو أول ما فعلناه، حتى قال فهمي مستاءً رغم أنه كان قد قذف لفافة بين شفتيه قبلنا وأشعلها أيضاً:

– إخوان ألا ترون أننا ندخن كثيراً؟، يجب أن نقلل من ذلك، وأقترح أن ينحصر ذلك في وقت محطات الراحة حيث نمتنع عنه أثناء السير للحفاظ على خزيننا للأيام القادمة، فوافقناه أنا وعمر الذي قال:

– كيف أنت يا صالح؟

– بخير

– ربما كان الأجدر بك لو بقيت مع الوالدين في دهوك

– كلا، أنا مرتاح معكم وأشعر بالأمان، ووضعي الصحي ممتاز، كان الله في عون النساء والأطفال، ألست أفضل منهم؟

– بلى بالتأكيد، ليس هناك وجه للمقارنه، قصدي من ذلك راحتك

– أطمئن، أنا بأفضل حال

وكانت نرمين قد انفصلت عن سميرة وتارا واتجهت ناحيتنا وقالت:

– كيف أنتم يا شباب؟

قلنا لها، نحن بخير، فقالت:

– أنا كذلك ثم أضافت بعد أن أخفضت من نبرة صوتها: كيف سنتجرع سميرة وأطفالها؟ انهم لا يطاقون

فقال فهمي:

– تحملي يا نرمين، فوجودهم معك كنساء أفضل من الوضع السابق في اليوم الأول، أما مسألة طباعهم وثرثرتهم فدعيها لنا وسوف نعالج ذلك مع الوقت

وقال عمر:

– وكيف وجدت أختها؟

– أنها أميرة، ولا تشبهها في شيء، لقد أحببتها، أنها إنسانة عاقلة للغاية

وكانت تلك الكلمات تدخل السرور إلى نفسي، هكذا كان شعوري لحظتها.

ثم قالت نرمين:

– والآن يا شفان ما هي أوامرك الجديدة؟

– سنقوم نحن الرجال بجمع الحطب اللازم للتدفئة والنور، وقمن أنتن بترتيب المكان، للجلوس ثم للنوم بعد تناول الطعام

مر الوقت بسرعة، وهبط الظلام، فأشعلنا النار وتحلقنا حولها للتدفئة، ثم اعددنا الطعام، وكان عبارة عن الخبز والتين المجفف والزبيب. كنا نأكل بشراهة رغم فقر المائدة، وقلنا لبعضنا، كم نحن بحاجة إلى قدح ساخن من الشاي، وقال عمر، أو وجبة دسمة من المشويات، وقلت أنا، أو تشريب لحم، وقال فهمي، أو پاچه. وضحك الجميع وسط ذلك السكون المطبق، ونحن في جوف الليل وكل ما نعرفه أننا متفقون مبدئياً على عبور جبل متين صباح اليوم التالي.

وبعد سهرة قصيرة تبادلنا جميعاً الأحاديث المختلفة، وقام فهمي بجولة بين الإذاعات التي أمكنه التقاطها من خلال راديو ترانزستر صغير، وسمعنا بعض الأغنيات الشرقية، ولم يكن في نشرات الأخبار المحلية والعربية والدولية أي شيء يخصنا أو يخص قضيتنا.

ثم نام الجميع ولا أدري لماذا تخلينا عن فكرة الحراسة تلك الليلة. انقسمنا إلى فريقين، نساء ورجال مع انضمام الطفلين إلى فئة النساء. وبقيت أنا جالسا قرب النار، حيث لم أر للنوم سبيلاً، وكنت أضيف بعض الحطب إلى النار كلما كان على وشك أن يهمد، وأمتنع فهمي عن ترك جهاز الراديو معي خوفا على البطاريات من أن تضعف، وكان

محقاً في ذلك كل الحق. كنت أدخن وحدي عندما على شخير القوم قربي كل يتبع نغمة خاصة، وعندما غلبني النعاس حوالي الساعة الحادية عشر أدلفت جسدي تحت البطانية قرب صالح الذي كان يصدر شخيراً عالياً، ولم أنس بالطبع أن أضع كمية معقولة من الحطب إلى النار لآخر مرة. ثم استسلمت إلى سلطان النوم.

صحونا في صباح اليوم التالي، الثاني من شهر نيسان، في الساعة السابعة، وكنت قادراً على الحفاظ على معرفة الأيام وتواريخها في الأيام الأولى، لأننا جميعا بعد أن مرت بنا الأسابيع لم نعد نهتم بذلك؛ فقد أصبحت جميع الأيام متشابهة في نظرنا تقريباً. وبعد أن تناولنا بعض الخبز، تفحصنا المكان من حولنا لأول مرة، فوجدنا بعض مخلفات من سبقونا في المرور بالمكان، وكانت عبارة عن أشياء مبعثرة هنا وهناك، ومن جملة تلك الأشياء عدد من البطانيات، فاقترحت أن نأخذ اثنتين ليكون لكل فرد منا بطانيته الخاصة.

وقفت على بعد خطوات من الجمع وأصدرت الأمر بالسير قائلاً:

– إذا كان كل شيء على ما يرام فلنبدأ السير. ثم طلبت منهم أن يشربوا الماء، وليستعمل الباقي في غسل الأيادي أو الوجوه لمن يرغب في ذلك.

فقال صالح:

– هل نبقى بدون ماء؟

– أمامنا قرى كثيرة وفيها عيون ماء عذبة وغزيرة، ولا داعي لأن نحمل هذا الثقل معنا.

تقدمنا عمر كالمعتاد، وكنت أنا في المؤخرة، وأمامي كانت تمشي تارا التي ظلمتها الأقدار كثيرا.

طلبت منهم أن يتبعوا طريق السيارات المبلط بالإسفلت، وهو طريق يقطع الجبل، ويعد جزءً من شبكة الطرق العسكرية التي أقامتها السلطة في عموم أرجاء كوردستان لأغراض إستراتيجية عسكرية بحتة أواخر السبعينات.

سرنا بهدوء وصمت، وكانت تجول في رؤوسنا أسئلة لا قدرة لنا على الإجابة عليها، ما هو الذنب الذي ارتكبناه؟، والى أين نسير بالتحديد؟، وأخيراً ما مصيرنا؟. ولم يكن أحد منا قادراً على الإجابة عن التساؤلين الأخيرين.

كانت كفاءتنا البدنية أقل بكثير مقارنة باليومين السالفين، ربما كان السبب نوعية الطعام الذي تناولناه. وأصبحنا نرى آثار الذين سبقونا سالكين نفس الطريق، وذلك من بقايا الأشياء والزبال التي تركوها على جانبيه. كان صوت سميرة يكاد لا ينقطع وهي تصم آذان نرمين بمواضيعها التافهة، في وقت كنا أحوج إلى بعض الهدوء أن لم يكن الصمت؛ لنفكر بحالنا حيث كانت الطبيعة تواسينا وتستقبل الجبال قوافلنا الحائرة المهزومة. وكان صالح قد تخلى عن السير في المقدمة وتراجع إلى الصفوف الخلفية، وعندما سألته إن كان بخير قال:

- أكيد، لا تحمل همي

- هل أنت واثق من نفسك؟، أرجو أن لا تخفي عنا أية بادرة ضعف قد تنتابك، سنحملك أن دعت الحاجة إلى ذلك.

فقال ضاحكاً:

- كلا يا أخي أنا بخير ولا أشعر بشيء من الضعف

كانت تارا تنظر يميناً ويساراً، تتفحص الصخور والأشجار ثم ترفع رأسها إلى السماء أحيانا، ثم ينحني رأسها الجميل وهي تتابع السير بثقة واضحة.

وصلنا قرية(كانىبـه لاڤ)، وتقع على سفح الجبل، في منطقة واسعة، فيها بساتين كثيرة وماء وفير، وهناك التقينا بعائلات كثيرة، والأصح لحقنا بمن سبقونا أو بآخر أرتالهم، وشعرت لحظتها بالأسى وبالشفقة على حالنا، كذلك بدأت أشتاق إلى حياة خالية من الخوف والتهديد، حياة نطلق فيها العنان لطاقات الفكر والإبداع، لعلنا نحاول التفكير في غد سعيد كالشعوب التي قطعت أشواطاً طويلة في توفير سبل العيش الكريم. وبدأت تظهر علينا مظاهر المهاجرين، فكانت الوجوه التي مررنا بها وهي تتطلع إلينا ونتطلع متفحصين مظهرهم بدورنا نحن أيضاً، ليس فيها غير الحزن، غير الحيرة والارتباك، وكلها وجوه مهزومة تصارع الحياة ولم تتخل عن الأمل لحظة واحدة.

قرب عين الماء جلسنا نلتقط أنفاسنا مع جمع آخر كان منهمكا بشرب الماء وغسل الأيدي والوجوه والأرجل والجوارب وبعض الأواني أيضاً. ولا أدري لماذا امتدت يدي إلى أناء صغير كان على صخرة قربي فأمليته بالماء وقدمته إلى تارا التي رفعت رأسها الجميل فالتقت عيوننا، وبدأت عيناها تنمان عن ابتسامة ساحرة، تأثرت بها كثيراً، وشعرت بأنها تقتلع كل أسواري وتحفظاتي، كانت النظرة كجملة موسيقية من تلك التي تهز الوجدان وترفع الإنسان ليحلق روحاً تسمو فوق عالم الحيوان، وذاتاً تعشق الجمال والفكر والعمل. شربت تارا بعض الماء وقالت:

- شكراً، شكراً جزيلاً

ثم مسحت فمها بمنديل كان في يدها، ورمقتني بنظرة شكر.

ملأت الوعاء بالماء من جديد وقدمته لنرمين التي رمقتني بنظرة فاحصة، وشعرت أنها لابد وأن لاحظتنا، ولكنها بوعيها لم تحاول إحراجي بشكل.

كانت المنطقة ساحرة بكل ما في الكلمة من معاني، حيث كانت تشرف من جهة الغرب على نهر الخابور الذي حفر لنفسه خندقاً عميقاً ووعراً وكثير التعرجات، والجبال الكثيرة التي تحيط المكان من كل جانب.

التقينا ببعض الأصحاب وعلمنا منهم أن الموجات البشرية تتحرك ومنذ أيام نحو مركز الناحية(كانىماسى)، ولا يعرفون أكثر من ذلك. بعد الاستراحة أخذنا ندخن، وقررنا أن نستفيد من كل دقيقة من وقتنا، فالطريق إلى كانىماسى لا زال طويلاً، وقد يستغرق منا طول ما تبقى من النهار وربما جزء من الليل إذا أردنا أن ندركها كمرحلة قادمة.

تحركنا مرة أخرى ولا ندري لماذا كنا نشعر بضرورة السير أسرع ودون توقف، كلما قطعنا مسافة أكثر، بل كنا نود لو كان باستطاعتنا أن نركض، هل كان ذلك خوفاً؟ هل كان ذلك الشعور رغبة في اكتشاف المجهول؟، ولكننا كنا ندرك أننا بدأنا نعيش أزمة ونتحرك ببطء إلى مركزها، وكان ذلك الشعور يسود جموع المهاجرين أيضاً. كان الطريق سهلاً هذه المرة، حيث ينحدر سفح الجبل نحو الشمال، نحو وادي نهر (نيهنيك)، كل ما كان يشغل بالنا هو أننا بدأنا نمل حالتنا ونرفض وضعنا، من طعام بسيط لا يكاد يسد الرمق، وليس معنا من أسباب

العيش غير ما يبقينا على قيد الحياة إلى حين. وقرب الوادي حيث يتكون الطريق من تعرجات قاسية للميل الشديد للطبقات الصخرية التي تؤلف الجبل في ذلك المكان، وهناك وجدنا العشرات من العوائل قد فرشت الأرض وجلست تتناول طعام الغذاء، وقد جلس وسطهم أحد أثرياء مدينة دهوك، يتوسط حاشيته وأهله، وكان قد أقام وليمة فخمة، فذبح الذبائح، وطبخ الرز والمرق، وأحضر كمية وافرة من الخبز والفاكهة، ويطلب رجاله من كل من يمر بهم أن يستريح ليتغذى، أقام تلك الوليمة لوجه الله، وكان يقول:

– الدنيا لا تساوي شيئاً، كلوا مما رزقنا الله به، واتركوا أمركم لرحمة السماء. وأمام الحاح رجاله، والإغراء الشديد بسبب من جوعنا، جلسنا معهم، وبدأنا بتناول اللحم والرز والمرق، طعام شهي وغني وحار هو ما كنا بحاجة ماسة إليه، ثم تناولنا الفاكهة ومن بعدها الشاي، فقد كان معه أمتعة وتموين وأغطية وسيارات. وكان النهار على وشك أن ينتصف، ودب النشاط في أجسادنا، وأذكر أننا أكلنا كثيراً، أكثر من المعتاد، وبعد أن شكرناه كثيراً على كرمه، ودّعناه هو ورجاله، ودعونا لهم بالخير والصحة. حتى مزاجنا تغير بعد تلك الوجبة الدسمة، فأخذنا نداعب بعضنا البعض بعد أن عاودنا السير من جديد.

التقينا قرب النهر بأبناء أعمامي وكل معه عائلته، وكل عائلة عدد أفرادها أكثر من ستة أشخاص، ومعهم أطفال صغار، وقال أكبرهم:

– وأخيراً وصلتم، لقد ظننا أنكم قررتم البقاء. ثم أضاف: هل تركتم الوالدين في المدينة؟

فقلت:

- نعم، كان لا بد من ذلك كما تعرف

ثم قال ابن عمي الآخر:

- حسناً فعلتم، لنكن معاً في السير

وسرنا معاً نتبادل الكلام، ونستعيد بعض ذكريات أيام الطفولة عندما كنا في القرية، تلك السنوات القليلة التي كنت أسيرها، وتركت بصمات بإصرار على ما تلا ذلك من مراحل حياتي، وانعكست على اهتماماتي وأفكاري، وبالتالي حددت انتمائي المطلق للجبل ولمحنته الأزلية.

وبعبورنا النهر إلى الضفة الأخرى، نكون في قلب **بەرواری بالا**، التي كانت تتكون من حوالي 75 قرية، ومركزها الإداري **كانیماسیٚ** التي قرر الناس التوجه إليها، ولا أدري لماذا أصر صالح وفهمي على أن نكون لوحدنا دون الاندماج مع أية عائلة أو مجموعة أخرى، حتى لو كانوا أولاد أعمامنا أو أقربائنا، وكانوا كثرة. وعندما وقف كل من نرمين وعمر على الحياد، وافقت على أن نحاول تدبير أمورنا بأنفسنا والاعتماد على قدراتنا الخاصة، عدا المواقف الاستثنائية.

كانت الأرض ترتفع قليلاً، أرض تغطيها صخور رملية وتربة حمراء، وهي امتداد لطبيعة الأرض في قريتنا والأصح قريتنا التي سويت مع الأرض مع القرى المتبقية (بعد ترحيل الشريط الحدودي في عام 1975بعد انهيار الحركة الكردية في آذار من نفس العام) في عمليات الأنفال السيئة الصيت في خريف عام 1988.

وكان النشاط قد دب في أجسادنا بسبب وجبة الغداء الدسمة التي تناولناها. وبعد وقت قصير وصلنا الطريق المبلط الذي يربط مدينة (زاخو) بـ(**كانیماسیٚ**)، قاطعاً المنخفض الطويل والواسع من

بـه‌رواریی‌بالا، وسرعان ما وجدنا أنفسنا وسط موجة بشرية، ومظاهر هجرة ضخمة وحقيقية والكل في عجلة من أمره كأن ورائهم قوة ظالمة تهدد حياتهم وتطاردهم، وكان الحال كذلك، ونعني بتلك القوة، جيش السلطة الذي توقعناه في أية لحظة، بآلياته وطائراته وجنده الذين لا يرحمون أحداً ولن يبقوا على شيء.

جمع حاشد يحملون ما استطاعوا حمله من التموين والعدة والمواد المختلفة، أطفال من كل عمر، صبيان وصبايا في عمر الورد، شباب وشابات على اختلاف هيئاتهم الاجتماعية، وشيوخ وعجائز، ولم يخل الجمع من شيوخ فقدوا بصرهم أو معوقين وضعفاء. كان الجمع يتحرك على شكل شريط طويل على الطريق المبلط، وقسم منهم يستخدم السيارات الخاصة أو حشروا أنفسهم على ظهر سيارات الحمل كصناديق الشاحنات والساحبات الزراعية والبلدوزرات، حتى السيارات الحكومية أخذوها واستخدموها في هجرتهم، كذلك بعض الشاحنات العسكرية أيضاً.

في ذلك الوقت فقدنا الهدوء الذي كان يغمرنا في اليومين الأولين ونصف نهار من اليوم الثالث بعد أن تركنا مدينة دهوك. وأذكر أن تارا كانت تشكو من متاعب في السير، حيث توقفت فجأة ورمت أحمالها، وأخذت تنزع حذاءها، فتبينت أن هناك بروزاً كورم على جانب قاعدة الإصبع الكبير في أحد قدميها يشبه نمو العظم أو غدة دهنية صلبة، وعندما تحسستها ارتبكت بعض الشيء ولكنني كنت حريصاً على أن أجعلها تشعر بالأمان والثقة، فرمقتها بنظرة طويلة تنطوي على الاحترام والحرص على سلامة أفراد مجموعتنا دون استثناء، وأغلب الظن فهمت

هي من جانبها موقفي، رغم أنها لم تعلق على ذلك بشيء. وعرضت عليها أن ترتاح قليلاً، فقالت:

– كلا، لا داعي لذلك، فقد خف الألم الآن، وكنت أتألم كثيراً عند النزول من المنحدر فقط. وبعد صمت قصير أضافت وهي تبتسم، والأصح كانت عيناها تبتسم ابتسامة لم أشهدها من قبل:

– أرجو أن لا تتركونا وحدنا، فنحن لا نعرف أحداً غيركم.

– اطمئني يا تارا، قلتها لأول مرة، مضيفاً: مصيركم من مصيرنا وراحتكم من راحتنا.

ثم رأيت أختها سميرة وفهمي يقبلان نحونا من بعيد، فقالت تارا:

– أستاذ شفان

– نعم

– أرجو أن تتحملوا طباع أختي سميرة، هي هكذا لا تتغير، كثيرة الكلام، ومتقلبة المزاج، ولكنها طيبة وبسيطة للغاية.

– لا عليك يا تارا، فأنتم الآن جزء منا وأمانة تعاهدنا على الحفاظ عليها منذ البداية.

وبعد أن اطمأنت سميرة على أختها قال فهمي مازحاً:

–– لا تقلقي على أختك، يبدو أن الرئيس قد قرر السهر على راحتها وترك بقية أفراد القافلة دون رعاية!

فابتسمت تارا أجمل ابتسامة وقد توردت خداها وكشفت شفاهها عن أسنان كبيرة بعض الشيء وقوية، دون أن تخرج عن وقارها وهدوئها وصمتها.

كان الجمع كبيراً نسبياً، وكان بالإمكان أن تسمع كل شي، ثرثرة فارغة، شكوى وأنين، يصيح هذا على ذاك، يحذر هذا تلك، وتضرب

تلك طفلاً تحثه على السير رغم صغره وشعوره بالتعب، وعجوز تشكو الله مظالمها...الخ.

كان الجو مشمساً على العموم، رغم شعورنا بلفحه برد خفيفة. مررنا بخرائب قرى (چەقەلا) وعلى اليمين خرائب قرية (كركا)، وعلى الطريق رأيت شيخاً قد أفترش الأرض وكان فاقد البصر، يحتضن طفلة ويبكي بكاء مراً، وقيل لنا أنه وحيد ليس له من يساعده، وفي أثناء ذلك مرت سيارة (بيك آب)، وطلبنا من سائقها أن يحشر ذلك الشيخ مع ما تحمله من الناس، الذين اصطفوا على ظهرها بشكل لا يصدق. أعتذر السائق أول الأمر؛ لعدم وجود مكان فارغ، وكان صادقاً فقد كانت السيارة تحمل جمعاً غفيراً هو ضعف حملها، غير أنه عاد فاستجاب لطلبنا عندما قالت له تارا:

– أعمل المستحيل أرجوك، فهذا الشيخ ومعه الطفلة سيموتان في الطريق حتماً، ولن يكترث لهما أحد.

ولأول مرة أيضاً رأيت تأثير تارا على الآخرين، فمع أنها فتاة عادية للغاية وتفتقر إلى الرقة ومظاهر الأنوثة التي تغري الرجل لأول وهلة، إلا أنها كانت تملك شيئاً في نفسها، ثميناً وينعكس ذلك على هيئتها العامة وتظهرها في عينيها، كان شيئاً من ذلك الجمال في صوتها ومجمل حركاتها التي عرفت فيما بعد وعندما امتدت بنا الأيام، أنها كيان لا يشبه أحداً، وقيمة لا يدركها أحد، انه شيء كامن في نفسها، وتحتاج إلى الكثير من الجهد والثقة لكي تظهره.

وهكذا تمكنا من إرسال ذلك الشيخ بالسيارة إلى **كانىماسى**[2]، ولكن المشكلة كانت أكبر من إرسال فرد واحد، فقد كان الناس كلهم بحالة

يرثى لها، فهم يعيشون الخوف والجوع والظروف الصحية السيئة، وفي الليل كان البرد لا يرحم، رغم أن الجو لم يكن ممطراً، غير أن الأرض خارج الشريط المبلط كانت موحلة بسبب الأمطار الغزيرة التي انهمرت قبل أيام، فقد تأخر الشتاء عن الرحيل ذلك العام، ومظاهر الربيع التي تتفجر دفعة واحدة لا زالت بعيدة في تلك الجبال العالية.

وصلنا إلى بقايا قرية (تشيش) وكان ينحدر من جرف ترابي تغطيه صخور رملية قليل من الماء، يصدر صوتا مميزاً فتوقفنا لشرب الماء، وأبلغت عمر بأن يملأ الإناء بالماء الصافي، فقال:

– أمامنا ماء كثير فلا داعي لإضافة ثقل إضافي على أحمالنا

فقلت له:

– فلتضع لتراً أو لترين على سبيل الاحتياط

فأمتثل للأمر وقال :

–خلي بالك من تارا يا شفان

فابتسمنا أنا وتارا، وفي تلك اللحظة تقربت منا نرمين وقالت:

– كم تبعد كانيماسيٚ من هنا؟، هل هناك الكثير؟، لقد تعبت

– إنها لا زالت بعيدة ولن ندركها إلا بعد حلول الظلام في كل الأحوال

– نحتاج سيارة، ألا يمكن إقناع أحد السواق؟ أرجو أن تحاولوا

– إن السيارات شحيحة، لأن كل واحد مهتم بشؤونه الخاصة كما ترين، ثم هناك شحة في الوقود كما تعلمين، وأعدك بأنني سأحاول.

التفت فهمي الى صالح قائلاً:

– هل أنت تعب يا صالح؟

- طبعاً يا أخي كلنا تعبنا ولكن ماذا نفعل؟ علينا أن نتحمل كل شيء.

أما الأطفال، فكان الصغير قد أدركه التعب وكان يشتكي لأمه التي كانت تصيح بوجهه وقد فقدت أعصابها؛ فتدخلت تارا وهدأت من الموقف، وقبلت الطفل وأسكتته، ثم سرنا من جديد، ومررنا ببقايا قرية(خشخاشا) التي كانت جاثمة على مرتفع من الطبقات الصخرية والطينية.

أدركنا عائلة ابن عمي الكبير، ومازحونا من زاوية أنهم أقوى منا بنية، وعلى أن سكان أهل المدن لا يستطيعون تحمل الحياة القاسية مثل سكان القرى.

ووصلنا قرب بقايا قرية(جديدكا وبيێقولكێ)، ومن بعيد ظهرت بقايا قرية(سەفەريا) والجبل الصغير جنوبها، فشممت أنا وأولاد أعمامي وأولادهم نفحة من رائحة طفولتنا حيث تقع وراءه بقايا قريتنا التي أحببنا ربوعها ونهرها وبساتينها وصيفها الحار وشتاءها البارد على السواء. وفي تلك اللحظة التي تفجرت فيها عواطفنا مرة واحدة استوقف عمر سيارة (بيك آب) تحمل جمعاً من الأطفال والنساء، استطاع إقناعه ليحمل معه بعضاً منا، فصعدت نرمين وسميرة وأطفالها، ثم طلبت من تارا أن تنضم إليهم غير أنها رفضت ذلك لعدم وجود أية بقعة فارغة في صندوق السيارة، وكانت محقة، وقالت:

- أستطيع مواصلة السير.

ولكننا حشرناها مع الجمع عنوة وطلبنا من نرمين أن ينتظرونا في كانيماسێ. وتحركت السيارة ببطء وهي تئن تحت وطأة زيادة الثقل

بشكل غير معقول. والطريف أن السائق ومن معه في صدر السيارة امتنعوا عن قبول أي أجر عندما عرضنا عليهم ذلك، حيث قال أحدهم:

– قررنا العمل لخدمة هذا الجمهور المغلوب على أمره، وسوف نعود من جديد لأخذ وجبة أخرى وهكذا حتى ينفذ الوقود.

بقينا أنا وفهمي وعمر وصالح، وفي تلك اللحظات شعرت بالملل والفراغ وأدركت على الفور أن تارا بدأت تغزو خيالي عنوة دون أن تترك لي خياراً، فضحكت مع نفسي، وحاولت أن أبعد حتى فكرة مجرد الإعجاب بها.

وبعد مسيرة قصيرة جلسنا لنرتاح قليلاً، وندخن السجائر التي أصبحت من الضرورات التي نلجأ لها كثيراً. واستطعنا أيضاً أن نحشر صالح في صندوق أحد اللوريات التي تبرع أصحابها لنقل الأطفال والعجزة والمرضى مساهمة منهم للتخفيف عن ما يستطيعون من معاناة ذلك الجمع الهائل، تلك القوافل التي تندفع بشدة وعزم إلى الأمام، وهم مدفوعون بخوف كان يتعاظم باستمرار، وكنت تسمع بعضهم يحث الناس على السرعة في السير وعلى تحمل التعب والجوع، لأن قوات السلطة تطاردنا من الخلف وقد تدركنا في أية لحظة. وتساءلت مع فهمي عندما تكررت تلك النداءات ووصلت أسماعنا:

– إذاً لماذا لا نختار طريقاً وعراً غير الطريق المبلط لسهولة الاختفاء عندما تدركنا قوات السلطة؟ إذ أن طائرة واحدة تستطيع حصد هذا الجمع برشاشاتها في وقت قصير. وتساءلنا أيضاً عن اختفاء رجال **البيشمه‌رگه**، حيث لم نر لهم أثراً، ألم يكن الأجدر بهم حماية مؤخرة هذا الجمع الهائج والمغلوب على أمره في نفس الوقت؟ لم نجد لتلك

التساؤلات أجوبة معقولة، حيث كنا نسير بسرعة بعد أن بقينا نحن الثلاثة، وكنا لم نزل أقوياء بما يكفي لنسير إلى الأمام بكفاءة عالية نسبة إلى الأطفال وبعض النساء والشيوخ والعجزة. وكانت السرعة تمتص كل فكر، وكل اختيار.

أشار علي فهمي وعمر أن ننفصل عن أولاد أعمامنا لنصل إلى هدفنا التالي، رغم أنني لم أكن أشاطرهم ذلك فقد رضخت لرغبتهم، وبما أننا أصبحنا أخف القوم تقريباً وبخاصة عندما وضعنا أمتعتنا مع صالح؛ لذلك قلت لأبن عمي:

– هناك رغبة في أن نسبقكم، هل تحتاجون بقاءنا معكم؟، وسوف نلتقي حتماً في **كانىماسىٚ**.

– كلا، فلتذهبوا، فسيرنا يجب أن يكون بطيئاً بسبب النساء والأطفال والأمتعة، الله معكم.

وعندما انفصلنا عن تجمع أقربائنا سرنا بسرعة، ولا أدري أيضاً ماذا كان يدفعنا إلى الأمام؟.

عاد خيالي إلى الوراء، إلى شهر أب من عام 1988، حيث قررت السلطة وقتها وبعد أقل من شهر على توقف الحرب العراقية الإيرانية إبادة ما تبقى من قرى كوردستان وتدميرها تدميراً شاملاً. وفي محافظة دهوك، تمت مباغتة القرى القريبة من مركز المحافظة وسرسنك وعقرة وغيرها حيث ابتدأت حوالي العشرين من شهر آب وتمت محاصرة تلك القرى، وفرزوا الرجال من النساء والأطفال دون سن الخامسة عشر من أعمارهم، وتم

قتل الرجال ودفنهم في مقابر جماعية، ثم تم ترحيل النساء والأطفال إلى مخيمات خاصة، وبعد ذلك فجروا القرى بالمتفجرات، ورشوا المواد الكيميائية على كل ما هو أخضر، بل تم تفجير مصادر المياه أيضاً.

أما في بر واري بالا وشمال وشرق زاخو مثلا فقد وصلتهم الأخبار قبل أيام، لذلك وفي صباح يوم الخامس والعشرين من آب، هجروا قراهم وزحفوا باتجاه الحدود العراقية التركية، وأخذوا معهم الأمتعة والمؤن ومنهم من هرب بما عليه من ملابس وتركوا كل شيء. وكان أهل قريتنا ضمن ذلك الجمع المهاجر، ومعهم أعمامنا الثلاثة مع من كان معهم من أفراد أسرهم في ذلك اليوم العصيب.

قضى الجمع ليلتين قبل أن يدركوا الحدود، الليلة الأولى في قرية(قمريا)، والأصح مرة أخرى بقايا تلك القرية. والليلة الثانية قريباً من الحدود في منطقة جميلة تدعى(بيّلمبيرى) وهي مصيف لسكان بعض القرى القريبة حيث كان أهلها يقضون الصيف هناك لوفرة الكلأ والمياه والهواء البارد. وأخيراً وقفوا عند خط الحدود، وفي تلك الأثناء كان شتات المهاجرين قد تجمع معاً من مختلف المناطق، حيث وصل عددهم إلى ما يربوا على الثلاثة عشر ألفاً، وعندما منعتهم السلطات التركية من عبور الحدود، مكثوا هناك ليلة أخرى في العراء.

وفي صباح اليوم التالي، ظهرت طلائع جيش السلطة من بعيد، فدب الرعب والذعر في ذلك الجمع الحاشد المغلوب على أمره، فأندفع الناس بقوة وبشدة لم تستطع السلطات التركية الوقوف بوجههم، وهكذا عبروا

الحدود ووصلوا إلى قرية كردية تركية تدعى(گـره ميس) التي هب أهلها عن بكرة أبيهم لنجدتهم، وبكوا لمظهرهم ومصيرهم، وتم توزيع الجمع على بيوت القرية.

مكثوا هناك أسبوعين ثم تم ترحيلهم إلى قرية أخرى تدعى (ئاشويت)، وتطلب ذلك منهم أن يمشوا على الأقدام سبع ساعات. ومكثوا هناك حتى العصر، ثم جاءت السلطات التركية ومعهم سيارات الشحن، وجرى نقلهم إلى منطقة قرب مدينة (ديار بكر) حيث وصلوها عند منتصف الليل. ووجدوا هناك مخيمات جاهزة ولكنها قليلة نسبة إلى عددهم، ثم وزعوا الطعام، ومكثوا هناك ثلاثة أشهر، كانت ظروفهم سيئة للغاية بسبب الزحام والظروف الجوية، حيث حاصرتهم الأمطار الغزيرة، فتدهورت أحوالهم الصحية وحدثت حالتا تسمم جماعية من جراء تناول الصمون الفاسد، وكنتيجة لذلك حدثت حالات وفاة.

بعد تلك المدة وبسبب الظروف السيئة تم نقلهم إلى تجمعات أخرى قريبة، وكانت عبارة عن بيوت مشيدة، وكان الطعام الذي يتم توزيعه عليهم فقيراً وكذلك تدني مستوى الخدمات الصحية. وعاشوا هناك بدون عمل، وتحت حراسة مشددة، وسمحوا لهم بزيارة المدينة بأوراق سماح خاصة يتم الحصول عليها بروتين طويل، وتم تزويدهم أيضاً بهويات خاصة. وكان معهم جرحى تأثروا بالأسلحة الكيميائية وجرى عرضهم على المنظمات الدولية وتم علاجهم في أوروبا. أقاموا هناك في ثلاث تجمعات، أو مخيمات، تدعى (ماردين) و(ديار بكر) و(موش)، وكل واحدة تقع قرب مدينة، وهي متباعدة عن بعضها، ولكن السلطات التركية سمحت بعد عام من مكوثهم التنقل بين تلك المخيمات بعد أن

تم تسجيلهم وإحصاءهم وصرف هويات خاصة، وأوراق سماح للتنقل ما بين المخيمات المذكورة.

صحوت من تلك التأملات على صوت عمر يدعونا للتوقف، وكان فهمي قد نزع ذلك الحذاء الذي أخذه بالأصل من نرمين بعد أن تمزق وأصبح وجوده وعدم وجوده سيان، فرماه جانباً، والغريب أننا بدأنا نضحك نحن الثلاثة في تلك اللحظة، وعرضنا على فهمي أحذيتنا ولكنه بالطبع رفض الفكرة، وأخيراً أعطيناه أنا وعمر جواربينا لذلك القدم لتصبح ثلاثة مع جواربه، يمشي عليها لعلها تحمي قدمه، ورتبنا الأمر على ذي الحال، وكنا شديدي التعب، وأستفحل فينا الجوع، وكان الظلام قد أرخى أسداله، لا نرى غير مسافة أمتار أمامنا، وزاد شكوى الناس، ودب فيهم اليأس والرفض، وحدثت حالات السقوط والاصطدام ببعض، وزاد البرد كلما توغلنا في جوف الليل. وكان فهمي يلعن الزمن والسياسة وأشياء أخرى لا أود ذكرها هنا.

وبعد العشاء بزمن وصلنا (كانىماسى) فوجدناها تسبح في أكوام النيران المشتعلة التي أوقدها الناس للتدفئة بالدرجة الأولى، وصادفتنا مشكلة التعرف على مكان الذين سبقونا إلى المكان، وأقصد صالح ونرمين وأسرة سميرة وسط ذلك الحشد من الناس، ولكن ذلك تم بأسهل مما كنا نفكر فيه، فبعدما توغلنا مسافة قصيرة وجدنا صالح واقفا على الطريق يتفحص الجموع الوافدة، فناداه عمر وتقرب منا قائلاً:

- حمدا لله على سلامتكم، هل أنتم بخير؟

فقلت له:

- نعم نحن بخير

ثم قال لفهمي:

- أين حذاءك؟

- لقد انتهى عمره فرميته

- حسناً أنت عسكري فأعتبر نفسك تخوض تمريناً تعبوياً، أليس كذلك؟

فضحكنا جميعاً

ثم قلت له:

- أين بقية الجماعة؟

- هناك، مشيراً إلى نار على مقربة منا

فذهبنا إلى حيث دلنا صالح، وهناك هب الجميع لتحيتنا وحمدوا الله على سلامتنا، وعلى ضوء النار وفي غياب القمر لاح لي وجه تارا أجمل من ذي قبل، وكانت قلقة عموماً بسبب من ظروفنا.

وكان صالح قد اختار لهم مكاناً جافاً وأحضر بعض الحطب وأشعل لهم النار، لأن المكان كان مبتلاً ورطباً من جراء الأمطار.

تناولنا بعض الخبز والتين المجفف. كان الوقت يقترب من منتصف الليل، وقررنا أن نرتاح بعض الوقت، وأن نعاود السير مع انبلاج فجر اليوم التالي، ففرشنا البطانيات، نصف البطانية كفراش والنصف الأخر كغطاء ووضع البعض منا أحذيته كوسادة تحت رأسه بعد أن نظفناها، ونمنا نوماً متقطعاً بسبب البرد وصلابة الفراش.

استيقظنا من النوم قبل طلوع الشمس، والواقع أن أكثرنا لم ينم سوى بعض الإغفاءات القصيرة والمتقطعة بسبب البرد الشديد والتعب والجوع أيضاً. ولشدة عجبنا لم نتبادل تحية الصباح، فمع أول خيوط النور

الساطع وجدنا المكان خالياً من الناس من حولنا، فوضى في كل شيء، فمئات السيارات على اختلاف أنواعها وأكداس من أكياس المواد الغذائية والفرش والبطانيات وأواني الطبخ وقناني الغاز وقطع الملابس المختلفة، تركها أصحابها ورحلوا، وعلمنا أنهم تحركوا إلى موقع قرية (دوريێ)، ومنها إلى موقع قرية(سەرزێری) ومنها إلى تركيا، يدفعهم ذلك الخوف المتصاعد من أن تدركهم قوات جيش السلطة، وكانت أسر أخرى تستعد للتحرك بعد أن نالت قسطاً من الراحة، وكانت معظمها من تلك التي لديها أطفال صغار أو مرضى وعجزة، وبدأ البعض منهم يفقد السيطرة على أعصابه ويتخلى عن إنسانيته، فمنهم من ترك طفلاً أو أباً مريضاً عاجزاً، فكانت المأساة مؤثرة للغاية، حيث لم يسبق لنا أن عايشنا مثل تلك المواقف سابقاً.

أشرت على المجموعة بتناول بعض الخبز والتين المجفف، غير أن عمر قال:

- سأبحث عن طعام أفضل بين المخلفات، وفعلاً غاب مع صالح بعض الوقت وأحضر بعض الصمون والبصل والبيض المسلوق ومواد أخرى، فتناولنا طعامنا. وكان فهمي قد وجد لنفسه حذاءً مناسباً لقدمه، انتعله وسر لذلك. وأول ما فكرنا فيه في البداية، أن نجمع بعض المؤن والأواني لنأخذها معنا، ولكننا عندما قررنا السير تخلينا عنها جميعاً، بل لم نبق الا على خمس بطانيات فقط، ليسهل تنقلنا، فقد علمنا من الناس أن طريقنا للمرحلة القادمة صعب ووعر للغاية، إضافة إلى الأوحال الكثيرة بسبب سقوط الأمطار.

كانت سميرة دائمة الشكوى، وتصيح على ولديها، وتتشاجر مع تارا.

أما صالح، فقد كان ضعيف القوى، رغم أنه أخفى ذلك عنا، وكانت هيئاتنا تدعو للشفقة وللضحك في وقت واحد، وبدأت فكرة البقاء حياً لوحدها تخيم على تفكيرنا، وتخلينا عن ما دونها من الأفكار.

ولأول مرة رأينا أفراداً من قوات **البيْشمه‌رگه** وأحد قوادهم، وعلمنا فيما بعد أنهم كانوا يحمون مؤخرتنا من غير أن نراهم. تحركنا إلى الأمام مع أناس آخرين، نسير سيراً أقرب إلى الركض، وكانت تارا تمشي على بعد خطوات مني، صامتة، ولا زالت تحتفظ بالكثير من صفاء البشرة وترتيب شعرها الجميل، وقلت لها:

- كيف أنت يا تارا؟

فالتفتت، وعندما وقعت عيناي على وجهها، سرت في جسدي فرحة لم أعهدها، وغاب العالم، وبقيت عيناها ممسكتين بسحر غريب، وجمال يدخل الهدوء والسكينة إلى النفس عنوة، ولكنني في الأخير كان علي أن أسيطر على رقتي وضعفي، وسمعتها تقول:

- مثلما ترى يا أستاذ، إنها حالة أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، ثم أضافت بعد لحظات صمت:

- هل سنموت جميعاً؟

- لا قدر الله، دعي أيمانك بالله قوياً في كل الظروف، وما دمنا معا فأرجو أن لا تخشى شيئاً، ويجب أن تعلمي أن مصيرنا مرتبط بمصير الألوف من الناس.

- ليتنا بقينا في مـانگێش ... ولكن ماذا أقول لأختي، لقد أصرت على أن نهرب، فقد كانت خائفة بشكل غريب.

- أنها مشيئة الأقدار، فنحن أيضاً كنا قد قررنا البقاء في دهوك في اليومين الذين سبقا يوم خروجنا، وكما قلت سابقاً قررنا الهرب آخر الناس، اتخذنا ذلك القرار في لحظات.

وعدنا إلى الصمت، كان الجو بارداً وغائماً عموماً، وكان الطريق وعراً كثيراً، وزادت الأوحال جراء سقوط الأمطار الغزيرة من صعوبة السير، فكنا ننزلق كثيراً، وتوسخت ملابسنا وأيدينا، وكان فهمي في المقدمة يحثنا على السير؛ لنلحق بالآخرين، بعشرات الألوف من الذين سبقونا في السير إلى الأمام.

وأخيراً اقتربنا من بقايا قرية (دووری) وجدير بالذكر إن ذلك الطريق يبدأ من شمال شرق کانیماسیٚ، ثم يتجه شرقاً. ومن ثم وصلنا إلى بقايا قرية سـەرزێری المطلة على نهر الزاب الكبير، حيث يمر على مسافة ليست بعيدة إلى الشرق منها، والتقينا هناك بمن سبقنا، وكان جمعاً حاشداً يدعو للعجب وللشفقة، كان مزيجاً غير متجانس وقد تخلوا عن الكلام والضحك، كان منظراً مأساوياً، رغم أنه كان بالإمكان فرز بعض الناس، فهذا موظف أو متعلم لازال يحتفظ بالكثير من هيئته ووقاره وانضباطه، وذاك بقال أو عامل أو طالب أو قروي، وكذلك الحال بالنسبة للنساء والأطفال، ولكن الكل كان يشترك بالصمت تارة، وبنفس الكلام تارة أخرى، ويتقاسم نفس المصير المجهول الذي ينتظرنا، ويتأثر نفس التأثير بالعوامل الجوية والنفسية معاً.

كانوا واقفين ويتطلعون نحو الشمال. كان قطيعاً هائجاً أيضاً ويتطلع إلى العبور إلى تركيا، وعلمنا أننا أمام قرية (دهشتان) التركية على الجانب الأخر من الحدود، وقد جرت محاولة جادة من قبل الجمهور الهائج والخائف لعبور الحدود ولكن السلطات التركية من قوات الدرك والجيش منعتهم من العبور فتراجعوا حيث وقفوا مذعورين كقطيع هائل من طيور البطريق، يصطف متطلعاً نحو الأمام. وكانت المنطقة التي شهدت تجمع المهاجرين واسعة بعض الشي، ولا يفصلنا عن تركيا غير رأس جبل، وعلمنا من الذين سبقونا أن فيها ألغام كثيرة وطلبوا من بعضهم البعض اتخاذ الحذر وعدم الاندفاع إلى الأمام بشكل عشوائي. وكانت قوافل المهاجرين تصل لتنضم إلى ذلك الحشد الهائل من الناس بشكل مستمر.

التقينا هناك بكل أقربائنا ومعارفنا، وطلب الكثير منهم أن ننضم إلى تجمعاتهم والاستفادة من إمكانياتهم وخبراتهم لشعورهم أننا أقلهم جميعاً خبرة بمثل تلك الظروف وأقلهم ضعفاً أمام تلك الظروف الجوية القاسية حيث أشتد البرد بشكل لم نشهده، ولكن إصرار فهمي وعمر وصالح، على أن نبقى لوحدنا معتمدين على أنفسنا بشكل منفرد جعلني أتوجه لهم بالشكر والتملص من فكرةِ الاندماج الكلي بلطف وبأعذار مختلفة كل مرة.

اجتمعنا معا نتفقد بعضنا، فكانت نرمين متذمرة، إما صالح فكان في حالة من الضعف الواضح. إما طفلا سميرة فكانا لا يزالان بخير نسبة إلى الكثير من الأطفال الذين رأيناهم بحالة يرثى لها، وخاصة الرضع منهم.

إما سميرة فكانت قوية ومتذمرة، وأما أنا وفهمي وعمر فقد أصبح في حكم المفهوم، أننا يجب أن نظل الأقوى في كل لحظة لأن ضعفنا

سينعكس على الآخرين وتنهار عزائمهم ويتسلل الوهن واليأس إلى نفوسهم، وحقيقة الأمر أننا لم نكن بتلك المواصفات المطلوبة، غير أننا وكما ظهر قررنا دون اتفاق معلن أن نعكس تلك الصورة للآخرين مهما كلفنا الأمر.

كانت تارا تراقب ذلك الجمع، تلك الموجات البشرية التي تتحرك هنا وهناك في دوائر وأنصاف دوائر وخطوط مستقيمة أو ملتوية بسبب البرد، ونفاذ الصبر والخوف من أكثر من مصدر. وفي تلك الأثناء تقرب منها شاب وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث بلغتهم، كان شاباً مربوع الجسم يصغرها بالعمر شعر رأسه اقرب إلى الصلع، نظيف وموفور الصحة وعلى قدر من الوسامة، فشعرت ببعض الضيق، ولم أعلم بعد بأنها كانت غيرة نمت لدي فجأة. والظاهر أن عمر كان يراقبها أيضاً، إذ بعد رحيله تقرب مني قائلا: الظاهر أن هناك من لا يود اضاعة وقته في كل الظروف، ولما لم أعلق بشيء أضاف قائلا (أنها أحد أفراد قافلتك يا شفان وأنت الرئيس ولا تدع ذلك يتكرر). قالها وهو يربت على كتفي بأسلوب انطوى على المزاح. وأخيراً قلت له:

- ربما كان أحد أقربائهم أو مجرد صديق.

-ربما ولكنني أرى أن تسألها عنه، فهو غير معروف من قبلنا، وما دمنا مسؤولين عنها وعن عائلة أختها، يجب أن نعرف كل ما يجرى لنا جميعاً.

- أنت محق يا عمر

في تلك اللحظة عاد فهمي وصالح، ليقفا على آخر أخبار ونية الجمع من الذين كانوا إلى أقصى الشمال أي الأقرب إلى الحدود، وقال فهمي:

– لقد قرر الناس أن يخيموا هنا الليلة بانتظار الصباح حيث سيحاولون عبور الحدود من جديد.

فقلت لهم:

– حسناً ابحثا لنا عن مكان مناسب لمخيمنا أنتما أيضاً.

ثم ناديت نرمين فلما جاءت إلى حيث كنت أقف قالت:

– نعم يا شفان ، ماذا تريد؟

– أردت أن أطمئن على أحوالك بصورة عامة، هل أنت بخير؟

– عموماً نعم، ماذا أفعل؟ لقد ضاع مستقبلي وربما لن نصمد طويلاً في أحضان هذه الظروف الجوية المميتة

–لا عليك، وأرجو أن لا تيئسي فأن أحوالنا ستتحسن حتماً عندما نصل إلى تركيا.

– ربما

ثم قلت لها:

– وكيف هي سميرة وأطفالها؟

– إنها قوية ولا يبدو عليهم غير مظاهر الظروف التي نعيشها جميعاً.

وكانت تارا واقفة على مقربة منها تقربت منا وقالت:

– ماذا نحن فاعلون يا أستاذ شفان؟

– لاشيء، سوى الانتظار، فقد علمنا قبل قليل أن الأتراك يمنعون الناس من عبور الحدود، ويفشلون كل محاولة؛ لذلك قرر الناس أن يخيموا هنا لقضاء الليل بانتظار الصباح آملين أن تتغير الأمور.

فقالت مستغربة:

– هنا في العراء؟

-أجل

- في هذا البرد القارص والوحل والرطوبة!

- ليس أمامنا خيار آخر فلتصمدي

وعندما همت بالرحيل لتنظم إلي أختها ونرمين، استوقفتها، وكنت لحظتها لوحدي وقلت لها:

- من كان ذلك الشاب الذي كنت تتحدثين أليه قبل قليل؟

فاستغربت من تسائلي وقالت:

-انه شاب تعرفت عليه في **كانىماسىٚ** قبل وصولكم، انه مدرس من مدينة زاخو

- لا أريد أن أتدخل في خصوصياتكم، ولكنني أرى من الواجب أيضاً أن أكون على علم بكل صغيرة وكبيرة عن كل واحد منا بدافع الحرص على سلامتكم، ثم أضفت قائلاً:

- وماذا كان يريد منك؟

فقالت مستغربة:

- لا شيء، مجرد حديث عام عن أوضاعنا، وسألني عن عملي، واذا كنت متزوجة أو مخطوبة. ثم أضافت بعد أن حاولت أن تكتم ابتسامة خفيفة ظهرت على وجهها وانعكست على عينيها الجميلتين وخديها المتوردتين البارزتين:

- اسمه صباح وهو أعزب، وله رغبة في الالتحاق بالدراسات العليا في إحدى الجامعات

- حسناً يا تارا، أرجو أن تعذريني لتدخلي في شؤونك الخاصة، وأن تقدري أيضاً وضعنا ومسئوليتي

- انك محق في تحفظك فنحن في أوضاع غير طبيعية والحذر واجب على أية حال

ثم استدارت قائلة:

- عن أذنك يا أستاذ

- تفضلي

وبدأت أتفحصها وهي تبتعد عني، وبدأت اشعر إنها تمتلك جملة أشياء لطالما بحثت عنها كل عمري، وتلك الأشياء تبلورت فيما بعد مع الأيام ونمت مع العشرة دون أن نجعل كل من حولنا يدرك عمق تلك العلاقة التي ربطتنا ورفعتنا إلى أعلى مراتب العفة والسعادة والجمال. كان جسمها جميلاً، رشيقاً وقوياً، وفيها الكثير من مظاهر الأنوثة، من تلك المظاهر غير المنظورة بل كامنة في أعماق نفسها، ويتطلب الكثير من الجهد والأمان لكي نشعر بها، وأدركت أيضاً أنها رغم بساطتها تنتقي موديلات ملابسها وألوانها بطريقة ذكية جداً لتلائم جسمها الرشيق.

كان الوقت عصراً عندما جاء فهمي ليدعونا إلى مكان تم اختياره قرب عين ماء صغير، وكان جافاً بعض الشيء، وبدأ شمل الناس يتفرق وتجمعوا على شكل مجموعات مختلفة العدد حسب صلات القربى أو الصداقة أو بدافع أنساني، كانت بعض التجمعات غفيرة وبخاصة لدى كبار رجال العشائر والأغنياء، أو لمجرد صلات القرابة، أو بسبب من رغبة ذاتية تولدت لديهم آنيا. وقررنا إن نتناول الطعام، كان لازال معنا كمية لا بأس بها من الخبز الرقيق اليابس الذي زودتنا به سميرة في مانگيش. وصادف إن كان بقربنا جماعة غفيرة العدد يتناولون الطعام أيضاً، والواقع أن الجمع بدأ يستعد لإقامة مخيماتهم وإعداد الطعام في

وقت مبكر لصعوبة ذلك في الليل، وكذلك للتغلب على الجوع وشدة البرد، حيث أن أغلبهم لم يكن قد ذاق شيئاً منذ الصباح

تقرب منا رجل في الأربعين من عمره وبعد أن سلم علينا، دعانا إلى مائدتهم التي كانت عامرة مقارنة بما كان معنا من طعام، وذلك بأدب ولطف جمين حفاظاً على كرامتنا قائلاً:

- أرجو أن تتكرموا علينا بقبول دعوتنا لكم لتتشارك في تناول الطعام ونستأنس ونتشرف بكم

فقلت له:

- نحن نقدر لطفكم وكرمكم ولكننا كما ترى أوشكنا على أن ننتهي من الطعام، ولقد شبعنا والحمد لله، أرجو أن تعذرنا ونتمنى لكم طعاماً شهياً.

وكان الرجل ضمن مجموعة من تلك العوائل الميسورة الحال وأنتقلت إلى كانىماسىٓ بواسطة السيارات، وحملوا أمتعة ومواد غذائية كثيرة تكفيهم لمدة طويلة. وبعد وقت قصير عاد نفس الرجل وهو يحمل آنية معدنية وعليها أقداح من الشاي الحار بقدر عددنا وقال:

- أرجو هذه المرة أن لا ترفضوا الشاي

فنهضت على قدمي وتبعني عمر وقلت:

- لن يرفض أحد الشاي في مثل هذه الضر وف، انه كرم منقطع النظير من حضرتكم

وأخذ عمر الشاي منه ووزعه علينا

وقال الرجل:

– أكرر دعوتنا لتناول مزيد من الطعام لو رغب أحدكم، فالطعام معنا وفير وقد نتركه هنا غداً مع أمتعة أخرى ... من يدري. . فلقد تركنا ثلاث سيارات فخمة وشاحنة محملة بكل شيء في **كانيماسي**

فشكرته من جديد، ثم استأذن مرة أخرى ورجع ليجلس مع عائلته.

كان الشاي ذلك المساء أقرب إلى تحقيق أمنية مستحيلة، وأشعلنا السجائر، وكان الرجل قد صب الشاي في أقداح كبيرة وأضاف لها كمية وافرة من السكر، لذلك كان لذيذًا . وسرى في أجسادنا دفء وجملة أخرى من المشاعر تولدت لحظتها سرعان ما زالت وعدنا إلى التفكير في حالنا ومصيرنا.

وبعد ذلك انتشرنا لجمع ما يمكن جمعه من حطب يابس نسبياً، وتم إشعال نار ضخمة، تحلقنا حولها نمد أيدينا تارة، وأرجلنا تارة أخرى، وقام البعض منا بغسل جواربه، ووضعها قرب النار لتجف، وكنا حريصين على الحفاظ على نظافة أجسادنا ما أمكن إلى ذلك سبيلا، وكانت سميرة تحمل معها عدة قوالب من الصابون قمنا باستعمال أول قالب في قرية (**كانيبەلاف**) وبعد أن فرغنا من إعداد المكان للنوم، قمنا بغرس عدة أعمدة خشبية في الأرض ونشرنا عليها بطانيتين على ارتفاع متر واحد من الأرض وبشكل مائل تحسبا من مياه الأمطار، وفرشنا تحتها مباشرة وعلى الأرض بطانيتين أخريين فيما تركنا الخامسة لسميرة لتستعملها غطاءاً لولديها الصغيرين، ولحظتها ندمنا بعض الشيء لعدم وجود المزيد من البطانيات معنا حتى هبط الظلام، وكانت السماء قد غطت بالغيوم تماماً وتعرفنا على عدد المهاجرين من النيران الكثيرة التي لا تحصى على مرمى البصر في ذلك الليل الصامت المظلم الكئيب. كان البرد شديداً،

ولولا النار التي كانت تدفئ أجسادنا وتسلينا في نفس الوقت لتضاعفت خسائرنا تلك الليلة حتماً.

جلسنا نتبادل أطراف الحديث ونبحث مستقبلنا، وبدأ الخوف أول الأمر ينصب على صحتنا، ثم أبدينا قلقاً على الطعام الذي لم يبق منه غير القليل، وقد لا يكفينا ليوم آخر، وكانت نرمين أول من ذرفت بضع دمعات غالية وهي تبدي خوفها من أن نموت وسط تلك الظروف الجوية القاسية، وقالت:

– إذا رفض الأتراك استقبالنا سوف تأتي قوات السلطة وتبيدنا جميعاً، ربما كان الأفضل أن ننتشر ونتباعد بدل أن نجتمع هكذا كقطيع من المواشي وتبعتها تارا بالبكاء، وقمنا أنا وعمر وفهمي بإدخال الطمأنينة إلى نفسيهما وقلت:

– لا أظن أن مصير هذا الجمع الغفير سينتهي بالموت الجماعي، فما حصل في عام 1988 لن يتكرر بنفس الأسلوب.

فقال فهمي:

– الغريب ليست هناك أية إشارة على اهتمام العالم بمأساتنا. وأضاف أيضاً:

– سأحاول تصيد الأخبار من الإذاعات العالمية، رغم أن البطاريات ضعيفة مع أنها جديدة.

وكانت تلك التساؤلات تدور في كل مجلس. وكان صوت بعضهم يتبادر إلى سمعنا، من الجماعات التي كانت تخيم قريباً منا، بل ذهب البعض إلى أعمق فربطوا هجرتنا بحبال مواضيع وأطراف سياسية عديدة،

وعلى طريقة الأكراد في النقاش لم يكن أحد ليتنازل للآخر عن رأيه مهما كلفه ذلك. في تلك الليلة الموحشة تعرفت لأول مرة على الطريقة التي كانت تارا تبدأ بها العطاس، وأذكر أنها لم تعجبني، وتعرفت على شيء آخر فيها تفعله بطريقة غريبة بعض الشيء، وذلك كان العطاس، حيث أنها تكبت العطسة تماماً بغلق الفم أثناء العطاس، وأذكر إنني كنت أنظر إليها وعندما انتهت منها رفعت رأسها الجميل ورأتني أبتسم لها فابتسمت هي أيضاً تلك الابتسامة التي كان القسم الأعظم والأجمل منها تقوم به عيناها، وحدث ذلك قبل أن تنخرط في البكاء.

وبعد الساعة التاسعة ليلاً يئس فهمي من الحصول على أي خبر يخص هجرتنا الجماعية تلك بعد أن استمعنا إلى عدة إذاعات عالمية وحسب الإمكانيات المحدودة لجهازه الصغير. نام الجميع، وكانوا متراصين، ففي أقصى أحد الأطراف كانت سميرة ثم ولداها، ومن بعدها تارا التي تحولت في نومها إلى ملاك مسالم، ثم نرمين وعمر فصالح ومن بعده فهمي، وبقي مكاني في أقصى الجهة الثانية، وطلبت منهم النوم، وبقيت أنا لأهتم بالنار، أضيف له بعض الحطب بين فترة وأخرى.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً لم أستطع أنا الآخر مقاومة النعاس، فقد كنت مجهداً للغاية، وفي ذلك الوقت كان العدد الأكبر من النيران حولنا قد خف بريقها، وقل عددها كثيراً، فأضفت كمية كبيرة من الحطب إلى النار التي كنا قد رتبناها بشكل طولي ليستفيد منها الجميع. ثم نمت أنا أيضاً وبسرعة على غير عادتي، وعدت لأصحو بعد منتصف الليل على صوت قطرات مطر خفيف تضرب البطانيات التي كانت على شكل سقف فوقنا. استمر الحال كذلك حتى وقت الفجر، لذلك كان نوم أكثرنا متقطعاً، ليس بسبب المطر ولكن لشدة البرد، فقد كنا بدون

غطاء، وملابسنا رغم سمكها لم تكن تكفي، بل لم يكن لها أي تأثير. ثم أشتد المطر مع مرور الوقت فامتلأت البطانيات بالماء وأخذ ينتشر منها ليسقط على أجسادنا، فقمنا ننفضها عدة مرات.

في صباح اليوم التالي كان الاستمرار في النوم قد أصبح مستحيلاً، ولم يكن بالإمكان إشعال النار أيضاً، وابتلت الأرض وتحول المطر إلى طوفان مخيف، فرفعنا البطانيات التي كانت مفروشة، وحاول البعض منا عمل ستار من الأحجار والطين لنبقي بقعة الأرض تحت البطانيتين اللتين كانتا بمثابة السقف في حال أفضل من الأرض في الخارج. وكنا ذلك الوقت كتلاً بشرية بائسة، جائعة مبتلة تحت بطانيات كادت أن تنهار لولا قوة الأوتاد والربط المحكم لنهاياتها الأربعة باستعمال ما كان معنا من حبال، وكنا ضعفاء، وهبطت عزائمنا، وشككنا بشجاعتنا ونحن فوق ذلك نتعرض لتيار هواء بارد شديد.

كان هناك الكثير من الناس في حالة أسوأ، ولم يكن حولنا ما يكفي من شقوق صخرية أو كهوف، حتى الأشجار كانت عارية من الأوراق، ورغم ذلك كان البعض يضحك بشكل هيستيري إلى جانب صرخات الاستغاثة التي يطلقها البعض وبخاصة بعض النسوة في ذلك الصباح العصيب، فقد كانت أول موجة خطر حقيقي نتعرض له بشكل جماعي، وكان خطراً بدا لنا مميتاً لا محالة، ورغم ذلك الحال أمرت فهمي أن يوزع ما تبقى لنا من الطعام على أفرادنا، فكانت خمسة أرغفة وحفنة من التين المجفف ومثلها من الزبيب، وقال صالح:

- أرى أن نبقي على نصف كمية ما لدينا من الطعام على سبيل الاحتياط

فقلت: لا داعي لذلك

وتم توزيع الطعام وتناول كل منا قدراً لم تسد جوفه، ولكنه على أية حال، كان ذلك المقدار الذي تناوله كل منا كافياً ليبقينا على قيد الحياة لفترة أخرى، أن لم يقتلنا البرد أو المرض، أو كلاهما، أو بأي خطر آخر يهددنا، فقد أصبحت مصادر الخطر من الموت عديدة.

في ذلك الصباح الممطر كثيراً شعرنا بضرورة أن يكون لذلك الجمع الهائل من الناس غير المتجانس والرافض للموت قيادة منتخبة؛ لتنظم صفوفها، وتشكيل لجان متعددة، تهتم بالأرزاق والصحة، والحماية، ومساعدة الضعفاء، وبث الأمل والتكلم باسمها إلى غير ذلك من المسؤوليات التي أصبحنا بأمس الحاجة لها، ولكننا سرعان ما أهملنا الفكرة، حيث قلت لفهمي وعمر ونرمين:

– أكثر من نصف هذا الحشد الهائل جاهل، والباقي متعلم ولن تجد إلا قلة نادرة تشاطرنا الرأي، ولن نستطيع إقناع الآخرين، بل قد نتعرض إلى سخرية، أو نتهم بتهم مختلفة.

وبينما كنا على ذي الحال وقد خف المطر، ومضى الوقت، شعرنا بحركة غير اعتيادية من قبل الجمهور، ثم علمنا أن السلطات التركية قد فتحت الطريق أمام الناس ليعبروا الحدود إلى قرية(**دەشتان**) القريبة، فسرت فينا فرحة مفاجئة أحيت بعض الأمل في نفوسنا، ونقلنا ذلك الخبر إلى حال أفضل، حتى أن عمر قال مازحاً وقد استعاد الكثير من معنوياته:

– إذا هيا يا إخوان لنعصر البطانيات ونفرغ ماء الشرب ونلبس أحذيتنا لمغادرة الوطن!

فأبتسم صالح قائلاً:

- أي وطن هذا الذي لم يمدنا بأسباب الراحة والأمن منذ أن وعينا

وهكذا اندفع ذلك الجمع الهائل بقوة نحو طريق ضيق موحل لعبور الحدود، وحطموا ما تبقى لديهم من أسلحة لكي لا يستفيد منها أحد، ووضعوها كعلامات دالة على جانبي الطريق، فقد كنا نمر وسط حقول فتاكة من الألغام، كان أكثرها ظاهراً للعيان وقد تعرت بفعل العوامل الجوية عبر السنين.

وأخذ الناس يحذرون بعضهم البعض من تلك الألغام، وبضرورة الالتزام بالطريق وعدم الخروج إلى جوانبه، فكان ذلك الطريق مكتظاً بالأجساد البشرية البائسة المغلوبة على أمرها وأكثرهم مبتل من قلة رأسه إلى أخمص القدمين، وكنا نسمع أصوات بكاء الأطفال الرضع هنا وهناك، والحق أن الناس لم ينسوا بعد واجباتهم الإنسانية بشكل نهائي، فساعدوا الأطفال والشيوخ والنساء والعجزة على السير، وكنا في عجلة من أمرنا أيضاً ولا ندري هل هو اكتشاف المجهول أو الحصول على أي شيء قبل الآخرين، أم هو نفس الخوف الذي أخذ أشكالاً أخرى.

كان منظرنا يدعو للضحك مع أننا كنا في أسوأ حال وذلك بسبب حالات الوقوع والتدحرج على الأرض وفقدان الأحذية، لأن الطريق الضيق كان في أكثر أجزائه موحلاً وزلقاً يصعب تثبيت الأقدام دائماً.

وجدت نرمين وسميرة صعوبات كثيرة أثناء السير، أما تارا فكانت تبدو قوية وعنيدة للغاية، صامتة وتسير بانتظام، ممسكة بيد يوخنا الابن الأصغر لأختها، لكن وجهها كان كثير الحزن، نادماً، فقد عبرت عن

رأيها صراحة في الصباح عندما كانت تكلم أختها، وفهمنا منها أنها تعاتب أختها سميرة على قيامهما بالانضمام إلى المهاجرين، وبأن قوات السلطة تستهدف الأكراد فقط وليس المسيحين حسب تعبيرها!

وهكذا تركنا أرض الوطن ووصلنا إلى قرية(**دەشتان**) التركية. كان الوقت ظهر يوم الرابع من شهر نيسان، بعد أن تم تفتيشنا بشكل دقيق من قبل أفراد مفرزة تركية عند نقطة الحدود.

كانت **دەشتان** عبارة عن قرية صغيرة، سكانها من الأكراد، وتقع على أرض قمة جبلية تطل على نهر الزاب الكبير الذي يمر على مبعدة عدة كيلومترات إلى الشرق منها. ويقع في مستواها، على الجانب الآخر من الوادي، مركز ناحية (**چكرچه**) أو (**چەلێ**)، وكان قد وصل قبلنا إلى القرية جمع غفير من الناس توزعوا في أزقة القرية وبين ثناياها وحولها.

ربما لم يكن موقف أهل القرية غريباً منا، فقد سدوا أبواب بيوتهم بأحكام، وخلت أزقتها من الناس، لأن منظرنا كان مخيفاً حتماً للآخرين، كنا قطيعاً غريب الهيئة، مندفعاً، جائعاً، مبتلاً وخائفاً حد الموت، ولابد أن مظهرنا أثار الخوف، أن لم يكن الرعب في قلوب أهل القرية الصغيرة، وكان عددنا مخيفا، وأكثرنا يغمر الطين معظم أجزاء جسمه، ولحانا طويلة نحن الرجال، وملابسنا في أسوأ حال من حيث النظافة والترتيب. وخاف أهل القرية على أنفسهم وممتلكاتهم من أن يخرج جمعنا البائس عن وقاره ويهجم على البيوت طلباً للدفء والطعام وذلك كان كل ما يهمنا دون استثناء. وسبقنا الناس الذين وصلوا قبلنا فاحتلوا بعض الثغرات والشقوق الصخرية، وكذلك الثغرات التي عادة تحدثها عمليات التعرية تحت الطبقات الصخرية الصلبة التي تنام على طبقات صخرية أو طينية أقل

صلابة منها. ولما لم نجد لأنفسنا مكاناً مناسباً، تجمعنا قرب حائط أحد البيوت في أطراف تلك القرية التي أقلقنا راحتها في ذلك اليوم.

كان واضحاً للجميع أن أي تحرك آخر لنا لن يتم إلا بموافقة السلطات التركية، بعد أن أصبحنا في أراضيها. وما أن استقر الناس وأخذوا لأنفسهم قسطاً من الراحة أصيبوا بخيبة أمل كبرى، فربما كان أكثرنا يتوقع أن نجد في انتظارنا مخيمات إنسانية تزودنا بالطعام والكساء، وتقدم لنا الخدمات الصحية، ولما أدرك الناس أننا سوف نفترش العراء، وليس هناك أي دليل على وجود أحد يقوم باستقبالنا وتقديم الخدمات، حاول الناس الاندفاع إلى الأمام، إلى مسافة أعمق داخل الأرض التركية عبر شارع ترابي وحيد كان يلتف حول القرية، ولكن تلك المحاولة والمحاولات الأخرى أفشلتها دبابة عسكرية تركية كانت تقف في الطريق وتقوم برمي الإطلالات النارية محذرة الناس.

وهكذا مكث جمعنا يحتل كل شبر، كان أشبه باحتلال مستعمرة نمل لحشرة صغيرة، أو قطيع هائل من الجراد يحط على المزروعات، ومع أن الوقت كان عصراً، فأن تدفق اللاجئين لم ينقطع، واستمر ذلك لأيام عديدة أخرى.

أحضرنا مجموعة من الصخور المسطحة وفرشناها على الأرض بطول أكثر من مترين وعرض حوالي متر واحد، وفرشنا فوقها بطانيتين كانتا أقرب إلى جافتين، وفرشنا البقية على شجيرات ومجا ميع صخور كانت قريبة منا لكي تنشف بعض الشيء بواسطة الهواء، وكانت الأمطار قد توقفت قبل دخولنا القرية، غير أن الأرض الطينية لمرافق القرية كانت تمنعنا من التحرك بحرية.

جلسنا والجوع يعصر أحشاءنا، والبرد سكين يقطع كل جزء من أجسادنا المرهقة الضعيفة، وكان يوخنا قد التصق بأمه يبكي بكاءً مراً، وهي تولول بصوت عال، وتلعن الأيام ومن كان سبباً في مأساتنا، وتبدي عجزها التام من أن تفعل له شيئاً، ولما سألتها عن سبب بكائه قالت:

– يقول أنه يشكو من ألم حاد في أحشائه

فطلبت منها أن تحاول تدفئته بواسطة البطانيات أو الملابس

وقالت نرمين:

– ماذا سنأكل، هل نفذ كل ما معنا من طعام؟

فقال فهمي:

– نعم تماماً

فقال صالح:

– لو كنا قبلنا دعوة الرجل ليلة أمس لوفرنا بعض الطعام

وعلق عمر قائلاً:

–لو كنا نعرف ماذا ينتظرنا لكنا أخذنا معنا من **كانيماسي** الكثير من المواد، ولفعل الناس مثلنا حتماً، فقد تركنا خلفنا أطناناً من الرز والدقيق وأشياء أخرى كثيرة.

فقالت نرمين:

– لن ينفعنا الندم أو النظر إلى الوراء، فكروا في تدبير شيء نأكله ولو لقمة تسد الرمق، أن لم يكن لنا نحن البالغين فللطفلين، واقترحت على سميرة أن تذهب إلى البيوت القريبة لتطلبا منهم بعض الخبز، ورغم أن الفكرة بدت مستحيلة، إلا أنني عدت فطلبت من عمر أن يذهب مع نرمين وتارا للقيام بجولة لعلهم يفلحون في الحصول على شيء من

الطعام لنأكله، وطلبت منهم عدم الاستجداء. ذهب عمر معهن، ثم طلبت من فهمي وصالح الانتشار قليلاً للحصول على بعض الحطب لإشعال النار.

كان **گورگيس** هادئاً أكثر من أخيه يوخنا الذي كان ينخرط في البكاء بين فترة وأخرى وهو يمسك ببطنه متكوراً على نفسه، ويصدر صيحات الألم، ويلوم أمه، ويطلب منها العودة إلى بيتهم في **مانگيْش** ، ذلك ما قامت سميرة بترجمته من كلام.

أخذت أناء الماء واهتديت إلى صنبور ماء أزدحم الناس حوله، وبعد جهد جهيد استطعت الحصول على بضع ألتار من الماء. وهناك التقيت ببعض الأقرباء والمعارف، وسألوني عن الطعام، فأخبرتهم بأننا بدون طعام، بعد أن نفذ كل ما لدينا، وكان حالهم كذلك. وعندما عدت إلى حيث كانت سميرة وطفليها، لم أجد غير **گورگيس**، وكان مضطجعاً على جنبه الأيمن، فقلت له:

– أين ذهبت أمك وأخوك؟

فقال بلهجة كوردية وبصعوبة:

– ذهبت مع يوخنا

ولم يستطع التعبير أكثر من ذلك، واكتفى بأن أشار إلى الناحية التي ذهبت إليها أمه. كانت على مقربة من القرية ربية عسكرية فيها جنود أتراك يقذفون بعض الصمون على جمهور من الناس كان يتصارع للحصول على أي شيء يصلح أن يكون طعاماً بعد أن بدأ الجوع يفتك بأجسادنا، وبدأت قوانا الجسدية تضعف شيئاً فشيئاً.

عادت سميرة مع ابنها، وكانت تحمله على ظهرها على طريقة أهل الجبال، وحالما أصبحت على مقربة مني قلت لها:

- كيف الحال؟

- أن يوخنا مريض ومصاب بالإسهال

وعندما وضعت راحة يدي على جبهة الطفل وجدت أن حرارة جسمه مرتفعة أيضاً بعض الشيء، فطلبت منها أن تجعله يستلقي على الفراش، وأقصد على الصخور التي غطيناها بالبطانيات، حيث كان كل ما حولنا وحلاً أو بركاً لمياه تجمعت من جراء الأمطار الغزيرة التي هطلت.

مرّ زوج عمتنا الصغيرة، وسأل عن أحوالنا، وسأل أيضاً عن أخوتي عندما لم يجدهم، فقلت:

- لا زلنا بخير، وماذا عنكم، كيف هي عمتي؟

- نحن جميعاً بخير أيضاً، هذا هو الحال، وما كتبه لنا الله لابد وأن نراه. ثم أضاف قائلاً:

- هل معكم طعام؟

- كلا يا عم، فما كان معنا نفذ تماماً

- وأنتم

- لا أدري، سوف أتفقد ما عندنا

- أين العائلة

- مثلكم نجلس في العراء، وقد وضعنا النساء والأطفال الصغار مع عائلة عمتك الأخرى، فقد حصلوا على فجوة تحت إحدى الطبقات الصخرية، ولو لم يكن المكان مزدحماً كثيراً لأخذت ما معكم من النساء لضمهن إلى نسائنا

- لا عليك يا عم، فحالنا اليوم من حال عشرات الألوف من الناس، ولسنا أسوأهم على أية حال!

- وماذا تقول بشأن حالنا، وما مصيرنا؟

- لا أعرف تماما، لحين هذه اللحظة لم نر أحداً يهتم بنا أو يلتفت إلى قضيتنا، نحن مجرد قافلة غفيرة العدد فقدت كل شيء .غير أننا لم تزل قطعة واحدة

- ألن تهتم بنا الدول؟

- لا أدري أن وضعنا أصبح خطيراً كثيراً، والخطر يدنو بسرعة لينال من أطفالنا وشيوخنا والضعفاء

ثم استأذن وطلب مني أن لا أتردد في الاتصال بهم عند الحاجة قائلاً:

- نحن نقيم خلف ذلك البيت الصغير، مشيراً إلى ناحية في أطراف القرية

فشكرته وطلبت منه إبلاغ سلامنا وتحياتنا إلى عمتي وأطفالهم. عاد عمر مع نرمين وتارا بخفي حنين، ولم يفلحوا في الحصول على شيء بالطرق الشرعية، وقالت نرمين:

- الغريب أننا لم نشاهد أحداً من أهل القرية

فقلت:

- لا تلوميهم فعددنا مخيف، وظروفنا السيئة وهيئاتنا الغريبة البائسة تدخل الرعب في قلوبهم ويخافون أن تفلت زمام الأمور، فيقوم بعض الناس بالهجوم على بيوتهم، وقد يتعرضون جراء ذلك إلى النهب والضرب بل حتى القتل.

فقالت تارا بصوتها الذي بدأت أعشقه:

- هل هذا معقول يا أستاذ؟

- أجل معقول جداً، فالجوع يفعل في الإنسان فعلاً سيئاً وإذا ما استفحل فأنه يحولنا إلى حيوانات لا تتردد من أن تفعل أي شيء للحصول على الطعام

وقال عمر:

- إن أحوال الناس سيئة فعلاً، وهي على درجة كبيرة من الخوف وأرجو أن لا يستمر الحال هكذا طويلاً

وفي تلك الأثناء عاد فهمي وصالح وهما يحملان بعض أغصان الأشجار الرفيعة والتي لن تصمد كثيراً

وقال فهمي موجهاً كلامه إلى عمر ونرمين:

- هل حصلتم على طعام؟

فقال عمر:

- أبداً، ولن نستطيع ذلك، ثم أضاف قائلاً وهو يمزح، رغم أن مزاحه كان قد فقد الكثير من قوته وتأثيره:

-لا عليك يا فهمي دعونا اليوم نطلبه من المطعم، والدعوة على حساب شفان ، أليس هو الزعيم؟، هذا من صلب مسؤولياته، وان لم ينجح سوف نسقطه ونقوم بترشيح غيره، أليس من واجبات الرئيس توفير الطعام لشعبه؟!

قال ذلك وهو يربت على كتفي، فضحك صالح الذي كان بحالة سيئة، بسبب الجوع والبرد والتعب والخوف.

وعاد زوج عمتي الصغيرة مرة أخرى ومعه ثلاث أرغفة خبز وقدمها لي قائلاً:

- هذا كل ما استطعت تدبيره

فقلت:

- لن آخذه منك فالكل بحاجة إلى طعام، ومعكم أطفال هم أحوج إلى هذا الخبز منا

فقال:

- معنا ما يكفي لهذا اليوم، هذا لكم

- استحلفك بالله، أن لم يكن هذا الخبز فائضاً عن حاجتكم لن نأخذه أبداً

فأقسم بالله على ذلك، فناولت الخبز إلى فهمي باعتباره مسؤول التموين وطلبت منه أن يقسم الأرغفة بالتساوي فيما بيننا، وكان ذلك سهلاً فنحن تسعة، لكل واحد منا ثلث رغيف، وكان شيئاً لا يذكر مقارنة بما حل بنا من شدة الجوع، ولكنه على كل حال كان يكفي لسد الرمق. وطلبت منهم التخلي عن العواطف والمواقف المبالغ فيها قائلاً:

- لن يتبرع أحد بحصته لشخص آخر، فكلنا بحاجة إلى أي شيء يصلح أن نأكله بدرجة متساوية

وجاء الليل مرة أخرى ,وقررنا أن نتدبر عصاتين طويلتين بعض الشيء لنضعهما على الحائط بشكل مائل ونرتب بطانيتين فوقهما

لتحمينا من الأمطار وبعض البرد وقمنا بذلك بشكل تعاوني، تلك الروحية التي لم تتخل عنها طيلة أيام الأزمة التي عشناها في هجرتنا. فكان الكل سباقاً لإنجاز أي عمل يطلب منه، دون مناقشة، وكان ذلك يخفف كثيراً من وضعنا النفسي والشد العصبي الذي رافقنا أوقات الشدة القصوى حينما كنا نلعن الأيام، والطبيعة ووجودنا.

وقررنا أن نتناوب الجلوس أو النوم داخل تلك الغرفة التي تتكون من سقف من البطانيات وجدارين أحدهما حائط البيت الذي خيمنا قربه والثاني من البطانية وكان أهالي القرية يراقبوننا من نوافذ منازلهم وهم يرثون لحالنا متمنين لو كان بإمكانهم مساعدتنا، بتقديم الطعام وباستضافتنا في بيوتهم النظيفة وغرفهم الدافئة، ولكن ذلك كان مستحيلاً، لأن عددنا كان مخيفاً وأحوالنا تهدد بالرجوع إلى عالم الحيوان حيث كل شيء مباح من أجل الحصول على الطعام لنبقى أحياء.

جلسنا جميعاً وكانت السماء مغطاة بالغيوم والبرد شديد، جلسنا ندخن السجائر وكنا أكثر استقراراً نفسياً، رغم أن شيئاً لم يتبدل من مجمل أحوالنا المختلفة، بل بالعكس فقد أصبح الطعام مشكلة تهدد حياتنا، وتلك الفرحة العابرة، التي انتابتنا عندما عبرنا الحدود قد تلاشت فلم نجد مخيمات، أو مساعدات عاجلة ولم يسأل عنا أحد ومع ذلك كان هناك خيط واهن من الأمل يشد بعضنا إلى البعض والى ضرورة التحلي بالصبر والصمود وأن نبقي أعصابنا تحت السيطرة التامة.

امتد بصري إلى وجه تارا، وعلى ضوء النار التي أشعلناها خارج حدود الغرفة، كان فيه الكثير مما يشدني إلى الرغبة في عدم الاستسلام، وكان شعرها رغم ظروفنا جميلاً بلونه وبخصلاته المتموجة، وتمنيت لو أرسم

وجهها الذي بدأ يؤثر في، ووجودها بقربي يجنبني الوقوع في براثن الخواطر والصور التي تتزاحم في خيالي والمقارنات التي لا تجدي، بين وضعنا تلك الأيام وحياة مدنية مرفهة تساعد على التفكير والعمل والإبداع ورسم خطوط المستقبل. وكانت هي من جانبها تدرك نمو اهتمامي السريع بها من نظراتي، واهتمامي بشؤونها وطريقة الكلام، والكلمات الرقيقة التي بدأت أصوغها، وكنت ضليعاً بها، متمكناً منها بسبب من خبرتي وثقافتي واهتماماتي مقارنة بما لديها منها، وكانت متواضعة، ولاحظت أنها تحسن الإصغاء لتتعلم، أي أنها كانت من النوع الذي يريد أن يأخذ أي شيء ولا يعطي شيئاً.

في ظل تلك الظروف العصيبة فقد أكثرنا الإحساس بالوقت بشكل دقيق حيث انصب اهتمامنا على حماية النفس قدر المستطاع، حينما كانت فكرة الانتهاء تتحول إلى شبح مخيف يتربص بنا ليقضي علينا في أية لحظة.

وكان يوحنا دائم البكاء، وتأخذه أمه بعيداً عنا ليقضي حاجته، وتكرر ذلك في فترات متقاربة، وأدركت أن التلوث أخذ يهددنا، وأخفيت مخاوفي عن الآخرين بل ذهب تفكيري أبعد من ذلك حينما خطر ببالي أننا مهددون بانتشار الأوبئة التي استفحلت بالمئات، سيما وأن أجسادنا ضعيفة ونعيش في ظروف صحية لا تخطر على بال.

في تلك الليلة حدث ما كنا نترقبه، فعند الساعة التاسعة ليلاً سارت بين الجموع الغفيرة صيحات وأصوات فرح مفاجئ، وقبل أن نتبين سبب ذلك قال فهمي:

– لقد أنتشر خبر هجرتنا عند المجتمعات كافة.

وكان يمسك جهاز الراديو الصغير الذي كان معه قريباً إلى أذنه لأن البطاريتين كانتا ضعيفتين، وأضاف قائلاً:

- إن المجتمع الدولي يرسل نداءات عاجلة بضرورة الاهتمام الفوري بنا لحمايتنا من الجوع والبرد وحقول الألغام. وأخذنا نتتبع الأخبار العالمية، واستمر ذلك إلى ما بعد منتصف الليل. وتركنا جهازنا بعد أن ضعف كثيراً، وأخذنا نستمع إلى صوت الأجهزة الكثيرة التي جلبها الناس معهم ورفعوا من أصواتها بشكل استثنائي.

سرت الفرحة بيننا وشملت الجميع، فقد أصبحنا نستأثر باهتمام العالم بأسره، ووصلت ولأول مرة أنباء قضيتنا عنوة إلى أسماع شعوب العالم، وأقصد (هجرتنا المليونية).

وجاء صباح اليوم التالي ليعلن عن يوم جديد كغيره من الأيام، وكنا متعبين كثيراً، جياعاً بمعنى الكلمة. وفي الليل لم ينم أحد سوى لحظات قليلة كانت أقرب إلى الغيبوبة منها إلى النوم بسبب الجوع والبرد وسوء المكان. وظل صالح ممدداً على ظهره بادي التعب، أما نرمين فكانت متذمرة، أما سميرة وتارا فراحتا تخففان من آلام الطفلين الذين أصيبا بالإسهال الحاد، وكنت أقف بعيداً عن مخيمنا بعدة أمتار، أدخن سيكارة على معدة خالية تماماً، يعصرها الجوع. وجاء فهمي وعمر وسلما علي فقلت:

- هل نمتما بعض الوقت؟

فقال فهمي:

- أي نوم هو على ذلك الفراش الوثير!

وقال عمر:

- لقد أصيب **كوركيس** بالإسهال هو الآخر

فقلت:

- ماذا نفعل؟، كل ما نستطيع هو أن نسقيه كمية وافرة من الماء الذي يمكن أن يكون هو سبب مرضهم!

وكان الناس يتطلعون إلى الطريق لعل قافلة تحمل لنا الطعام تأتي، أو رتلاً من السيارات الكبيرة تحمل لنا كل ما نحتاجه من الضرورات، أو على الأقل مسؤولاً تركياً يقول بضع كلمات تدخل الطمأنينة إلى نفوسنا التي رفضت الظلم ومقالب التأريخ. ولكن شيئاً من هذا أو ذاك لم يكن له أثر، بل أصبح حلماً بائساً. لذلك اندفعت مجموعة من الناس على شكل موجة هائجة إلى الطريق، فقامت الدبابة المتربصة بنا ترمي النار فوق رؤوسهم، وتتحرك نحوهم ببطء، فعاد ذلك الجمع إلى قواعده منتظراً مع الآخرين أي مخرج ينتشلنا من الواقع الذي زجتنا الظروف فيه عنوة دون أن نرتكب ذنباً مقنعاً.

تجولنا أنا وفهمي وعمر بين جموع الناس وكانت أوضاعهم سيئة بدرجات متفاوتة، والتقينا بعدد من الأقرباء والأصدقاء والمعارف، كل وجد لنفسه ولعائلته مكاناً للانتظار، ولم نفلح في الوقوف على أخبار تذكر تخص الحالة التي كنا فيها سوى أن الجنود الأتراك قالوا للبعض:

- إننا ننتظر قدوم أحد المسؤولين الأتراك، وهو مسؤول إداري بدرجة (قائم مقام).

وكان بعض الناس يأكلون الطعام، كذلك كانت تصدر من أحد بيوت القرية رائحة البيض المقلي بالزيت، ولكننا لم نفكر أن نطلب شيئاً من أحد، وبالمقابل لم نتلق أية دعوة بهذا الخصوص من الذين صادفناهم في طريق تجوالنا، وتلك كانت من مساوئ إصرار اخوتي على الحرص على

عدم الاندماج مع أقربائنا الذين يكنون لنا الحب والتقدير ولم يكن ذلك الشعور بدافع المصلحة كما كانوا يظنون، وذكرت ذلك لفهمي وعمر دون أن أستطيع إقناعهم كالعادة.

وفي طريق عودتنا قررنا أن نبتعد قليلاً عن البيوت لنلتقط ما يمكن أن يصلح حطباً، أو أغصان الأشجار، وكان مع البعض الأدوات اللازمة لعملية التحطيب. وكان فعل الناس في الغطاء النباتي مثل فعل موجة كبيرة من الجراد الأصفر لا تبقي على شيء في طريق زحفها.

وبعد أن جمعنا ما أمكن جمعه من الخشب عدنا إلى بيتنا، ولا أدري هل كان محل إقامتنا يصلح أن نسميه كذلك؟، وكان الجوع يعصر أحشاءنا، وجدنا من بعيد نرمين تتحدث إلى صالح وكانا جالسين، وقفزت واقفة حال أن رأتنا مقبلين وسارت إلينا، ولما أصبحت على مقربة منا قالت:

- شفان ، إن صالح يحتاج إلى لقمة طعام ليستطيع أخذ الدواء، لأن الحبوب التي يجب أن يتناولها بانتظام تؤذيه إذا أخذها على معدة فارغة كما تعلم.

- حسنناً وماذا بمقدوري أن أفعل؟

- لا أدري ألا يمكن أن نطلب شيئاً من عماتي أو أولاد أعمامنا؟

فاعترض فهمي وتبعه عمر على الفور، وقال:

- لقد اتفقنا على أن نعتمد على أنفسنا في كل شيء

وقال فهمي:

- هذا موضوع لن نعود إليه

فقلت محتجاً:

– لماذا هذا الموقف المتصلب؟، انظروا إلى الناس حولكم، لقد أصبحوا مجموعات على تلك الأسس، وهذا التعاون مفيد جداً في ظروف مثل ظروفنا، وأضفت القول بلهجة عصبية:

– هل نسيت موقف زوج عمتي مساء أمس؟، ألم يقتطع ثلاثة أرغفة من قوت أطفاله هو وعائلة عمتي الأخرى؟

فقال عمر على الفور:

– لابد أن له مصلحة من وراء ذلك؟ وسوف ترى

فقلت بعصبية:

-أية مصلحة في موقفه، ثم ألا تحكم المصالح كل العلاقات في الطبيعة؟ هل أنتما بحاجة إلى أن أشرح لكما ذلك؟

فقال فهمي بعصبية أيضاً وهو يقذف عقب سيجارته بعيداً:

– إن كنت تريد تركنا والانضمام إلى تجمعاتهم فلتذهب.

فقلت له وبعصبية واضحة أيضاً:

– هل جننت يا فهمي؟

فتدخلت نرمين قائلة بعد أن امتلأت مقلتاها بالدموع:

– دعونا في حالنا، ألا ترون أن حالنا لا يسمح لنا بمثل هذه الخلافات الجانبية، فلنحتفظ بهدوئنا، لنستطيع التفكير بشكل سليم.

نرمين هكذا تنساب دموعها بسرعة في مثل تلك المواقف، وكانت تلك الدموع سبباً إلى عودتنا إلى الصمت وأغلقنا الموضوع.

ثم قالت نرمين بعد أن غمرنا الهدوء:

– ماذا تقول سميرة وعائلتها، بعد أن أنهينا على كل خزينهم من الخبز، ونحن خمسة أفراد بينهم أربعة رجال خرجنا وليس معنا ما يكفي من الطعام سوى ليوم واحد. ماذا تقول سميرة عنا الآن؟

فقلت:

- هذا صحيح، ويجب أن نفكر بهذه النقطة.

فقال عمر:

- وماذا بمقدورنا أن نفعل؟

فقالت نرمين:

- لا شيء

وفي أثناء ذلك جاء صالح يستطلع أمرنا، ولابد أن حديثنا أو جزء منه بلغ سمعه، وقال:

- ما هي الأخبار يا إخوان؟

فقال عمر:

- لا شيء جديد

فقلت له:

- هل تناولت الأدوية؟

- نعم

فقال له فهمي:

- هل أنت بخير؟

- نعم أنا بخير، ألا ترون ذلك؟، قالها وهو يبتسم كعادته

والواقع أن صالح أبدى صلابة لم نكن نتوقعها، فقد كنا نخاف أن يسقط في أية لحظة، بسبب الجوع، أو التعب حد الإعياء، أو السهر، إضافة إلى العوامل النفسية المتشنجة التي كنا نعيشها.

ثم عدنا جميعاً، وطلبت من عمر إشعال النار لنتدفأ قليلاً، وبعد أن أصبحنا في المخيم تقربت من سميرة وتارا قائلاً:

- كيف حال الطفلين؟

فقالت سميرة:

- لا بأس شكراً

وقالت تارا:

- انهما يفقدان سوائل كثيرة

فقال لها فهمي:

- إنها حالة عامة سادت بين الأطفال، ولقد وجدنا حالات خطيرة لدى بعض الأطفال خلال تجوالنا بين تجمعات الناس

وعدت أقول

- إننا نشعر بالحرج، لقد أتينا على ما معكم من الطعام، كان يمكن أن يكفيكم لعدة أيام أخرى لو كنتم بمفردكم

فقالت سميرة:

- لا تقل هذا، لقد أصبحنا وإياكم أسرة واحدة

- يعلم الله أن هذا هو شعورنا نحن أيضاً بالضبط، ولكنني قلق بشأن هذين الطفلين، لو كان بالإمكان تدبير لقمة ولو بسيطة، تعينهم على التغلب على حالة الضعف والوهن

فقالت تارا:

- سأحاول أنا

فقالت نرمين:

- أين؟، هل تعرفين أحداً، هل تستجدين؟

- لا أدري، ولكنني سأحاول

فقلت لها:

- حسناً، سأرسل معك أحداً

فقالت نرمين:

- سأذهب أنا معها

وقالت تارا:

- لا، أفضل الذهاب وحدي

واختفت تارا وسط الجموع الغفيرة، ولم يمض الكثير من الوقت حتى عادت ومعها رغيف خبز، وكان معها ذلك الشاب المسيحي الذي كلمته عندما كنا على الجانب الآخر من الحدود قبل يومين. وبعد أن سلم الشاب بهدوء ذهبا معاً حيث تجلس سميرة مع طفليها، ودار حديث طويل بينهم باللغة الآشورية، لم نفهم منه شيئاً، وكنت أراقب المشهد باهتمام، حتى أن فهمي قال:

- إن هذا الشاب يحوم حول الجماعة، ولم أعد أطيق ذلك

فقلت بعدم اكتراث:

- الموضوع لا يخصنا، ثم أنه قدم لهم العون وقد فشلنا نحن

وكنت أميز مشاعري التي انتابتني عندما ظهر ذلك الشاب مرة أخرى، وأنا أراقبه وهو يتحدث إلى تارا باهتمام، لقد كانت غيرة واضحة لا يرقى إليها الشك، ولم يهدأ لي بال حتى غادر مخيمنا ذلك الشاب الهادئ في كل شيء.

وحدث هذه المرة أن تارا كانت تراقبني، وقد اكتشفت ارتباكي، وتوتر أعصابي، والنظرات التي كنت أرمق بها ذلك الشاب، حتى أنها قالت لي بعفوية وهي تبتسم:

- أستاذ شفان لا تقلق، كل شيء يجري بسلام

وقامت سميرة بتوزيع الرغيف بين طفليها وسط أنظارنا، فقد كان كل منا يتمنى أن تكون في يده قطعة ولو صغيرة من ذلك الرغيف! ولما شعرت بذلك حاولت أن أبتعد بضع خطوات، وتبعني فهمي وتبعتنا نرمين تهرباً من ذلك الموقف الذي لم يخطر ببال أحد أن يمر به يوماً !.

قلت لنرمين:

- كيف أنتِ؟ هل ستصمدين أمام الجوع؟

ـ أنا بخير لحد هذه اللحظة، ونحاول عدم التحرك كثيراً أو القيام بمجهود عضلي أليس كذلك؟

فقال فهمي:

ـ لو كان معنا فرا ش وثير ودافئ لما خرجت منه شهراً كاملاً، إنني أتوق إلى نوم هادئ في فراش دافئ ووثير، وقلت أنا:

ـ وأنا أحلم الآن بوجبة مشويات مع كمية وافرة ومتنوعة من الخضراوات والفاكهة، ومن بعد ذلك قدح شاي من النوع الفاخر (مهيل) وساخن.

وقالت نرمين:

ـ وأنا أ تمنى أن أغمض عيني لحظة، ثم افتحهما وأجد نفسي في بيتنا لأحضن أمي وأبي، ثم نجلس معاً على سفرة الطعام ولا يهمني نوع الطعام.

ونادى فهمي على عمر، ولما حضر قالت له نرمين:

ـ عمر لقد تمنى كل واحد منا أمنية، وقامت بسرد ما دار بيننا من حديث، ثم قالت له:

ـ ماذا تتمنى أنت اللحظة؟

فقال عمر وعلى الفور:

– أن يكف ذلك الشاب المسيحي عن زيارة (الجماعة).

فقال فهمي مازحاً:

. هل تغار منه؟

فقال عمر ضاحكاً:

ـ أنا؟ كلا. ولكنه كما ترون بدأ يشكل خطراً على سلطة الزعيم،
وأشار إلي مضيفاً:

– زعيمنا الورد الذي لا يستطيع توفير عدة أرغفة خبز لشعبه، الذي يكاد يموت جوعاً.

ثم مسح صدري بكفه وأضاف قائلاً:

– أي زعيم أنت!

فقالت نرمين:

– لم أفهم شيئاً !

وسارع فهمي إلى القول:

– ولا أنا

فقال عمر:

– ولكن الزعيم فهم جيداً، وعليه أن يستدرك أمره، لأن كرسي حكمه بدأ بالاهتزاز

ضحكنا جميعاً كأن الأمر كان دعابة عابرة نحاول بها أن نبقي على تماسكنا النفسي وتمتين جسور الألفة والمحبة بيننا وبخاصة بعد تلك المناقشات المتشنجة التي دارت بيننا قبل ذلك، والتي دفعت نرمين إلى البكاء، حرصاً منها على أن تسود المحبة وروح الأخوة علاقاتنا مهما كانت الظروف.

وسألت نفسي، ترى هل تأكد عمر من أنني بدأت أهتم بتارا بشكل جدي؟، وأنها أصبحت تستحوذ على إعجابي، ومن جانبي تمنيت لو كنا أنا وتارا تلك اللحظة في أفخر مطاعم دهوك نتناول أشهى الطعام ونتبادل أجمل الكلمات، في ظروف ليست مثل ظروفنا تلك، دون حواجز من شأنها أن تجعل لقاءنا أقرب إلى المستحيل. ومضى ما تبقى من ذلك النهار، وكانت الغيوم تنذر بمزيد من المطر، وزاد البرد وسرعة الرياح؛ فذهبنا أنا وفهمي وعمر نبحث عن بعض الأخشاب المناسبة لنستعملها كحطب في المساء وفي الليل. وأطلقنا على أنفسنا أسم (الثلاثة الممتازون)، فقد كنا نؤلف قوة صلبة تأبى الاعتراف بالضعف والهزيمة، وكنا ننجز المهمات الصعبة والشاقة، وكان عمر أهدأنا طباعاً، ويحتفظ بروح الدعابة في كل الظروف. أما صالح الذي تركناه قي المخيم فهو الأخر مقاتل ممتاز أيضاً.

وعندما عدنا ببعض الحطب، طلبت من صالح وتارا أن يتأكدا من متانة ربط البطانيتين اللتين وضعناهما فوق الخشبتين الطويلتين المائلتين لتصمدا أمام المطر أو الرياح حيث بدأ السماء يستعرض غضبه من جديد، فزادت كثافة الغيوم واشتد البرد كثيراً، وفي ظل وضعنا قال عمر مازحاً:

- إننا ربما الآن نمثل فلماً هندياً مثل (أم الهند)،

فضحكنا جميعاً.

كلما كان يمضي الوقت، يزداد توتر أعصابنا، ويتنامى شعورنا بالجوع، فأخذنا نلوم بعضنا البعض، حيث قال فهمي:

- لماذا لم نفكر ساعة خرجنا أن نأخذ معنا عدة الشاي، إنما خفيفة، أو مجرد كمية من السكر، ولماذا لم نفكر بذلك في مانكَيْش بينما كنا حريصين أن نتزود بكمية وافرة من هذا السم الزعاف (ويقصد علب السجائر)؟

فقال عمر معلقاً:

- أو التموين الجاف، مثل الجنود

وقلت لهم:

- هذا الكلام لا يفيدنا الآن، دعونا نفكر بواقعنا الحالي

فقال صالح معلقاً:

- لنطلب من الزعيم بعض الطعام، هل هناك زعيم نام دون طعام؟

فضحك الجميع عدا تارا فقد اكتفت بابتسامة قصيرة وقالت:

- إنكم تضغطون على الزعيم كثيراً، ماذا بمقدوره أن يفعل لنا؟

فساد هدوء للحظات، وأخذ فهمي وعمر ونرمين بتبادل نظرات تكمن خلفها كلمات كثيرة عزفوا عن طرحها على شكل منهج كلامي، ولكنني فهمت تلك النظرات بشكل دقيق. وقالت نرمين معلقة:

- هكذا يكون خوف الشعب على زعمائه يا إخوان

فامتلأ وجه تارا بالدم، وتوردت وجنتاها، وأطرقت برأسها، وأخذت عيناها الواسعتان الجميلتان تضحكان ذلك الضحك الهادئ الذي كان أحد الأسباب التي جعلتها تستحوذ على قلبي وجلست على عرشه وطهرته من كل ما علق به مما مضى من آثار الدغدغات السابقة، وحلت ضيفة عزيزة على تفكيري، وسلبت خيالي وعلمتني سر القوة

ووهم السعادة فيما بعد، في تلك اللحظات التي مرت بي وقد تجمعت علي قسوة الدنيا، وعجز الكلام، وتساوت كل الأشياء في نظري دفعة واحدة.

وجاء الليل البهيم الحالك إلا من النيران التي أشعلها الناس للتدفئة أو لطبخ الطعام لدى البعض، ومرة أخرى كانت هجرتنا تشكل المادة الإعلامية الدسمة في صدر نشرات الأخبار، وزاد الاهتمام تلك الليلة عن الليلة التي سبقتها، كل إذاعات العالم، عدا إذاعة بغداد. وكانت تلك الأخبار والنداءات الدولية تدخل الفرح في نفوسنا فقد أصبحنا جميعاً أصحاب قضية إنسانية أخذت تطرق أبواب المجتمع الإنساني بقوة وأوصلت كلمة (كورد) إلى كل شبر في الأرض، ومع ذلك الشعور كانت بطوننا يعصرها الجوع، وأجسادنا ضعيفة لقلة النوم والبرد والظروف الصحية والنفسية، التي أصبحت لا تطاق، وكانت فكرة الصمود لحظتها بلا معنى، فارغة من كل مضمون.

وجاءت السماء لتشارك في عرسنا، فقد بدأ صوت البرق يصم الآذان، ثم بدأ المطر بالهطول بغزارة. فتخلينا عن النار وعن الحديث وروح الدعاية، وطرحنا فكرة المعنويات العالية والشجاعة جانباً، وتكورنا تحت البطانيتين، وهما تسمعاننا ألحاناً موسيقية لم تألفها الأذن، وقطرات المطر الثقيلة تضرب وجههما بشكل مخيف، موسيقى عنيفة لم يدركها (بتهوفن) في سيمفونياته كلها. وكان البرد شديداً، فطلبت من سميرة أن تغطي الطفلين بالبطانية الأخيرة المتبقية بشكل حر.

استمر هطول المطر دون انقطاع ولم تخف شدته، كانت ليلة لا توصف، وأستمر الحال طوال تلك الليلة، وعندما بدأت نرمين تصارع سلطان النوم أسندت رأسها إلى صدري وطلبت منها أن تحاول النوم، كذلك فعل فهمي مع صالح، وكانت تارا جالسة قرب أختها، وأخذ رأسها الجميل يميل إلى الأمام تارة لكن سرعان ما تستيقظ فترفعه مرة أخرى وهكذا.

ثم أخذ المطر يتجمع في البطانيات، فنقوم بنفضها وكان ذلك يعني أن يخرج أحدنا إلى خارج حدود البطانيتين اللتين تؤلفان سقفاً مائلاً، فيتعرض للمطر لذلك تبرع فهمي وعمر القيام بذلك لأنهما يرتديان قمصلات عسكرية سميكة تقاوم المطر أكثر من تلك التي كنت أرتديها. في تلك الليلة العصيبة لم يغمض لنا جفن. وتحول القلق إلى خوف شديد من أن يسقط أي واحد منا في أية لحظة بسبب عدم النوم لمدة طويلة والجوع الذي لم نعد نحتمله.

وجاء صباح اليوم التالي، وكان المطر لم يزل يهطل بغزارة وتحولت مرافق القرية إلى أطيان وأوحال لا يفكر المرء أن يتنقل عبرها، كان طوفاناً يشل الحركة ويجبرنا على البقاء في المكان الذي تم اختياره من قبل كل فئة من الناس. ومما زاد من قلقنا ذلك الصباح حالة صالح الصحية، فقد كان مستلقياً على ظهره أكثر الأوقات، وكذلك يوخنا الصغير حيث تطورت حالة الإسهال لديه إلى (ديزانتري) حاد مصحوب بالدم، وكان كل ما نستطيع أن نفعله هو نفض البطانيات والتخلص من الماء الذي يتجمع فيها باستمرار، وتسقط قطرات على أجسادنا، وأصبحت تلك القطرات

كثيرة، وتزداد مع الوقت، والشيء الآخر كان حالة الانتظار التي أصبحت مملة ودون هدف.

كان ذلك اليوم من الأيام التي لن ننساها نحن جميعاً الذين نؤلف ذلك القطيع البشري الرافض لفكرة الاستعباد الذي تخلى عن كل شيء طمعاً في أن تستمر حياته وأن لا يقع في يد أزلام السلطة الذين تعلموا الكره والبطش والظلم والقتل الجماعي. فقد سلبتنا الأطيان أحذيتنا، إضافة إلى حالة التزحلق والتدحرج التي قلما سلم أحد منها إذا حاول التنقل من هنا إلى هناك. ورغم ذلك بدا جمعنا أكثر هياجاً وقد نفذ صبره، وكان يمكن ملاحظة ذلك بسهولة من تحرك الناس وصيحاتهم الرافضة، ذلك ما لمسناه أنا وفهمي وعمر عندما قمنا بجولة قصيرة في أزقة القرية، التي رأينا ولأول مرة خروج البعض من سكانها من بيوتهم لقضاء أعمالهم وحاجاتهم الضرورية وكان البعض منهم يتحدث إلى المهاجرين، وسمعت أن البعض منهم قدم لبعض التجمعات مساعدات غذائية وان كانت قليلة، سيما بعد أن أدخلنا الطمأنينة إلى قلوبهم ووجدوا أن هذا الجمع رغم المظاهر الوحشية التي بدت عليه عندما دخل القرية، أناس مسالمون، هربوا من الموت الجماعي الذي كان ينتظرهم.

وفي ذلك اليوم أيضاً وصلت طائرة مروحية ألمانية تحمل الصحفيين الذين أجروا لقاء مع القائم مقام الذي ننتظر وصوله في أية لحظة، يحمل التعليمات والصلاحيات اللازمة مخولاً من قبل السلطة التركية، وكان ذلك كافياً ليجعل الناس أكثر هدوء، وتخليناً عن مخاوف الموت جوعاً، رغم أننا لم يكن في تصورنا لحظتها طبيعة النجدة التي سوف يأتي بها المسؤول التركي بسبب من مركزه الإداري المتواضع. ومع توقف الأمطار بعد أن

هـدأت بـصورة تدريجيـة، زادت تحركـات النـاس، وكثـرت الزيـارات بـين المجموعات للاطمئنان على بعضهم البعض.

عـدنا إلى مخيمنـا وكـان بقيـة مجموعتنـا قـد علمـت بالأخبـار الجديـدة وجملة مـن الأخبـار الأخرى التي تخص قـضيتنا تناقلهـا النـاس فيمـا بينـهم بسرعة، وكـان قـد سمعهـا البعض مـن الإذاعـات العالمية المختلفـة؛ لـذلك كانت معنوياتهم أفضل بكثير، وعندما تقربنا منهـم قالت تارا:

– هل سمعتم بالأخبار الجديدة؟

فقال عمر:

– نعم سمعنا

وقالت نرمين:

– ومتى يهتمون بنا؟ لا نرى لأحد أثراً

فقال فهمي:

– ربما مجرد كلام

فقال صالح:

– لا أظن أن هناك أحد يهمه الاهتمام بنا وتقديم العون لنا.

فقلت معلقاً:

– أظـن أن هنـاك اهتمـام جـدي بمـصيرنا، مـن اللهجـات الإعلاميـة المكثفـة، وهـذا توقيـت سياسـي مقـصود، مقارنـة بعمليـات الأنفـال عـام

1988، إذ لم يتحرك المجتمع الدولي بشكل جدي، وتجاهلتها أكثر الدول وأظن أننا سنحظى هذه المرة باهتمام أفضل، ولكن متى وكيف، لا أعرف ذلك على وجه التحديد.

وجرى الاطمئنان على صحة الولدين، لقد كانا بحالة سيئة، إلا أن حالتهما لم تكن على درجة كبيرة من الخطورة، لذلك قلت لسميرة:

. لا تخافي على ولديك فإن حالتهما عادية، وستصلنا المساعدات ن قريب.

وكانت تارا جالسة، تقربت مني عندما كنت أ ضع راحة يدي على جبهة الأطفال للاطمئنان على درجة حرارة جسميهما، وكنت أشعر بأنفاسها الحارة، وأنا أنظر إلى وجهها الذي بدأت أحبه وتحولت بمجمل حركاتها إلى ما يشبه اللعبة، أخذت تجذبني شيئاً فشيئاً وقلت لها:

. وكيف أحوال الأستاذة؟ هل أنت صامدة؟

فابتسمت مطرقة رأسها، ثم رفعته فكانت عيناها تبتسمان تلك الابتسامة الساحرة وأحمر وجهها بشكل ملحوظ، وقالت:

. أنا بخير يجب أن نتحمل وضعنا، تلك إرادة الله.

– هل زاركم صباح؟

ولا أدري كيف خطر ببالي أن أسألها ذلك، فشعرت بالإحراج، وكان علي أن لا أطرح عليها ذلك السؤال، فقالت مبتسمة:

ـ كلا لم يزرنا أحد، وبعد أن صمتت للحظات مطرقة رأسها، أضافت وفي عينيها ابتسامة وتحدي وشيء آخر أخذ يبدو ولأول مرة، كان شيئاً أقرب إلى الإعجاب المتستر بإتقان وعن قصد واضح:

– اطمئن!

وأدخلت الاطمئنان إلى نفسي فعلاً، وأشعرتني بجملة مشاعر جديدة نمت تلك اللحظة، وكانت لذيذة للغاية، بحيث أنستني التعب والجوع، وشعوري بالمسؤولية، وزرعت في رأسي فكرة أن يظل الإنسان إنساناً مهما كانت المواقف والظروف المحيطة به.

عندما حل مساء ذلك اليوم تبددت معنوياتنا العالية عندما لم تظهر في الأفق أية بادرة لمساعدتنا وإنقاذنا من المحنة التي كنا فيها، ورجع الناس إلى التذمر وندب سوء الحظ. وفي ذلك الوقت قالت سميرة أنها وجدت غرفة صغيرة فارغة قرب أحد البيوت القريبة من مخيمنا الخاص، ودعتنا لقضاء الليل فيها، فهي أفضل في تصورها من البقاء في العراء وتحت رحمة المطر.

وعلى أثر ذلك ذهبنا أنا وفهمي إلى هناك، فوجدنا هبة من السماء، واستغربنا كيف أن أحداً لم يلجأ إليها قبلنا. وكانت غرفة مبنية من الخشب وفي وسطها موقد لإشعال النار، وعلى بعد عدة أمتار منها توجد حنفية للماء، وعلى الفور رجعنا إلى بقية أفراد مجموعتنا وتم جمع أمتعتنا وهرعنا إلى هناك.

وفي الطريق انزلقت قدم تارا وخلع حذاءها حيث أمسكتها الأطيان، وكان عمر قريباً منها فأمسكها من كتفها وأنقذها من السقوط كلياً في الأوحال السميكة، وكانت أحذيتنا قد تحولت إلى كتلة طين أحمر ثقيل الوزن يمكن تسميتها بأي شيء آخر غير الحذاء!. واكتشفنا بعد أن أصبحنا جميعاً داخل الفرقة غير مصدقين أنها زريبة حيوانات تركها أهلها لكثرة وجود القمل والبراغيث والناموس، غير أن ذلك الاكتشاف لم يكن

ليجعلنا نتخلى عنها، عندما تذكرنا الليلة السابقة التي كنا نصارع البرد والتعب ومياه الأمطار والنوم، بحيث لم يعترض أحد على عدم استخدامها. وقبل غروب الشمس، أشعلنا الموقد الذي كان فيها، ولأول مرة شعرنا بالدفء بعد عدة ليالي قضيناها في ظروف جوية قاسية لا يحتملها المرء لأي سبب سوى من أجل البقاء حياً.

وغسلنا وجوهنا وأيدينا والجوارب وأرجلنا وقمنا بتجفيف البطانيات المبللة والرطبة ونظفنا أحذيتنا من الطين ثم وضعناها قرب النار لتجف. وهكذا جلسنا جميعاً حول النار ونحن نتعاون بشكل دؤوب لتجفيف كل ما هو مبلل ورطب، ونسينا الجوع بعض الوقت، غير أن أجسامنا كانت ضعيفة بشكل خطير وشعرنا بعدم الرغبة في الكلام الكثير، وحاول فهمي أن يتصيد بعض الأخبار، من خلال جهازه الصغير ولكن البطاريات كانت ضعيفة، ومع ذلك فقد استمعنا إلى عدة إذاعات عالمية كانت هجرتنا قد تصدرت نشرات الأخبار، واستنتجنا أن هناك عدة دول ومنظمات دولية رسمية وغير رسمية قد بدأت فعلاً التوجه لنجدتنا، وكانت تلك الأخبار انعطافاً يخدم وضعنا والقضية التي أصبحنا عملياً جزء خطيراً ومهماً منها.

لم يمتد بنا السهر طويلاً، فبعد أن جففنا كل شيء أمام تلك النار، شعرنا بالنعاس، ففرشنا البطانيات ونمنا على نفس الترتيب السابق، ولأول مرة نمنا نوماً عميقاً، رغم أنه كان متقطعاً بسبب ما أسماهم عمر في صباح اليوم التالي (بزوار الليل) ويقصد تلك الحشرات الصغيرة التي لم تكن لتشكل عائقاً أمام إعيائنا الجماعي ورغبتنا وحاجتنا إلى النوم.

في صباح اليوم التالي نهضت من النوم حوالي الساعة الثامنة وكنت أشعر براحة جسدية لأول مرة بعد أيام وليالي دون نوم عميق، وكان الكل نياماً، كل على طريقته، فصالح يغط في نوم عميق ويصدر شخيراً بصوت عال، أما فهمي فكان هادئاً على جنبه الأيمن وقد تكور جسمه على بعضه البعض، وامتد بصري إلى تارا التي كانت تسبح في نوم عميق، كملاك أبيض، وبشرتها البيضاء صافية، فامتلأ وجهها بالبراءة؛ فخفق قلبي لحظتها وتمنيت أن اجلس قرب رأسها وأداعب شعرها الجميل الذي لا يفقد ترتيبه في كل الظروف، وأن أمسح وجهها براحة يدي وأهزها بلطف، وبعد أن تستيقظ تلتقي العيون، فأبتسم لها بأدب جم قائلاً:

– صباح الخير أيها الملاك الطاهر

ولكن تلك الرغبة البسيطة لا يمكن تحقيقها أيضاً.

أيقظت فهمي وعمر الذي كان في نومه طفلاً صغيراً ليس له ذنب، ثم نرمين التي جلست بصعوبة وقالت:

– صباح الخير شفان ، انني بحاجة إلى مزيد من النوم، ثم أضافت:

– ولماذا نستيقظ؟ ليس وراءنا شيء، لا عمل ولا إعداد طعام. فطلبت منها أن تتولى مهمة إيقاظ سميرة وتارا.

وسمعت أثناء ذلك أصواتاً كثيرة وحركة في الخارج، وعندما خرجت من الغرفة، وجدت الناس تلملم حاجياتها، وتتجه خارج القرية، نحو الطريق الترابي حيث كانت تقف تلك الدبابة التي منعتنا من التقدم داخل تركيا. ولما سألت بعض المارة، قال أحدهم:

– لقد تم فتح الطريق إلى (چهلي)، ووصل القائم مقام قبل قليل، فعدت بسرعة إلى الغرفة، وكان قد عاد الجميع مستلقياً على الفراش، فقلت بصوت عال:

- ما هذا؟ ألا تودون تناول الطعام وشراء ما يلزمكم من المواد؟

فقال عمر:

- إن خيالك الواسع لن ينفعنا هنا أيها الرئيس

وقال فهمي:

- ألم تتعب من الإصرار على التشبث بالأحلام أربعين عاماً !؟

وقالت نرمين:

- ما هذا الذي تقولانه؟ أنا لا أرضى أن تتكلموا مع شفان بهذا الأسلوب في حضوري، ثم مدت يدها من فوق جسد تارا وأخذت تهز سميرة بعنف قائلة:

- هيا أيتها الكسولة اجلسي ورتبي طفليك، كفاك نوماً

وسمعت تارا تقول، وكانت مستلقية على ظهرها:

- ما قصة الطعام يا أستاذ؟ هل وفقت في الحصول على شيء منه؟

- كلا، ولكن الطريق إلى چەلیٚ قد فتح أمام الجمهور ووصل القائم مقام، ويتجه الناس نحو الطريق الترابي الذي يلتف حول القرية

فقال الجميع وبصوت واحد:

- أرجو أن لا يكون ذلك مزاحاً

- لا والله، أخرجوا لتروا بأنفسكم، لقد تحرك الناس فعلاً، وعلينا ترتيب حاجاتنا بسرعة لكي لا نتأخر عن القوم.

وثب فهمي وعمر وصالح على أقدامهم وخرجوا من الغرفة وتبعتهم نرمين وتارا، ثم عادوا وهم فرحون لأول مرة بعد أيام عديدة كانت وجوهنا تسبح في هم ويأس عميقين. وأمتد يدي إلى أول بطانية لأطويها وأجعلها على شكل اسطوانة رفيعة وقصيرة، ثم ربطتها بالحبل ووضعت الحبل حول رقبتي وكتفي الأيمن، ولم يمض غير وقت قصير حتى كنا على

أهبة الاستعداد للحركة. كان الأطفال شديدي الضعف ومن بعدهم صالح، أما نحن البقية فقد شحذ الخبر الجديد هممنا، ولكنني عندما تحركت بضع خطوات إلى الأمام دارت الأشياء حولي، ولم أستطع الوقوف وشعرت بعرق بارد يتصبب من جبيني، وبتسارع في ضربات القلب، فركض عمر وفهمي ناحيتي، ثم صاحت نرمين:

- لقد وقع شفان

استطعت الوقوف بصعوبة، وطلبت بعض الملح وشيئاً من الماء، وقلت لهم:

- لا تخشوا شيئاً انه هبوط الضغط الذي يحدث لي طيلة حياتي، فاطمأن الجميع.

تناولت قليلاً من الملح وشربت بعض الماء، وقلت لهم:

- سوف أتحسن بعد قليل، هيا لنذهب

أصبحنا خارج الفرفة، ووجدنا الناس يتحركون نحو الطريق الترابي كأفواج النمل الأسود وقد نسوا أو تغلبوا على جوعهم وضعفهم وآلامهم وأمراضهم. كانت الشمس ساطعة ولأول مرة بعد أيام وليالي قاتمة وكئيبة لن نستطيع محوها من ذاكرتنا أبداً. وكان شعورنا بالجوع شديداً، فبعد أن نمنا نوماً عميقاً وطويلاً نسبياً تلك الليلة، تركز همنا على بطوننا الفارغة، وتمنينا أن تسعفنا أية جهة بأي شيء نأكله وبأسرع وقت.

تحركنا مع الجموع الغفيرة على الطريق الترابي، ذلك الصباح المشمس الجميل، وسط الجبال إلى هدف آخر مجهول، لا نعرف ماذا ستفعل بنا

السلطات التركية. وكان ذلك الصباح السابع من نيسان، حيث كانت السلطة في بغداد تستعد للاحتفال بمناسبة تأسيس الحزب الحاكم.

استمر سيرنا فوق ذلك الطريق الترابي المليء بالأوحال، والغريب أيضاً أن جمعنا الذي فقد قوته بسبب الظروف التي عاشها الأيام السابقة كان يتسارع في سيره، بل الأصح كان أقرب الى التسابق، وعادت أحذيتنا يزداد وزنها كلما تقدمنا الى الأمام، بسبب ما يتعلق بها من الأطيان. ولم يكن أحد يعرف شيئاً عن طبيعة هدفنا، كل ما سمعناه من الناس أن السلطات التركية وعلى لسان القائم مقام قد رحبت بجموعنا وطلب منهم عدم الخوف والالتزام بالنظام والابتعاد عن الفوضى، ثم طلب منهم السير على الطريق الترابي حيث قادتنا مجموعة من الجنود، ذلك ما سمعناه من الناس الذين حولنا، لأن مقدمة القافلة كانت بعيدة عنا، وعندما حانت مني التفاتة إلى الوراء بعد أن قطعنا مسافة لا بأس بها لم أستطع أن أرى مؤخرة القافلة، كنا قطيعاً بشرياً كثير العدد، ولا أحد يعرف عددنا بالضبط، ولكنني قدرتهم بأكثر من مائة ألف إنسان.

كان يوخنا ضعيفاً لا يقوى على السير بمعدل سرعتنا فحملته أمه على ظهرها، وعندما كانت تتعب تساعدها تارا في حمله، وأقلقنا ذلك لأننا لم نكن نعرف أية مسافة سنقطعها مشياً على الأقدام، ونحن بذلك الضعف البدني بسبب الجوع، كان أغلبنا يبدو مثل شيخ ذابل السحنات داخل ملابسه السميكة، ولكننا عندما تفحصنا الكثير من الناس حولنا، وجدنا أنفسنا ضمن أحسن الأفراد كفاءة وصحة، فقد كان عدد المرضى من الأطفال مخيفاً، وأكثر الأمراض كان الإسهال ثم الأنفلونزا والتهاب القصبات الهوائية، إضافة إلى ما سببه نقص الطعام من ضعف ووهن

وإعياء. أما الحالات الأخرى فكانت مشكلة الشيوخ والنساء الحوامل، وعندما عرضنا على تارا وسميرة أن نساعدهما في حمل الطفل يوخنا رفضتا بإصرار وكانتا تسيران أمامنا ومن خلفهما نرمين ومن ثم نحن الأخوة الأربعة، وقال فهمي هامساً في أذني:

– دعهما يا شفان لتتحملا مسؤولياتهما

وأخيراً وصلنا إلى واد عميق قبيل الظهر بقليل، مشيد عليه جسر خشبي ضيق نسبياً، وقربه نقطة عسكرية فيها ضباط وجنود أتراك رحبوا بنا، وكانوا في حركة دائمة لتنظيم عبور الناس. وعلى الضفة الأخرى من الوادي كانت تقف سيارات شحن بأعداد كبيرة، وطلبوا منا أن نصعد اليها بواقع كل سيارة لعشرين شخصاً، فأزدحم الناس في صناديقها، وكان منظراً فريداً لم نألفه، وتراصت الأجساد التي أنهكها الجوع ولم يكن مسموحاً أن نجلس إلا للأطفال الصغار والشيوخ والعجزة. وقال لنا شيخ في السبعين من عمره كان هزيل الجسم، تعباً:

– إلى أين يأخذوننا؟

فقال أحد الشبان معلقاً ساخراً:

– إلى الجنة يا جدي! ماذا أتى بك إلى هنا؟، لماذا لم تمكث في بيتك؟

تحركت السيارات على طريق ترابي كثير الحفر والطين والبرك المائية، فكنا نتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ونصطدم ببعضنا، أو نقع، وبخاصة أولئك الذين يقفون بعيداً عن أسيجة صندوق السيارة، وكنا نقف قرب السياج الملاصق لقمارة الشاحنة فساعدنا ذلك على أن نكون

في وضع أفضل من الآخرين رغم إن أفراد السيارة قد فسحوا المجال للنساء والأطفال وكبار السن ليستندوا إلى الأسيجة أو الجلوس على أرضية السيارة وكانت تارا واقفة شامخة بوجهها الجميل وشعرها الذي يؤلف لوحده أنغاماً شجية وهو يتحرك بفعل الرياح، حيث لم تغطي ذلك اليوم رأسها بل دعت خصلات شعرها حرة وسط تلك الجبال الوعرة في أرض لم نشعر فيها بالغربة لأنها كانت ولم تزل جزءاً من أرض كوردستان الواسعة.

استقبلنا الشعب الكوردي هناك بالترحاب في القرى التي مرت قافلتنا بها وقدموا لنا الطعام والماء، وكان الطعام معبئاً في أكياس، تحتوي علىصمون وبيض. ورغم قلته إلا أنه أسعف بعض الأنفس البشرية التي باتت على حافة الهلاك من شدة الجوع. وكان كلما مررنا بقرية نجد أهلها قد خرجوا عن بكرة أبيهم يلوحون لنا بأيديهم، ويتمنون لنا النجاة والتوفيق والقوة. وتم تزويدنا من السيطرات التركية التي كنا نمر بها بعبوات من المياه المعدنية والجبن والزيتون وثلاث عبوات من المياه المعدنية المعبأة في قناني بلاستيكية رقيقة. كانت السيارات تسير ببطء لوعورة الطريق ومراعاة لحمولتها حيث كان الناس يقفون على أقدامهم. تناول ذلك الجمع المهاجر طعامهم في تلك الظروف الخاصة والصعبة، ورغم قلته ونوعيته إلا أنه كان كافياً، وربما من أشهى ما تناولناه، لأننا كنا على وشك أن ننهار جوعاً. لم يعرف أحد منا بعد أين تسير بنا تلك السيارات الكثيرة، رغم أن بعض الناس من حولنا من السيارة التي كنا على ظهرها تفاءلوا بأن نحط الرحال في مخيمات أعدت لنا خصيصاً، وهناك نجد المأوى والطعام والكساء والرعاية الصحية، غير أن كل ما كان يحيط بوضعنا ذلك اليوم لم يكن يشجع على التفاؤل، ووضع نهاية

لآلامنا وإنقاذنا من براثن الموت الجماعي أو تفشي الأمراض على أقل تقدير.

ركن من كان معي إلى السكون، فكل واحد منا مشغول بتثبيت جسمه لتفادي السقوط أو الاصطدام بمن يقفون قربه، وكل واحد منا يفكر بنفسه بطريقته الخاصة، فلا بدّ أن فهمي كان يفكر بحظه العاثر، وبزوجته التي تركها في دهوك ولم يمض على زواجهما سوى خمسة أشهر. وعمر الذي لا زال أعزباً، ولابد أن رأسه مليء بالأحلام العريضة التي يسرقها الزمن وظروف البلد الشاذة التي تقضي بالموت على كل فكرة وحلم وبسمة.

أما نرمين فلا بد أنها تفكر بالوالدين أولاً ثم بمستقبلها، إذ لم يبق من دراستها سوى ثلاثة أشهر لتنال شهادة الهندسة. وكان صالح غامضاً تلك اللحظة بالنسبة لي، فقد كان هادئاً كل الهدوء ورغم ضعف جسمه كان نبيلاً لم يطرح ابتسامته جانباً. وكانت سميرة أكثرنا خروجاً عن وقارها، فلا تكف عن السؤال عن وجهتنا وماذا سيحل بنا، وتلوم الحظ والبخت والمطر. وكان طفلاها يفترشان أرضية السيارة، الصغير يقضم قطعة من الصمون كانت لا زالت في يده وأمه تحثه على أن يأكل، وهو يرفض بحجة عدم الاشتهاء للطعام. وعندما نظرت إلى تارا، خفق قلبي، ونسيت الهجرة والموت، فكأنني انتقلت إلى بيئة أخرى تخلو من القتل والخوف والهرب، وبدت تارا وحيدة في عالمها المتوازن، صامدة لا يبدو عليها الضعف، كانت تقف شامخة وقد رفعت رأسها تنظر إلى المناظر الطبيعية الساحرة التي نمر بها في سيرنا ذلك اليوم، لعلها كانت تفكر بالاستقرار، بزوج يحنو عليها ويحترمها ويقدر مزاياها، ولأول مرة شعرت

براحة نفسية لوجودها قريبة مني، وأدركت أيضاً أن ذلك الشعور هو ما يبحث عنه أي إنسان بوعي تام أو حتى بغير وعي.

وتحولت كتل الصخور حولنا إلى أشكال شفافة، وتحول الجمع المهاجر إلى فرقة كورال مميزة، أخذت تنشد تلك الأنغام التي تجبر المرء على الصمت والتأمل والنقاء. وكانت خصلات شعرها من أجمل الأشياء لحظتها، وهي تتحرك بهدوء لكل نسمة هواء، أو لكل حركة عمودية للسيارة، وكان جسمها ذو المواصفات العادية يبدو جميلاً في رشاقته ومتانته وخفته، وهدوئه. ووسط تلك الخواطر عدت إلى نفسي فوجدتني خسرت عمري ولم أحقق شيئاً رغم الأبواب العديدة التي دخلتها ورغم اهتماماتي العديدة التي أمارسها، ولكنني في كل مرة أعود إلى الظروف التي تحيط بنا منذ أكثر من عشرين سنة، فألقي اللوم على الواقع الذي لم نختره، ولم يخطر ببالي أن أكون إنساناً دون قضية، ولن أساوم يوماً على بقائي نقياً، ولن أتخلى عن إخلاصي في كل ما أمارسه، حيث كان الصدق منهجي ولم أدنس خبرتي أمام أي إغراء مادي أو معنوي.

استمر سيرنا الممل ونحن قد حشرنا داخل تلك الصناديق الحديدية القاسية، وقسم من السيارات كانت تفتقر إلى البوابة الخلفية مما كان يشكل خطراً على الناس مع أن بعض الشباب ومن باب الافتقار إلى التسلية واثبات الذات كانوا يجلسون على حافة الصندوق وظهورهم باتجاه مقدمة السيارة وقد تدلت أرجلهم، وتهتز أو يهزونها هم، ولم يتخلوا عن دعاباتهم وتهكمهم على بعضهم البعض، أو ينقسمون إلى مجموعتين ويتراشقون السخريات وتقليل الشأن.

في المغرب من ذلك اليوم التعيس وصلنا إلى واد عميق تحيط به فسح مناسبة تكونت بفعل عمليات التعرية، وكانت أقرب إلى سهول فيضية ضيقة ومحدودة أو المصاطب النهرية بفعل الفيضانات الكونية. يصب في الوادي الرئيسي واد ضيق القعر واسع الجانبين قرب المساحة المستوية وعلى جانبي الوادي الفرعي حائطان عاليان يتكونان من طبقات صلبة وداكنة من الصخور الكلسية، وبعدها باتجاه الوادي الفرعي(باتجاه الجنوب) هناك منحدران قاسيان على جانبي الوادي، منحدران طويلان ولكن يمكن تسلقه بسهولة لأنه يتكون من صخور رخوة نسبياً.

وهكذا، وقبل حلول الظلام أفرغت تلك السيارات الكثيرة حمولتها في جوف الوادي المهجور وعادت أدراجها. وقامت السلطات التركية بتحذير الناس من القمم المتصلة التي تغلف الوادي الفرعي على شكل نصف دائرة وعدم التقرب منها لأنها حقول ألغام كثيفة، وأستمر تدفق السيارات إلى ما بعد حلول الظلام. وهكذا رمتنا السلطات التركية في منطقة وعرة ومهجورة وسط حقول الألغام بدل أن تزجنا في أي مخيم يلبي أبسط متطلبات اللاجئين.

وقام الجنود الأتراك بتخصيص مكان لكل عائلة أو مجموعة عائلات، وتم تحذيرنا من وجود الألغام بالإشارات، رغم أن جمعنا كان فيه العديد ممن يعرفون بعض الكلمات التركية، وبضع أشخاص كان باستطاعتهم التفاهم معهم ومنهم أنا، ولكن لا أدري لماذا لم تكن لنا الرغبة في الكلام، ربما كان الخوف الأزلي الموروث الذي نتعرض له باستمرار، وذلك الرعب الذي زرعته السلطات التي كانت دائماً غريبة عنا وتستهدف إخضاعنا وفرض إراداتها الخاصة، وتأريخها الخاص ولغاتها

وثقافاتها الخاصة. كانت الأرض موحلة بسبب الأمطار، وعادت كتل الغيوم الضخمة الرمادية السوداء لتملأ السماء، وأخذت تلتحم مع بعضها البعض، وكان الذين أسعفهم الحظ ووصلوا قبل هبوط الظلام قد انتشروا لجمع الحطب كما فعلنا نحن، فبعد أن تبين لنا أن ذلك الوادي هو محطتنا وخابت آمالنا وإنصب تفكيرنا على مجرد البقاء على قيد الحياة، لذلك تم جمع كمية وافرة من الأخشاب من قبل فهمي وعمر وصالح. وأشتد البرد من جديد وازدادت شدته كلما توغلنا في جوف الليل، وكان منظر الناس مؤلماً، وحزيناً ومستسلماً للأقدار، مسلوبي الإرادة والراحة والاستقرار.

تجمع أكثر الناس في الفسحة الواسعة قرب مجرى الوادي الرئيسي، وأشعلوا نيراناً عظيمة للإنارة والتدفئة الجماعية، وظهرت مئات النيران المشتعلة هنا وهناك وتنمو باستمرار ويزداد عددها، فكان منظراً فريداً من نوعه، يعبر عن بؤسنا وحالة الجوع التي أخذت تفعل فعلها في أجسادنا.

وكانت رائحة أجساد بعض من نقابلهم أو نمر بهم لا تطاق وبخاصة الرائحة التي كانت تنبعث عندما يتخلصون من أحذيتهم طلباً للراحة، أولئك الذين أهملوا النظافة قرابة أسبوع كامل.

جلسنا حول النار التي أشعلها عمر وطلب منا أن نحمي أنفسنا من البرد، وفرشت سميرة بطانية ليتمدد عليها ابنها يوخنا وفرشنا اثنتين أخريين كل مطوية مرة واحدة طولياً لنجلس عليها. كانت معنوياتنا قد بدأت بالهبوط من جديد بسبب الصدمة في زجنا في ذلك المكان المقفر، ولم يعرف أحد أين يقع مخيمنا الجديد، ولماذا تصر الأقدار على أن نهزم كل مرة؟.

وقال عمر بعد أن جلس وأشعل لفافة تبغ عصرها بين أصابعه عدة مرات قبل أن يشعلها ويسحب لنفسه عدة أنفاس:

- أخـَوان لماذا القلق؟ ربما نمثل فلماً تراجيدياً اجتماعياً، نحن (كومبارس) فقط

وقالت نرمين:

- إنها حقارة

ولعن صالح السلطات التركية

وقال فهمي:

- أين الاهتمام الدولي ودعاة حقوق الإنسان؟

وقالت سميرة بألم واضح:

- ربما جمعونا هنا قرب حقول الألغام ليقضوا علينا بشكل جماعي بالتعاون مع السلطات العراقية

وعلقت أنا قائلاً:

- وهذا المكان النائي يصلح أن يكون مقبرة جماعية عظيمة، يتم فيها التخلص من عدد هائل من الأكراد.

وقالت نرمين بمرارة:

- هل هذا معقول؟. ثم أضافت قائلة:

- لماذا لا تسأل أحد الضباط، أنت تتكلم بعض التركية، أليس كذلك يا شفان ؟

– نعم، ولكن أظن أن ذلك لا يجدي، لأنهم أيضاً لا يعرفون شيئاً، فقد صدرت لهم الأوامر من رؤسائهم ليتم نقلنا إلى هذا المكان فقط، ثم وقفوا قرب الوادي لمراقبتنا ومنعنا من التشتت وربما الهرب إلى أي مكان آخر.

وقال فهمي معلقاً:

– ربما هذا صحيح، فما دمنا في أرضهم نكون فقدنا حريتنا وزمام أمورنا، ولن نشارك في صنع أي قرار لاحق يخصنا

قامت تارا حاملة يوخنا لقضاء حاجته، فالإسهال يقض مضجعه، وحمدنا الله على أنه كان طوال الطريق طبيعياً دون أن يربكنا أو يحرجنا، حيث لم نكن في وضع يسمح بأن يقضي حاجته إلا في حوض السيارة نفسها.

أشتد البرد أيضاً وزادت سرعة الرياح، وسمعنا عن توجه بعض المنظمات والحكومات لنجدتنا بشكل عاجل، وكثر الكلام والتعليقات في الإذاعات العالمية كافة، وأصبح وضعنا يشكل في نظرهم مأساة إنسانية حرجة، امتدت بعض التعليقات لتتناول وضع الأكراد التاريخي والحركة الكوردية في العراق، وموقف السلطات العراقية منها، وكثر الكلام ولأول مرة عن عمليات الأنفال البشعة التي نفذتها سلطات بغداد في الأكراد في خريف عام 1988، وإحصائيات بعدد الضحايا وعن مجزرة (حلبجه) والأسلحة الكيميائية، وهكذا كان العالم بأسره مشغولاً بنا وبمحنتنا وبقضيتنا السياسية، ولكن ذلك كله، رغم أنه يشكل انعطافاً مهماً في نظرة بعض الدول ولأول مرة في تقييم وضعنا وإنصافنا، وكانت قبلها تصم آذانها عن تلك المجازر الدموية والإبادة المنظمة الشاملة

لجنسنا، أقول رغم تلك الضجة الإعلامية لم نر عملياً ثمرة ذلك الاهتمام وجدية ذلك التباكي على ضحايانا، ونحن نفترش وادياً مهجوراً في منطقة جبلية وعرة في شتاء بارد كثير المطر، رغم أننا كنا في منتصف فصل الربيع.

قال فهمي وقد ثارت ثائرته:

- تباً لك أنت وأنت، وقصد دولتين كبيرتين، وأضاف:

- متى كنتم مع الشعوب لتقرر مصيرها؟، وتلك الشعوب ضحايا استعماركم وجشع أطماعكم منذ قرون من الزمن

أما أنا فقد كنت أحلم لحظتها بسماء صافية، تتدلى منها عناقيد ذهبية من النجوم، وبدر كثير الضوء، هادئ كهدوء جمال الكون، وعالم يخلو من القتل والظلم والحرب والدم والتعذيب والخوف والقسوة، عالم يملؤه الحب، كل واحد منا يحب لنفسه شيئاً، إذ بغير الحب لسنا بشراً، لأن في القدرة على حب الأشياء إبداع وقوة، وضحك كثير، وتشبث واع بالحياة، ويبدو العالم من حولنا جميلاً للغاية، ولسوء حظي كل مرة يتم إرجاعي إلى الواقع، فقد صحوت من أحلامي على صوت عمر وهو يمازحني:

- أنت أيها الرئيس فكر بحال رعيتك، إننا جياع، أين ذهبت؟، هذا مكان مناسب لندفن فيه أحلامنا جميعاً، وأوهامنا التي تربينا عليها وتم تلقيننا بصرامة، لقد آن الأوان أن نصحو وأن نرجع إلى الواقع لعلنا نفلح في إصلاح شأنه بعض الشيء. ثم أضاف قائلاً وبلهجة لم تفقد المزاح:

- أنتم الرؤساء لا تفكرون إلا بأنفسكم وتتركون شعوبكم تجتر تخلفها المزمن

فضحك الجميع إلا تارا

بسبب فكرة الاعتماد على النفس في كل الظروف والتي طرحها اخوتي أكثر من مرة، وشددوا على ضرورة الالتزام بها من قبل الجميع، لم اقترح عليهم أية محاولة للحصول على بعض الطعام، فقد كان هناك بعض الجماعات لا زالت تحتكم على مواد غذائية حملوها معهم من **كانى‌ماسى**[٧]، ومنهم بعض أقاربنا، ومعارفنا، وفكرت أن أذهب وحدي لأطلب أي شيء يؤكل لنفسي عندما لم أستطع تحمل الجوع، وكنت أحلم بخروف نشويه أو حتى أرنب صغير أو قنفذ، وربما جرذ جبلي كبير الحجم!

وعندما وصلت ذلك الحد من التفكير قررت أن ألغي الفكرة من أساسها وأتذرع بالصبر، وعدت إلى رشدي تماماً، وبدأت أدخن وأمشي نافذ الصبر كثير التوتر، وحاولت أن أهرب إلى بطون خيالي الواسع، الذي أهرع إليه والى عالمه الساحر كلما ضاقت بي الدنيا، وأقنعت نفسي بأنني أفضل حالاً، بل لا بد أن أكون في أحسن حال مقارنة بالكثيرين، إن لم أكن أوفرهم حظاً أو جنوناً، وسألت نفسي:

– لماذا يجب أن أكون صبوراً وقوياً ومتفائلاً؟

ورحت أبحث عن أي سبب قوي مقنع، أو ميزة لها فعل السحر في الإنسان في الظروف القاتلة التي كنا فيها تلك الليلة الحمقاء الداكنة والباردة كثيراً، وبعد بحث طويل، استعرضت خلاله مواضيع شتى، مثل كوني أكبرهم، والثقافة والمهارات المتنوعة، وحبي للفنون والآداب، والمسؤولية، والخجل من الانهيار وبالتالي الخوف من الهزيمة والسقوط، لم

تكن كل تلك النقاط وغيرها جديدة ومقنعة بقدر كاف لتجعل المرء أقل ضرراً في تلك الأوضاع غير الطبيعية وأكثر تفاؤلاً بل متماسكاً، ضحوكاً ومحباً للحياة، وفي النهاية اقتنعت بشكل لا يدعو للشك أن وجود تارا معنا وافتتاني بشخصيتها، والإعجاب الذي بدأ ينمو سريعاً كل ساعة. وكلما كنت أنظر إلى وجهها أو أراقب حركاتها أشعر براحة كبيرة، أنسى معها الجوع والبرد ومصيرنا المهدد بالموت كل لحظة. إذاً فقد كانت تارا التي قلبت الموازين داخل نفسي، وجعلت قسوة الحياة أمراً طبيعياً ليس بمقدوره النيل من أحلامي، أو رغبتي في العمل بشكل أفضل، وتجعل من ذلك الحلم الذي كنت أبحث عنه طول العمر أمراً ممكناً مع قليل من الشجاعة وتجاهل الآخرين الذين نفعل الأشياء لإرضائهم عبثاً.

في تلك الليلة، لم يخلد الناس إلى النوم في وقت مبكر، ربما لأننا لم نبذل مجهوداً بدنياً شاقاً، أو ربما بسبب البرد، وأبقى الناس على النيران مشتعلة، رغم أن الساعة كانت قد جاوزت التاسعة مساء.

كان المكان يعج بالنور وبالضوء، فقد شكلت تلك النيران بقعاً من الضوء تداخلت وتجاورت مع بعضها، ولابد أنها كانت من المناظر الفريدة لو قدر للمرء أن ينظر إليها من الجو!. وأخذ الشعور بالجوع يوقظ حواسنا، وبدأت تنمو في نفوسنا ما نسميه بالأزمة التي تظل قائمة لا تقبل أن تحل سلباً أو إيجاباً، فكان لا بد من السهر عندما لم نستطع اللجوء إلى النوم هرباً من الواقع، وأدركت لحظتها أننا جميعاً في حياتنا نلجأ إلى الطعام أو النوم أو القيام بعمل ما، أو تغيير المكان هرباً من الأزمات الصغيرة التي تنتابنا في حياتنا باستمرار.

تفحصت نرمين الغيوم في السماء ثم قالت:

- أتمنى أن لا تمطر السماء؛ لتجف الأرض، فلقد أذاقتنا الأمطار ما يكفي من العذاب

وقال صالح:

- لو كان معنا الآن(دستة) ورق لكنا نلهو قليلاً قبل أن يدركنا النوم

فقال عمر مازحاً كعادته:

- لو كنت الآن ملكاً في أفريقيا، هكذا أجلس قرب النار وسط رجال قبيلتي ننتظر لحم الغزال الذي يتم شواءه على طريقة رعاة البقر في أمريكا، ثم نأكل اللحم على أنغام السامبا. واقترحت أنا أن نلعب لعبة فكرية (لعبة العشرين سؤال) ولكنني لم أجد الحماس لدى الآخرين. وأقترح فهمي بعض الطرائف، فكان مصيرها كمصير اقتراحي. عندها قال عمر:

- لنرقص رقصة الهنود الحمر، نطوف حول النار على شكل حلقة نضرب الأرض بأقدامنا ونضع راحة يدنا على الفم نصدر تلك الأصوات المعروفة.

فضحكت نرمين وقالت معلقة:

- تصوروا لو اشترك كل الناس هنا معنا وفي وقت واحد، ماذا ستقول السلطات التركية عنا؟!

فقالت تارا مازحة:

- ولكننا نحتاج عند ذاك الى مئات الطبول

أصر قسم منا على أن يحتفظ بروح الدعابة بالرغم من ظروفنا، إلا أن مظاهر الألم وسط قافلتنا الفقيرة العدد أخذت تزداد بحيث لم تعد تشكل

قضية شخصية أو خاصة، فقد كان صراخ الأطفال الصغار يسمع هنا أو هناك، ومن بعيد أحياناً على شكل صدى.

وكانت عائلة صغيرة قد خيمت بالقرب منا، يقودها شاب قد تجاوز العشرين من عمره بقليل، ومعه أمه وزوجة شابة وطفلة عمرها ثلاث سنوات وابنة صغيرة لم تكمل العام الأول من عمرها، وكانت الصغيرة كثيرة البكاء، يشق صراخها سكون الجبل، ويرفض صراخها كل أشكال الظلم والقسوة. كان في ذلك اليوم في كل عائلة طفل صغير، أكثرهم قد أصيبوا بالأمراض قبل الكبار.

ومضى الليل ثقيلاً، وتم إعداد الفراش الجماعي، واقترحت تارا البحث عن أعواد خشب لعمل سقف فوقنا خوفاً من الأمطار، ولكن فهمي وعمر أجهضا اقتراحها وعلى الفور، حيث قال فهمي:

- أين نبحث عن الخشب المناسب في هذا الليل وسط حقول الألغام؟

وقال عمر معلقاً:

- لندع الأمر لله

وعندما تم الاستعداد للنوم على نفس المنوال السابق، بطانيتان تحتنا وثلاثة استعملت كغطاء، غطاء للطفلين، وغطاء للنساء والغطاء الأخير كان من نصيب (الأخوة كارامازوف) كما عبر عنا عمر كآخر دعابة أطلقها قبل أن ينتقل النوم به إلى عالم أهدأ وأقل قسوة. وكان لا يزال صوت الراديو يسمع من بعيد، يبحث أصحابها عن مخرج لأزمتهم بالسعي وراء النشرات الأخبارية في المحطات العالمية المختلفة، التي أصبحت بدورها مملة وفقدت الكثير من تأثيرها مقارنة بأول ليلة.

في صباح اليوم التالي استيقظنا من النوم مبكرين على صوت قطرات المطر الثقيلة وهي تضرب البطانيات التي فوق أجسادنا وتصدر صوتاً مميزاً أصبحنا نكرهه؛ لكثرة ما قاسيناه بسبب الأمطار، وأخذ يزداد قوة وغزارة وبسرعة.

فقالت تارا وهي على درجة من العصبية ونفاذ الصبر:

- والآن ماذا نفعل؟ يا الهي ارحمنا

كان المطر غزيراً ومفاجئاً، لذلك سادت بين الناس جميعاً فوضى وحيرة قصوى، فالأخاديد الصخرية والجحور قليلة وقد تم احتلالها من قبل بعض الناس، وكانت الأرض المنحدرة جرداء تماماً. كان الخيار الوحيد أمامنا جميعاً، هو الجلوس على الأرض وتغطية أنفسنا بالبطانيات، إلى أن ينقطع المطر أو تخف شدته، عند ذاك نفكر بطريقة أخرى لنحسن بها وضعنا. ولا حظنا تكوم الناس تحت الأغطية، ومن لا يملك غطاء احتمى بمعطفه أو سترته، وأخذ البعض يتجول دون هدف أو سبب، كان منظراً لم نشاهده في أي فلم سينمائي، ولم نقرأ عنه في رواية، كان مشهداً حياً وواقعياً وتراجيدياً، يصلح أن يكون مشهداً رئيسياً في الفلم الهندي المعروف (أم الهند) كما قلنا لبعضنا ونحن نختبئ تحت البطانيات الخمسة، ورغم ذلك كان وضعنا أفضل نسبياً من الكثيرين ولكن بالطبع إلى حين. وتبادرت إلى سمعي أصوات استغاثة وصراخ الأطفال، ولعنات البعض الآخر الذين لعنوا الأبيض والأسود، الأخضر واليابس!، ثم عادوا أخيراً ليلعنوا يوم مولدهم.

كنا نجلس القرفصاء ويتناوب قسم منا بإمساك البطانيات بالأيدي ورفعها فوق رؤوسنا أو يدعوها تسقط على رؤوسهم عندما تتعب

الأيدي. وأثبتت تارا صبراً منقطع النظير، وكانت قوية ومتعاونة لم تنطق بكلمة يأس أو عتاب، وعندما أخذ الماء يجري من تحتنا، حاولنا البحث عن مجموعة صخور نجلس عليها لنحمي ملابسنا من الماء، وأذكر أننا أخذنا نشعر بالخوف وسط تلك العاصفة الصماء، وأخذت أجسادنا تهتز من شدة البرد في تلك اللحظات من ذلك الصباح الذي لن ننساه أبداً. لم يتبادر الطعام إلى ذهننا، فقد أنصب جهدنا وتفكيرنا على أن تبقى أجسادنا وملابسنا جافة قدر الإمكان. وما أن خف المطر قليلاً حتى خرج فهمي وعمر من تحت البطانية محتمين بقمصلتيهما العسكريتين السميكتين المزودتين بغطاء للرأس متصل بجسم القمصلة للبحث عن مكان مرتفع نسبياً، أو مجموعة صخور يرصونها، فقمت أنا وصالح وتارا وسميرة بحمل بطانية واحدة فوق رؤوسنا وأمرت الطفلين بلم باقي البطانيات لتبقى تحت حدود السقف الذي أنشأناه وتجنيبها مزيداً من الماء والطين معاً. وعندما عاد فهمي وعمر، حملا الأمتعة، وطلبا منا أن نقف ونرفع البطانية عالياً فوق رؤوسنا ونتحرك قليلاً باتجاه ارتفاع المنحدر، ودخلا تحت الغطاء وأخذا يساعداننا فيما أشار فهمي إلى ناحية تحركنا صوبها بسرعة حتى وصلنا بمجموعة صخور متوسطة الحجم تم ترتيبها على عجل لنجلس عليها، ونكون بذلك قد تخلصنا من المياه التي أخذت تجري على الأرض على شكل سيل مخيف. وتمنينا لحظتها لو أمكن الحصول على مجموعة أوتاد خشبية طويلة لنقيم بواسطتها سقفاً مناسباً، فقد كلت أيدينا ونالها التعب، وزادها ضعفاً الجوع الذي لا يمكن تجاهله بين فترة وأخرى. ومما زاد من محنتنا الأخبار الجديدة التي حملها فهمي وعمر معهما، إذ قال عمر:

- هل تعلمون أين نحن الآن يا جماعة؟

فدهشنا من السؤال، وقلت:

- نحن في تركيا بالطبع

فضحك فهمي وقال:

- نحن في العراق يا إخوان!

وقلنا بصوت واحد وبدهشة واضحة:

- في العراق! أيعقل هذا؟

فقال عمر:

- نعم، ولقد سمعنا من الناس أن السلطات التركية خدعتنا وأرجعتنا إلى أرض الوطن، وتلك القمم (وأشار إلى ناحية الجنوب) مليئة بحقول ألغام كثيفة، زرعتها السلطات العراقية في وقت سابق.

فقالت سميرة:

- مستحيل

وأضاف عمر قائلاً:

- وهذه المنطقة تدعى (چەلێ)

فقال صالح مستغرباً:

- ما معنى ذلك؟هل هذا يعني أن السلطات التركية سلمتنا إلى السلطات العراقية؟

وقال فهمي عند ذاك:

- وهذا المكان النائي كما قلنا يصلح أن يكون مقبرة جماعية لن يراها ولن يسمع بها أحد

وقال عمر:

إن الناس مثلنا حائرون وكثيرو الخوف، وكل شيء محتمل

وقالت تارا:

- إن صح هذا الفرض، يكون عدم الاهتمام بنا لحد الآن جزء من مخطط مدروس بين الحكومتين التركية والعراقية

وقالت نرمين:

- ماذا تقول يا شفان ؟ ألا تفكر أن تقودنا إلى النصر؟

فقلت بعد أن رمقت تارا بنظرة سريعة، وكانت هي الأخرى تنتظر ردي:

- كل شيء محتمل. إن هذا الاحتمال قائم، فليست السلطات التركية أرحم على الأكراد من سلطات بغداد، ولكنني أرى أنهما لن تستطيعا ارتكاب مجزرة جماعية جديدة وبهذا الحجم، ويبدو أن انتشار خبر هجرتنا الجماعية واهتمام بعض الدول بشكل جدي، جعل من الحدث مأساة إنسانية بحتة قبل أن تكون قضية سياسية داخلية؛ لذلك فقد سحب البساط من تحت أقدام الدولتين وأسقط الأمر في يديها، ولن تتجرأ الحكومتان على إلحاق الأذى بنا أو قتلنا وإبادتنا كما حدث في عمليات الأنفال.

وقالت نرمين:

- أين الاهتمام الدولي الذي يتحدثون عنه؟

فقلت:

- إن مثل تلك الإجراءات تتطلب وقتاً، ولا تنسوا أننا في منطقة وعرة ونائية، ووسط ظروف جوية قاسية إن لم تكن خطرة للغاية.

في ذلك اليوم العصيب، كانت كل مجموعة منعزلة عن الآخرين، ويتركز اهتمامها بحالتهم الشخصية، فالانتقال من مكان إلى آخر كان شبه مستحيل، كان مطراً غزيراً وقوياً، وتحولت الأرض إلى مستنقع من الماء والطين، وكان سيلاً رمادياً أحمراً على المنحدرات.

ورغم ذلك الوضع المتأزم الشاذ مضى الوقت، فالزمان لا ينتظر أحداً، وكانت تارا قريبة مني تحت البطانية ذلك اليوم، وكنت في سري مرتاحاً دون ذلك الحشد المبلل بالمطر، بل أكثرهم هدوءاً، وأقلهم تفكيراً بوضعنا، كان يكفيني نظرة منها، أو أسمع كلماتها التي تقولها عادة بعد تفكير، وهي قليلة، ولم تكن متحمسة أو عاطفية مثلنا، بل كانت ترى نفسها وسط الكون ويتوزع حولها العالم على شكل حلقات متداخلة!، وكانت من النوع الذي لا يهمها أمر الآخرين كثيراً، فقد لاحظت أنها تهتم بنفسها ثم أختها سميرة ثم الطفلين، أما نحن فكان اندماجها معنا ينطوي على الحذر في حدود تواجدنا معاً في مكان واحد فقط، ولم تكن تهتم بأمر ذلك الجمع المهاجر، ولا بمأساتهم، أو مظاهر الضعف والمرض والجوع الشديد.

أما القضية المركزية التي كانت سبباً للهجرة فلا يهمها في شيء البتة. رغم تلك الصفات الشخصية التي عرفت بها تارا في ذلك الوقت القصير لتعارفنا، إلا أنها لم تقلل من إعجابي بها وحاجتي لها.

تحدد عالمنا ذلك اليوم بمساحة البطانية التي نرفعها فوق رؤوسنا، إذ كان مجرد التفكير بأن نخرج خارجها ضرباً من الجنون، ولا يعني ذلك أن أجسادنا كانت بمنأى عن مياه المطر، بل العكس فقد تسلل الماء إلى أجزاء من ملابسنا من الخارج ومن البطانية نفسها عندما تحتك أجزاء من أجسادنا بها أو الماء الذي ينضح منها، وكنا ننفضها بين فترة وأخرى حينما تمتلئ بالماء، وتصبح ثقيلة.

المشكلة الأخرى كانت حالة الطفل الصغير الذي يحتاج للخروج مع أمه لقضاء حاجته رغم أن معدته فارغة تماماً، إلا أنه كان مصاباً بإسهال

حاد ممزوج بالدماء، فكانت سميرة تأخذ معها بطانية لحماية نفسها والطفل قدر المستطاع، ويبتعدون عنا مسافة قليلة ثم تعود وإياه. ولقد بدأت حالة الإسهال تستفحل بمعظمنا ذلك اليوم.

قبل المساء كان التعب والبرد قد شل أجسادنا، ورافق ذلك توتر شديد في أعصابنا، ونفذ الصبر، فقد أصبح البرد والجوع لا يطاقان. حتى أنا، لم أعد ذلك الصامت الذي لا يسمع شكواه، فكنت أصيح في الموجودين معي مما أفقدني الكثير من وقاري. وفي لحظة يأس عندما امتد بصري إلى وجه الطفلين والى صالح ثم نرمين صعد الدم إلى وجهي واستجمعت ما تبقى لي من قوة وطلبت من فهمي أو عمر أن نتبادل القمصلات، فقال فهمي:

– ماذا أنت فاعل يا شفان ؟

– سوف أخرج للبحث عن طعام

فقال عمر:

– أين تذهب في هذا الجو القاتل؟

وقالت نرمين:

– هل تعتقد أن هناك من بقي معه طعام؟...وان كان عندهم فهو حتماً شحيح ويدخرونه لأنفسهم، وذلك حق

فقلت بعصبية:

– لا بد أن أحصل على الطعام بأية طريقة، لا أحتمل الموت تحت هذه البطانية الزرقاء اللعينة

فقال صالح:

– نحن بخير أنتظر إلى أن يخف المطر قليلاً

وقال فهمي:

- أهدأ يا شفان أمكث أنت هنا سأذهب أنا وعمر

فقلت بعصبية:

- سأذهب أنا وحدي وبملابسي

فخلع عمر قمصلته وتبادلنا

وقال فهمي:

- حسناً دعني أذهب معك

- كلا سأذهب وحدي

بعد أن أغلقت القمصلة على الجزء العلوي من جسمي وثبت إلى الخارج وأنا أقول:

- ألزموا مكانكم، قد أتأخر بعض الوقت، لا تقلقوا

وفي العراء، كان المشهد مؤثراً، ومأساوياً، من الصعب تقبله حتى في فلم سينمائي واقعي، لقد كان يوماً من أيام الجحيم أو العقاب الجماعي بطريقة مبتكرة، كان المطر غزيراً بشكل استثنائي، والأرض موحلة، وقررت أن أنحدر إلى بطن الوادي الرئيسي، وكان الدافع الأساسي حب الاستطلاع ثم محاولة الحصول على بعض الطعام، ولم تكن في رأسي أية فكرة أخرى. أول مجموعة رأيتها، عائلة ذلك الشاب على مقربة منا، كان الرجل يحاول عبثاً نشر بطانية فوق رأس أمه وزوجته وابنتيه، ولكن البلل قد أدرك أجسامهم جميعاً ويرتعدون من البرد، وأخذت الزوجة طفلتاها في حضنها لتقيهم من المطر دون جدوى.

وعلى بعد أمتار منهم وجدت عائلة أخرى تغطي أجسادها بما لديها من غطاء مستسلمين للمطر والبرد وحكم الأقدار. ثم عائلة أخرى كثيرة العدد جلس معظم أفرادها القرفصاء على أرجلهم وتركوا أجسادهم تحت

رحمة المطر وهم يرجفون، ووجوههم شاحبة مبتلة. وكانت عشرات المجموعات على تلك الشاكلة، وقسم من الشباب وقفوا على أرجلهم وقد تحولت أجسادهم مع ملابسهم إلى قطعة من الماء الذي كان ينحدر من أجسادهم بغزارة.

وكان الناس يصيحون في الأطفال أو الأصغر منهم سناً دون سبب. ووسط ذلك البؤس وجدت عائلة كثيرة العدد أيضاً كانت قد أفلحت في الحصول على بعض الأخشاب الطويلة وغرستها في الأرض ونشرت فوقها عدة بطانيات، وجلسوا تحتها، وحفروا حولهم ساقية لتصريف الماء، ليبقى مكانهم جافاً نسبياً، وفي الوسط أشعلوا ناراً فقيرة بالأخشاب التي جمعوها بالأمس عندما وصلنا إلى المكان.

التقيت في جولتي بأولاد أعمامي وعماتي وعائلاتهم، وكانوا في حال أسوأ من حالنا بكثير، ولما سألني ابن عمي عن أحوالنا قلت:

- لا زلنا أحياء، ونفترش بعض الصخور على ذلك المنحدر

- هل معكم طعام؟

- كلا

- لقد نفذ ما كان معنا من الطعام أيضاً، أين أنت ذاهب في مثل هذا الطقس؟

- لا أدري بالضبط فليس لي هدف معين

فقال زوج عمتي:

- لا نستطيع استضافتك على أي شيء!

- شكراً لكم

غـادرت مكـان إقـامتهـم منحـدراً صـوب الـوادي. كـان منظـر النـاس تحت رحمة المطر يدعو للبكاء والضحك معاً، فكلنا لم نتخذ أية إجراءات تقينا من المطر، إذ كان لدينا المساء والليل بطوله، ولكن أظن أن أحداً منا لم يخطر بباله تلك العاصفة الشديدة من المطر والرطوبة والهواء البارد. وكان الناس قد انسحبوا من تلك الأرض المستوية قرب الوادي الرئيسي نحو المنحدرين اللذين يحيطان بالوادي الفرعي. وفي طريق العودة استوقفني أحد أعيان عشيرتنا وقال:

- أين أنت ذاهب يا أستاذ؟

- أتفقـد أقربـائي، فـإن مـع معظمهـم أطفـال صـغار، والحمـد لله وجدتهم بخير

- ومن معك هنا؟ هل معك الوالد والوالدة؟

- كلا لقد آثرا البقاء في البيت في دهوك، والبقية معي هنا، وأنتم ماهي أحوالكم؟

- كما ترى ننتظر جميعاً رحمة الله، انه امتحان عسير وشديد ولكننا سنجتازه بعون الله بسلام

- هل تسمع الأخبار العالمية؟ وماذا يقولون عنا؟

- لقد سمعنا أنهم يرسلون لنا نجدات عاجلة، وأظن أن سوء الأحوال الجوية هي السبب في عدم وصولها لحد الآن

- لا أدري بالضبط، ربما لا تريد تركيا أن تتحمل المزيد من اللاجئين، وكما ترى فأن عددنا مخيف ولا زالت بعض السيارات تصل بشكل متقطع لنقل المزيد من الناس. ورأيت تلك اللحظات انتشار الأطفال بين المخيمات يستجدون الطعام من الناس، وكانت أجسادهم قد تحولت إلى

شيء مبتل وصغير، وأكثرهم حفاة، فقدوا أحذيتهم بسبب الأوحال على طول طريق الهجرة إلى (چـهلى). كان مظهرهم كافياً لكي يجعل دعاة الإنسانية أن يصيحوا صيحة عظيمة قائلين وبصوت واحد:

- لا، ثم ينخرطون في البكاء ونحن على أعتاب القرن الواحد والعشرين

وجاء طفل وطفلة إلى محدثي يطلبان شيئاً من الطعام، فنهرتهم زوجته قائلة:

- ليس لدينا طعام هيا اذهبا إلى أهلكما

غير أن عبد الله قال لهما:

- انتظرا

وذهب إلى زوجته وطلب منها أن تقدم لهما شيئاً من الطعام، وبعد نقاش حاد عاد عبد الله ومعه بعض الخبز اليابس على شكل قطع صغيرة قدمها للطفلين اللذين التهماها في لحظات وذهبا إلى مخيمهما. كان مخيم عبد الله أفضل حالاً مقارنة بحال الناس، فقد تدبر أوتاداً، وأقام سقفاً مائلاً يقيهم الكثير من المطر. ثم قال لي عبد الله:

- كم عددكم؟

- أنا وثلاث من أخوتي وأختنا وعائلة مسيحية تتكون من أربعة أفراد

فقال:

- لحظات وأعود إليك

وذهب ناحية زوجته ودار بينهما نقاش طويل نسبياً ولكن بصوت خافت أقرب إلى الهمس منه إلى الكلام، ثم عاد إلى حيث كنت أقف ومعه سرة من القماش، وقال:

- خذ هذا الطعام ووزعه على من معك

- كلا لن أخذ طعامكم، فأنتم أسرة كبيرة ومعكم أطفال صغار هم أحوج إليه منا

- لقد أبقيت لهم حصصهم وهذا من نصيبكم، ثم أقسم بالله والقرآن

فأخذت منه الطعام مرغماً، وشكرته كثيراً وودعته. ولكنه أمسك بيدي وسحبني ناحيته قائلاً:

- خبئ الطعام تحت القمصلة، لئلا تتعرض إلى هجوم في الطريق

فقلت مستغرباً:

- هل هذا معقول؟

- نعم إن الجوع أخذ يستفحل في الناس، وحدثت قربنا حالتان، هجم جماعة على جماعة أخرى وسلبوهم طعامهم وأشبعوهم ضرباً أيضاً

خبأت الطعام تحت القمصلة وأغلقته بأحكام وعدت إلى أخوتي غير مصدق، رغم أنني لم أكن أعلم بنوع الطعام أو كميته بعد. وفي طريق العودة كان عشرات الألوف من الناس على شفى حفرة من أن يتحولوا إلى جزء متجانس مع ذلك السيل الجارف والأمطار والأوحال، فرفعت رأسي إلى السماء وتمنيت متوسلاً أن ترحم ذلك الجمع المظلوم الذي جرد من كل شيء، وبدلاً من أن تقضي عليهم قوات السلطة، هاهم تحت رحمة السماء ينتظرون الموت من الجوع والبرد والمطر والمرض. تألمت غاية الألم، وكرهت نفسي كوني أنتمي إلى عالم الإنسان للمرة الثانية، وكرهت نفسي لنفس السبب أيام الحرب العراقية الإيرانية حينما كانت تعرض الأفلام الوثائقية عن جثث القتلى بكل صدق وأمانة، بل كان التركيز مقصوداً على أبشع المناظر، تلك التي خبأ العالم مثيلاتها من أيام الحربين العالميتين، ولم تعرض على الجمهور لبشاعتها.

وصلت إلى حيث مخيمنا، وأصبحت داخل البطانية التي ابتلت بشكل كامل وأصبحت لا تفيد معها عمليات نفض الماء التي تتكرر بانتظام. كنت مبتلاً كثيراً وبخاصة القمصلة التي حفظت الجزء العلوي من جسمي من المطر، أما رجلاي فقد تسلل الماء إلى جسدي بغزارة، كذلك الجوارب، وأصبح الحذاء مغلفاً بالأطيان الكثيرة.

قال عمر:

– ماذا دهاك لتخرج إلى العراء؟

وقال صالح:

– كيف أحوال الناس؟

– سيئة للغاية وتنذر بالخطر لا محالة

نزعت القمصلة وتبادلنا مرة أخرى أنا وعمر، بعد أن حاول هو وفهمي عصرها قدر ما استطاعا، وقمنا بعصر سروالي أيضاً وبكل قوتنا.

وعندما رأوا سرة القماش، فرح الجميع وتحلقوا حولها، فدفعتها إلى مسؤول التموين، الذي قام بفتحها، فكان فيها ثلاثة صمونات شبه يابسة، وحفنة من الخبز اليابس وقد تحول إلى قطع صغيرة، وعشر قطع من التين المجفف، ومثلها من التفاح المجفف.

كانت فرحة لا توصف، وقام فهمي بتقسيمها بيننا بالتساوي. ورغم قلة الطعام الذي تناولناه، فأن وضعنا النفسي تحسن قليلاً.

وكانت تارا فرحتي وراحتي رغم الظروف التي كنا فيها، وكانت تبتسم أثناء تناولها الطعام وهي نصف مبللة وترتجف من شدة البرد، وتحاول تهدئة أختها التي فقدت أعصابها لأسباب كثيرة.

وجاء الليل مرة أخرى، وكانت ليلة لم يصدق أحد منا أن يبقى فيها إنسان بعدها على قيد الحياة، وكان المطر لم يزل ينهمر بجنون دون انقطاع، وسبح المكان في ظلام دامس، فلا نيران ولا أصوات غير صوت المطر، وقد حاول فهمي تصيد بعض الأخبار دون جدوى بسبب سوء الأحوال الجوية من غيوم وبرق ورعد. وتكورنا تحت البطانيات بعد أن توزعنا إلى مجموعات، مستفيدين من أربع بطانيات شبه جافة نغطي بها أنفسنا، وكل مجموعة مسؤولة عن نفسها وعن مصيرها حتى الصباح.

قبيل منتصف الليل تعالت الصيحات ليس بعيداً عنا، وكانت النسوة يبكين بكاء مراً، ورأيت ضوء مصباح يدوي يتجه ناحيتهم، فقال صالح:

- ربما مات أحد

وقالت سميرة منتحبة وهي تحت البطانية مع أطفالها:

- كلنا سنموت عن قريب ارحمنا يا رب

وقال لي عمر:

- ماذا ستفعل أيها الزعيم لو مات الآن أحد أفراد شعبك؟

- سنقوم في الصباح بحفر حفرة وندفنه فيها

وبدأنا نخاف من الموت الذي بدا قريباً منا كثيراً، وأخذت أجسادنا المبتلة تزداد رعشة ويتسلل إليها مزيد من الضعف، ورغم ذلك أشعلت لنفسي سيجارة ورفعت طرف البطانية ليخرج الدخان إلى الخارج، وبعد عدة أنفاس عميقة رميتها بعد أن أدركها الماء فانطفأت.

استمر الحال كذلك حتى الصباح وأخذ كل منا لنفسه غفوة أو أكثر قبل أن تبتل البطانيات كلياً في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي، وكنا نقوم بنفضها كل مرة.

كـان الـبرد أشـد مـن أن يحتمـل. ولم تكـن كـل مجموعـة، مـن تلـك المجاميع التي لا تحصى، تعلم بأخبـار مـا هـو خـارج حـدود مخيمهـا. وفي صباح اليوم التالي خف المطر بشكل ملحوظ، وجلسنا مرة أخرى نحاول الاحتمـاء ببطانيـة واحـدة نتعـاون علـى رفعهـا فـوق رؤوسـنا بعـد أن تم عصرها بشدة لتخليصها من أكبر كمية ممكنة من الماء.

كانـت تـارا جالسة بهـدوء، ووجههـا الـذي بـدأت أحبه يغمـره الحـزن والـضجر، وتحـاول جاهـدة أن تمـسك بـأطراف البطانيـة لحمايـة نفـسها وأطفال أختها، وعندما التقت نظراتنا لم تصمد كثيراً، ولا بد أنني حملت نظرتي أكثر مما يجب ونحن في تلك الظروف التي من المفروض أن تهمل تلـك المـشاعر، وشـعرت أننـا في مخيمنـا نملـك شـيئاً نفيـساً لا يملكـه الآخرون، وأدركت أن تـارا نعمـة وهبهـا الـسماء في تلـك الظـروف الـتي لا يستطيع المرء أن يقدم فيها الـشيء الكثير. وكعادتي أطلقت العنان لخيالي الواسع، ورحت أنسج الأحلام والتمنيات بنقاء لا يرقى إليه الشك.

وكان كلما مر الوقت يزداد الناس سوء وخوفاً، أما أنا فقد كـان يزداد ارتياحي، وأستحسن وجودها، وأراقبها خلسة، وأنظر إلى وجهها، وكانت هـي مـن جانبهـا تفرح لاهتمـامي بهـا ونمـوه الـسريع، دون أن يبـدو عليهـا شيء، بل كانت حريصة على أن تضع انفعالاتها في إطار محايد لا يخرج كثيراً عـن الأدبيـات الـتي نتبادلها في جـو رسمـي صـرف. في ذلـك اليـوم العصيب تسلل إلى تفكيري شعور آخر، وهو عدم الرغبة في أن تتركنا تارا وترحل.

حتى هنـاك، في ذلـك المكـان الجبلـي القاسـي، بعيداً عـن كـل مظـاهر المدينة وكـذبها وزيفهـا وأقنعتهـا المفـضوحة لا يـستطيع المرء أن يحلـق بعيـداً

مع أحلامه الفارغة التي لا بد منها، فقد قال عمر بعد أن لم يعد متحملاً صمتنا:

- إخوان لدي طريفة

فقالت نرمين:

- هل هناك طريفة تثير الضحك أكثر من حالنا؟

فقال عمر:

- حالنا فلم سينمائي

وقال فهمي:

- متى ينتهي هذا الفلم؟

فقال عمر مازحاً:

- لا أنها طريفة جديدة

وقال صالح:

- اسمعنا إياها

فقال عمر:

- إخوان أنا جوعان

ساد بيننا صمت حتى قالت تارا:

- أين هي الطريفة؟

فقال عمر:

- أنا جوعان

فضحكنا جميعاً على أنغام قطرات المطر التي تضرب وجه البطانية وتصدر تلك الأصوات التي تثير أعصابنا وتزيدنا مللاً.

في تلك اللحظات علا صوت النحيب والبكاء شمال مخيمنا، أي باتجاه المنحدر صوب الوادي، فوثبت على أقدامي خارجاً من تحت البطانية. فقال فهمي:

- ما ذا بك؟

- لا أدري يجب أن أتفقد أقرباءنا فالأصوات تأتي من ناحية مخيماتهم

فقال صالح:

- وهل يجب أن تذهب في هذا الطقس المميت؟

- بالطبع يا أخي، فأطفالهم كانوا مرضى أيضاً

وقالت نرمين:

- ما أدراك أن أقرباءنا أصابهم سوء

طلبت من فهمي أن يعيرني قمصلته، ورغم أن الفكرة لم تعجبه حيث قال:

- إننا نموت يا شفان ، وكما ترى نحاول جاهداً أن نقلل من كمية المياه التي نسبح فيها

وأمام تعنتي أضطر إلى خلعها وتبادلنا القمصلات ورحت ناحية مخيمات أولاد أعمامي وعماتي، وبقية أقرباءنا الذين كانوا يفترشون مساحات متجاورة بعضها مع البعض الآخر.

وعندما وصلت هناك، وجدت ابن عمي الأكبر وعائلته الكبيرة العدد جالسين القرفصاء يلفون أجسادهم بالبطانيات بشكل جماعي وهم بحالة يرثى لها من البلل والبرد والجوع، وبعد أن سلمت عليه قلت:

- هل أنتم بخير؟

- الحمد لله، لا زلنا أحياء، وأنتم، كيف هي أحوالكم؟

- حالنا من حال هؤلاء الناس

وبعد أن اطمأن قلبي على أقربائي عدت مسرعاً إلى اخوتي. وفي الطريق وجدت عائلة صغيرة يبكي أفرادها بكاء مراً، وكانت امرأة تحضن كيساً من النايلون وفي داخله جسد طفل رضيع فارق الحياة، وترفض التخلي عنه، وكان فوق رأسها جمهرة من الناس لا يبالون بالمطر وهم في أشد حالات الهلع والخوف والصمت، ويحاول الرجال إقناع الأم لتسلم لهم جثة الطفل المتوفى ليقوموا بدفنه. أرتعد جسدي وأصابته قشعريرة وخوف أيضاً. ورأيت تكرار ذلك المشهد عدة مرات أخرى في طريق عودتي إلى مخيمنا.

عندما عدت إلى أخوتي، جلست تحت البطانية، وقالت نرمين:

- ما هي الأخبار؟

- أقرباءنا بخير

فقالت سميرة:

- وماذا كان سبب ذلك البكاء والصراخ؟

- لقد بدأ الأطفال الرضع وكبار السن يموتون، ولقد حدثت عدة حالات وفاة منذ الليلة الماضية، وعلمت أيضاً أن بعض الدول والجمعيات أرسلت البارحة مساعدات عاجلة، هي عبارة عن مواد إغاثة متنوعة بواسطة الطائرات، إلا أن تلك الحملة لم يكتب لها النجاح بسبب

رداءة الأحوال الجوية، فسرعان ما عادت تلك الطائرات بعد أن أخطأت أهدافها وخافت من السقوط.

ومر ذلك النهار أيضاً، ثم جاء الليل، ونحن لم نزل في داخل ذلك السجن الذي فقدنا فيه أعصابنا وبدأ الخطر يداهمنا، وأقصد تحت البطانيات، ونجلس على تلك الصخور الصلبة، تحت رحمة المطر الذي لم ينقطع ولو للحظة، يقتلنا البرد والجوع والمرض. وزاد عدد الوفيات من الأطفال وبعض المعمرين، وحدثت حالات الإسقاط بالنسبة للنساء الحوامل وفي الشهور المختلفة.

لم تتوقف الحياة بكل مظاهرها وحركتها، انه الزمن الذي يسير إلى الأمام دون راحة. في تلك الليلة وبعد أن هدأت كل حركة حولنا ولم نعد نسمع أصوات الناس . كانت تسليتنا بعض الأحاديث القصيرة والتدخين المستمر وعلى معدة خاوية بالنسبة لي وفهمي وعمر، حتى أن نرمين قالت مرة وبازدراء:

– ألا تكفون عن شرب هذا السم وبطونكم فارغة؟

بعد منتصف تلك الليلة، سمعت وقع أقدام وأصوات قرب مخيمنا، تشق سكون الليل، وأخذت تقترب منا تلك الأصوات، فرفعت جانب البطانية، كان الظلام دامساً، وكان فهمي وعمر يقظين أيضاً، فتوقفنا عن الكلام لنسمع تلك الأصوات بوضوح، ثم ظهر رجلان ومعهما مصباح يدوي، وطلب منا عمر أن نكون على حذر، فكل شيء قد أصبح ممكناً أن يحدث وسط جمعنا غير المتجانس الذي وصل أفراده إلى حافة الانتهاء الجماعي. وقال أحدهما بعد أن سلم بهدوء:

- أرجوكم، نحتاج إلى امرأة خبيرة بشؤون الولادة، فلدينا امرأة حامل على وشك أن تلد

فقلت له:

- نعتذر، فليس بيننا امرأة بتلك المواصفات

شكرانا واعتذرا، ثم انصرفا يبحثان عن قابلة بين الجموع التي اختبأت تحت الأغطية المبتلة. لم يكلف أحد منا مجرد التحرك من مكانه، حيث تحول المطر تلك الأيام إلى وحش مخيف.

وأذكر أن تارا قالت:

- ألم يكن بوسعها الانتظار لحين توقف الأمطار؟، ستموت هي ووليدها حتماً في هذه الظروف التي باتت تشكل خطراً على أقوى الناس فينا.

مضى الليل بطيئاً، ونحن في جوف الظلام ووسط ذلك السكون المخيف إلا من صوت المطر والبرق، وبعض الأصوات المتقطعة الأخرى التي كانت تأتينا من مسافات متباينة بسبب حالات الوفيات التي أخذت تزداد مع الوقت واستمرار تلك الظروف الجوية السيئة.

وسمعنا أن حملة الإغاثة الجوية فشلت لليوم الثاني على التوالي في العثور والوصول إلى أهدافها بسبب الغيوم الكثيفة والرياح والأمطار الغزيرة. وكان يحدونا الأمل أن أحوالنا ستتحسن، وربما تصلنا مواد غذائية عاجلة بمجرد أن يتوقف المطر، لذلك فقد كرهنا المطر ذلك اليوم أشد الكره.

في تلك الليلة، تذكرنا أنا وأخوتي وأختي الوالدين وثلاثة أخوة آخرين بعيدين عن ساحة مأساتنا حيث كانوا يقيمون في مدن أخرى جنوب مدينة دهوك.

انقضت آخر ليلة من ليالي جهنم كما أسماها بعض الشباب، وقصدوا بذلك كل تلك الليالي التي كان المطر يداهمنا فيها، حيث أن الأمطار التي هطلت بعد ذلك لم تكن غير قطرات لم تبلل وجه الأرض. وجاء اليوم التالي لآخر ليلة قضيناها تحت رحمة مطر غزير، وتغيرت أشياء كثيرة نحو الأحسن، فيما اتجهت بعض الأمور الأخرى بالاتجاه المعاكس. وأول المكتسبات كان توقف المطر نهائياً، ويعني ذلك الخروج إلى العراء، حيث الحرية والحركة والالتقاء بالناس، وجعلهم ذلك أن يزحفوا إلى مناطق أعمق داخل العراق للبحث عن أرض أقل بللاً ورطوبة. وثاني الخطوات كان وصول بعض اللوريات والتراكتورات التي تسحب وراءها صناديق حديدية، وهي محملة بالصمون والبسكويت ومواد أخرى، ولكن الذين حصلوا على شيء من أول قافلة للمساعدات لا يستحق الذكر، إذ بمجرد وصولها هب الناس لاستقبالها من مسافة بعيدة، وظلوا يركضون أمامها وورائها وعلى جوانبها على شكل مجاميع من الشباب، وهجموا على تلك المواد وسرقوها ومزقوها وهي لم تنزل على ظهر السيارات، وبسبب الجوع الشديد لم يستطع أفراد الشرطة أو نداءات بعض المعتدلين من جمعنا على أن تلزم الناس جانب الهدوء ليتم توزيعها لتشمل أكبر مجموعة من الناس. كانت كما قال أحد المعمرين، نقطة في بحر.

توافد مئات آخرين من المهاجرين إلى (چەلێ)، أولئك الذين تخلوا عن فكرة التوجه نحو الحدود الإيرانية، لبعد المسافة، عادوا من مدن العمادية وديرەلوك وما جاورها من المناطق، وكانوا أسوأ منا حالاً في كل شيء، فقد أمضى قسم منهم أكثر من عشرة أيام في العراء، أما تلك الأمور الأخرى التي أضرت بنا كثيراً، هو استفحال الإسهال والديزانتري بيننا على شكل وباء، مع تباين حالات الإصابة وشدتها. وكان الموت يحصد الأطفال الرضع والصغار والمعمرين والمعمرات من جمع المهاجرين.

بعد خروج الشمس هب الناس ليقضوا على الغطاء النباتي لقلعه وتقطيعه بكل الوسائل لجمع الحطب، وإشعال النيران التي أدخلت إلى أجسادنا الدفء بعد أيام طويلة كانت خلالها تسبح فيها أجسادنا وملابسنا في مياه المطر. وقمنا نحن أيضاً بتغيير مكاننا، وجرى الاتفاق على اختيار بقعة مستوية جافة نسبياً، وأنتشر أفراد المجموعة عدى سميرة وأطفالها لجمع الحطب، وفي وقت قصير جمعنا كمية وافرة من الحطب ولم تكن غير قطع أغصان رفيعة وبعض القطع من جذوع أشجار هرمة وغيرها. وكانت مشكلتنا مثل الآخرين هو أن كل شيء حولنا رطب تماماً، لذلك جمعنا أيضاً كمية معقولة من العشب اليابس لوضعها أولاً في الحفرة التي حفرناها كموقد ثم وضعنا فوقه الأغصان الرفيعة ثم الأسمك وفي الأخير الأجزاء الخشبية الغليظة، وبعد جهود جادة وصبر انتشرت النار في الحطب، وعظمت النار تدريجياً بعد أن امتلأت عيوننا بالدخان، وكنت أنا وصالح وتارا من قاموا بترتيب الحطب وإشعال النار.

وأثبتت تارا من جديد كفاءة عالية في العمل وتعاوناً جاداً، كنا خلالها نتبادل النظرات العميقة الصامتة، وكانت تحاول أن تزج برأيها في

ترتيب الحطب وقد طرحت الكثير من يأسها وأخذ وجهها الجميل يتورد بفعل الحرارة وقد ربطت شعرها من خلف الرقبة.

وعندما غادرنا صالح إلى حيث يقف بقية اخوتي وأختي بناء على طلب عمر بقينا لوحدنا على بعد خطوات منهم. وكانت سميرة قد أخذت طفليها لتتمشى قليلاً بين الناس. وأذكر أنني نظرت إلى وجهها بعمق وحملت نظرتي الشوق إلى كل الأشياء التي فقدتها في حياتي وكانت السبب في رسم ملامح الصمت والتأمل على وجهي، وقلت لها:

- كيف أنت الآن يا تارا؟

فقالت باستحياء:

- الآن أفضل، لأننا تخلصنا من المطر والبرد، ونستطيع التمتع بالدفء والمشي ومشاهدة الناس والتمتع بمناظر الطبيعة الجميلة.

- أحسنت القول يا تارا، ان ذلك ما أفكر به أنا نفسي

- وبزوال الأمطار ستصلنا المساعدات بشكل أسرع وأوفر كمية.

وعندما رفعت وجهها الجميل التقت عيوننا وراحت تحاور بعضها البعض، وفرحت كثيراً وكادت عواطفي تتفجر وتستسلم لألوان عينيها، لوسعهما، لضحكهما، لعمقهما، وكنت على وشك أن أرفع راية بيضاء لحلوة الجبل (كما أسميتها فيما بعد)، لولا أن تداركت أمري في اللحظة الأخيرة وأمسكت بوقاري واتزاني، ثم قلت لها:

- هل تعرفين معنى أسمك؟

فقالت:

- نعم

- إذا كيف صادف أن اختاروا لك اسماً كردياً؟

- لا أدري بالضبط، لقد اختاره لي أبي رحمه الله

- وكيف بقيت فتاة جميلة وذكية مثلك من غير زواج لحد الآن؟.... لا بد أن شبابكم المسيحيين فقدوا معايير الذوق وحسن الاختيار

- انهم فعلاً يركضون وراء المال وأنوفهم عالية، ثم يتزوجون أسوأ النساء. لا أدري، ربما الزواج كما يقولون قسمة ونصيب

- لا أظن ذلك، انه اختيار، ويجب أن يكون واعياً وخاضعاً لمعايير دقيقة، ولكن أغلب الناس يخطئون الاختيار

- وكيف يحدث ذلك برأيك؟

- السبب الأول هو وهم الحب الذي يبدو للناس كبريق ساطع يعمي البصيرة والموازين والمقارنات المنطقية والعملية، وصعوبة التمييز والفصل بين دوافع الرغبة واكتشاف النفس البشرية.

- وما هو السبب الثاني؟

- الخضوع للمصالح وتفضيل الظواهر على السلوك ومنهج التفكير والوقوف بشكل صادق على تحديد نقاط الالتقاء التي يجب أن تتحول بفعل العشرة إلى موسيقى هادئة ذات أنغام تحاور الوجدان وتنسجم مع الحياة والطبيعة.

- ولماذا يخطئ الناس؟، ويكتشفون بعد الزواج بمدة قصيرة أن تلك العواطف الجياشة لم تكن غير وهم وخيال؟

- أظن بسبب زيف العلاقات الاجتماعية والجهل وقلة الخبرة بسبب عدم الاختلاط السليم والطبيعي، وعدم انسجام المجتمع، فالكل مقنع، ويجيد الكذب وفن إخفاء العيوب، وذلك يعود إلى أسباب كثيرة، من عادات موروثة وخضوع الكل إلى أفكار لا تتناسب مع تطلعات العصر.

كانت تنصت إلى كلامي باهتمام بالغ، واستحسان واضح، ثم قالت:

- وأنت يا أستاذ شفان ، لماذا لم تتزوج لحد الآن؟

- هل أستطيع أن أطلب منك معروفاً

- بالتأكيد يا أستاذ، قالتها وهي تبتسم بشفتيها وعينيها

- أرجو أن تناديني منذ هذه اللحظة باسمي المجرد، هل هذا ممكن؟

فابتسمت وقالت:

- حسناً إن كانت تلك رغبتك

فقلت لها:

- لقد سرقتنا السنين منذ الحرب العراقية الإيرانية الطويلة، وقبلها كان جل اهتمامي بأمور أخرى

- هل كانت تلك الأسباب هي الوحيدة التي جعلتك تبقى عازباً لحد الآن؟

- أظن أن الزواج في كل الأحوال قرار آني يأتي لأسباب عديدة، وأعتقد أن عدم التقائي بامرأة تحمل كل المواصفات التي أريدها أن تتوفر في الفتاة التي سأرتبط بها كان عنصراً هاماً.

- وما هي الأوصاف المطلوبة؟

وتمنيت أن أقول لها أن أكثر الأوصاف التي بحثت عنها طويلاً أجدها في وجهك ونفسك، غير أنني تمالكت نفسي مرة أخرى، وقلت لها:

- في الحقيقة إنها كثيرة، ولا يمكن أن تتوفر كلها في جسد واحد، منها الثقافة وعناصر الجمال وروح العصر

في تلك الأثناء قدم الآخرون وانقطع حديثنا، وتحلق اخوتي ونرمين حول النار ثم جاءت سميرة وبدأنا بنشر البطانيات على أوتاد خشبية بشكل عمودي أمام النار، وكذلك القمصلات وقطع ملابس أخرى؛ لكي تجف لمقاومة البرد وبخاصة في الليل.

كان عمر وفهمي ونرمين يتبادلون نظرات كثيرة وهم يتسمون، وكنت أفهم سبب تلك الهمسات، وبالطبع لم يكن من مصلحتي أن أسألهم عن سبب ذلك. المهم كان منظري ومعنوياتي العالية مبعث فرح لهم، وسرني ذلك كثيراً.

وبعد أن تسلل الدفء إلى أجسادنا، توقفنا عن الارتعاش ولم تعد أسناننا تصطك ببعضها، فبرز الشعور بالجوع بشكل لا يقاوم.

بعد الظهر من ذلك اليوم وصلت عدة سيارات محملة بالمواد الغذائية، فطلبت من قواتنا الخاصة(وأقصد فهمي وعمر) التوجه نحوها لعلهم يفلحون في الحصول على شيء، وفعلاً ركض الاثنان، ولكن تلك السيارات غابت في أحشاء ذلك الجمع الغفير الهائج، وفي وقت قصير تركت تلك السيارات فارغة، وتمزقت معظم الأكياس. وكان ذلك اليوم يوم الأقوياء والمغامرين، فقد حمل البعض منهم كيساً كاملاً على ظهره، وتحلق حوله اثنان أو ثلاثة رجال لحمايته، ويحاول البعض الآخر ممن لم

يحصلوا على شيء أن يهجم على تلك الأكياس التي يحاول أصحابها جاهدين لنقلها إلى مخيماتهم بسلام، وقد أفلح البعض في تمزيق بعض الأكياس وهي محمولة من قبل أصحابها بواسطة آلات حادة وتناثر ما كان بداخلها من الصمون، وهجم عليها الناس بالعشرات وعادت الجماعة الأصلية صفر اليدين، وكانت بعض الأكياس الأخرى قد تمزقت بين أيدي فئات تتصارع للحصول عليها، وحدثت حالات دهس للأطفال ووقوع جرحى من جراء التزاحم والتصادم وبعض المعارك الصغيرة. وقفت على صخرة عالية مع نرمين وصالح وتارا التي كانت تحاول أن تظهر أمامي بأفضل صورة نراقب ذلك المشهد المؤلم، كان صراعاً مشروعاً من أجل البقاء وعلى طريقة عصر الغاب.

وبعد وقت قصير عاد فرساننا من أرض المعركة صفر اليدين، ولم يستغرب أحد منا، لأن كمية الطعام الذي وصل إلينا كان شيئاً لا يستحق الذكر قياساً إلى عددنا الهائل والى حالة الجوع الشديدة التي عشناها لأيام عديدة. وبعد أن أنضم فهمي وعمر إلينا عدنا إلى أرض المخيم، وكان مظهرهما يدعو للضحك والألم والشفقة، من التعب والجهد الذي بذلاه في ساحة المعركة! وبمعدة فارغة تماماً ومنذ أيام. ثم بدأ الوضع يستقر، وهمدت تلك الحركة على شكل أمواج بشرية ، نسيت كل شيء في سبيل الحصول على رغيف خبز واحد، وانتهى ذلك الصراع الذي لم يكن ليخطر ببال أحد منا أن يشاهده طول عمره.

بعد ذلك بدأ الفصل التالي، حيث انتشر الأطفال يجوبون التجمعات لاستجداء الطعام، ولم يقتصر ذلك العمل على الأطفال فحسب بل شاهدنا رجالاً ونساء لم يجدوا حرجاً في طلب الطعام لإسكات جوع أطفالهم على الأقل من الذين أسعفهم الحظ أو بسبب من أجسامهم

القوية في الحصول على الطعام. وفي مخيمنا وقف فهمي وسطنا مرفوع الرأس، يحاول كتمان ضحكة وسط تألمنا وخيبة أملنا في الحصول على شيء من الطعام، وبدلاً من أن يخطب فينا، كما دل مظهره، مد يده إلى سحاب قمصلته وأنزلها فسقطت سبع صمونات وسط دهشتنا، وفرحنا جميعاً كالأطفال، ولاحظت ذلك التغير الهائل مرسوماً على وجه نرمين وتارا وصالح والأطفال، وقال فهمي بصوت عال وبحركة مسرحية يتقنها جيداً:

- كلوا الطعام يا جياع الشعب، واطلبوا من الله أن يحفظ قواتكم المسلحة!

تم توزيع الطعام، ورغم قلته أعاد إلينا الأمل في مواصلة الحياة، وارتفعت معنوياتنا، بحيث عدنا بعد أن فرغنا من تناوله إلى ممارسة المزاح وتبادل الأحاديث المختلفة.

وبدأ الناس بالانتشار هنا وهناك لاستكشاف المكان، والترويح عن النفس وتبادل الزيارات، وجمع الحطب وتحسين مخيماتهم، فقد ارتفعت عدة غرف أو لا أدري ماذا أسميها، فقد كانت غرف مبنية من أعواد الخشب والبطانيات وأغطية أخرى، بهدف التستر والاستعداد لأية موجة أخرى من الأمطار. ولاحظنا ولأول مرة أولى مظاهر الربيع من الحشيش الأخضر الذي نبت في بعض المناطق. ولاحظت تارا جالسة على بعد خطوات منا وقد مدت ساقيها وأخرجت من حقيبتها اليدوية مرآة دائرية صغيرة، ذات إطار بلون الحشيش، وفيما بعد رأيتها عن قرب، وكان ظهرها قهوائياً داكناً يحمل رسوماً لثلاث سمكات إحداها كبيرة ومسطحة

في الوسط، واثنتان طويلتان على جانبيها، وكانت المرآة نفسها قديمة فيها الكثير من النقاط الداكنة.

وفي تلك اللحظات التي يشعر فيها المرء بالأمان ويتجاوز بسلام أزمة ما، يعود تفكيره إلى أيام أجمل من واقعه أو قد يحلم بحياة أفضل، وأظن أن أغلب الناس في (چەلێ) ذلك اليوم، كانوا قلقين كثيراً على بيوتهم وما فيها من أمتعة وأثاث وكل ما يملكون من محلات ومرافق تجارية وبضاعة، وعلى السيارات التي تركوها في كانىماسێ تحت رحمة السماء، والتي تعرضت إلى أكبر حملة عبث ونهب وتفكيك أجزاء من قبل البعض من أفراد مجامعنا المهاجرة التي كانت تتسلل إلى تلك السيارات وتأخذ منها كل ما يمكن أخذه ونقله لبيعه إلى الأتراك لقاء الحصول على المال.

والسبب الثاني قلقنا الجماعي على مستقبلنا المجهول، فبعد (چەلێ) أين يمكن أن تكون المحطة التالية؟، هل سينقلوننا إلى مخيمات دائمة كما حدث للذين هربوا من الموت في عمليات الأنفال عام 1988 والذين لا زالوا هناك؟، والنقطة الأخرى التي كانت تشغل تفكيرنا، هل سيبقى حالنا على ما هو عليه إذا قدر لنا أن نبقى هناك مدة طويلة؟ أم ستصلنا مساعدات جادة ووافرة وشاملة، تحمينا من الجوع والأمراض، وكنت أسمع تلك الأحاديث هنا وهناك عندما قمنا أنا وتارا ونرمين بجولة قصيرة، بعد أن تأبطت ذراعي وطلبت مني ذلك ثم قالت لتارا التي كانت لم تزل تتفحص أسنانها:

- تارا، تارا هل تنضمين إلينا؟

- إلى أين؟

- نتمشى قليلاً مع الرئيس ما رأيك؟

فقالت:

– حسناً انتظراني

ورتبت حاجاتها وانضمت إلينا. توقفت فجأة وناديت فهمي وعمر، فلما حضرا قلت لهما:

– تفقدا حالة المخيم والحطب، وتدبرا أمر ما قد يلزمنا من الخشب وترتيب المخيم استعداداً لليل

فقال عمر مازحاً:

– هل انقسمنا إلى قيادة وشغيلة؟

وقال فهمي مازحاً أيضاً:

– هل من العدل أن ينفرد الرئيس بفتاتين جميلتين ونقوم نحن بكل الأعمال؟

ضحكنا ونحن نبتعد عن جماعتنا، نرمين إلى يميني وبعد تردد أصبحت تارا الى يساري، ولأول مرة شعرت بها وتفحصتها عن قرب ولأطول فترة، وشعرت بقلبي يخفق ثم أخذ يرقص، وأنا أحاول السيطرة على انفعالاتي، وكانت فرحة غامرة في تلك اللحظات ونحن نتكلم عن الأمس وحاضرنا ومستقبلنا ومواضيع عامة أخرى وفي شتى المجالات، وكانت نرمين تتكلم عني وعن حياتي وبعض المهارات التي أتقنها، أما أنا فكنت أفكر لحظتها بذلك الشاب المسيحي(صباح) لئلا نمر بمخيمهم ويعود لينفرد بها، ويشبعها من تلك النظرات النهمة بعينيه الجاحظتين، ويغيظني بهدوء. وبقدر ما كنت في حالة ممتازة بدأت أفكر بالفراق الذي لا بد منه. ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث، بل اقترحت تارا علينا أن نتوغل قدر

الإمكان بعيداً عن المخيمات للبحث عن بعض الأخشاب التي يمكن قلعها وجمعها لاستعمالها كحطب، وكذلك عدة أغصان طويلة لاستعمالها في إنشاء سقف إذا دعت الحاجة إلى ذلك. وافقتها نرمين وكذلك أنا على مقترحها أيضاً مع سرور واضح.

إستمرت تلك الجولة ساعة من الزمن، تكلمنا كثيراً، وكانت تحسن الإصغاء باهتمام، وتتكلم قليلاً، وكنت كلما تلتقي عيوننا أحاول النفاذ إلى نفسها المجهولة من خلال عينيها. وقالت نرمين بعد أن لاحظت انسجامنا بوضوح:

– شفان ما رأيك بتارا؟

لم أجبها على الفور ثم قلت بتردد:

– ماذا تعنين؟

– أقصد ما رأيك بشخصيتها، بها كفتاة

– لقد عرفناها من مدة قصيرة يصعب معها الحكم عليها

فقالت مازحة:

– هيا يا شفان تخل في هذه البرية عن المثاليات، وقل رأيك، هل من المعقول أن يعجز من بخبرتك عن تحديد بعض المعالم الشخصية في عشرة أيام؟

وكانت تارا مطرقة الرأس لحظتها وقد استنفرت سمعها لما سأقوله في حقها. وأخيراً قلت:

– إنها فتاة هادئة كثيراً وصامتة، وغامضة، وان هدوئها يحمل في داخله حب الذات والمزاجية، قليلة الخبرة والثقافة، ذكية وطباخة جيدة، تحب أسرتها وكفى. أليس كذلك يا تارا؟

فأحمر وجهها الجميل واتسعت حدقتاها، وابتسمت ثم قالت:

– لا أدري يا أستاذ

فقالت نرمين:

– هيا أيها الرئيس لم أقصد تلك الصفات كلها

– ما ذا قصدت إذاً؟

– مثلاً شعرها، وجهها، قوامها...الخ

– حسناً إن كان لا بد من ذلك، أود القول أن الشباب من المسيحيين الذين عرفوها لا بد أنهم يفتقرون إلى الذوق والإحساس والبصيرة، أظن أنها ربة بيت ممتازة ورفيقة على قدر واف من الإخلاص وتقدير العشرة.

فألتفتت نرمين إلى تارا قائلة:

– هو دائماً هكذا، إنسان جدي ومتشعب وصارم في رأيه

فابتسمت تارا، ثم عادت نرمين وقالت لتارا:

– ما رأيك أنت بنا جميعاً؟

فقالت بتردد واضح:

– أنتم عائلة متماسكة وطيبة، وعلى قدر كبير من الثقافة والخبرة والذكاء وقوة الشخصية

فقالت نرمين:

- من من أخوتي حاز على إعجابك أكثر؟

فلما ترددت تارا في الأجابة عادت وقالت لها:

- أقصد بصورة عامة

فقالت:

- لا أدري لقد أبديت رأي

فقلت لنرمين:

- دعيها وشأنها كفاك أسئلة

وجمعنا بعض الحطب والعيدان الطويلة وعدنا إلى المخيم من جديد.

في ذلك اليوم الذي أطلقت الأمطار سراحنا بشكل جماعي من سجنها الذي كاد أن يقضي علينا لو أستمر لعدة أيام أخرى. كذلك مات الطفل الذي ولد مع تباشير الصباح، ولفه والده وأقاربه بقماش أبيض ووضعوه في حفرة صغيرة حفرت بإنتظام وعمق قارب المتر الواحد ثم أهيل عليه التراب، والأصح الطين (لأن الأرض كانت مشبعة بالماء بسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت دون انقطاع) على جسده الصغير والبريء كل البراءة، وبكته أمه رغم كل شيء، بل ودفن بعد إجراء كافة المراسيم الدينية اللازمة.

وتم ذلك المساء دفن جثمان عدة أطفال آخرين ورجل عجوز، رحلوا عنا وهم يرفضون الظلم والاستغلال والتشرد.

في ذلك اليوم أيضاً أيقنت أن صحبة تارا ممتعة للغاية، وإنها بدأت تشغل تفكيري، فاحترمتها وبدأت أهتم بها بشكل غير اعتيادي. وفي

مساء ذلك اليوم انسحبت الغيوم عن بعض أجزاء السماء فظهر لونه الأزرق الصافي الذي يبعث الراحة فينا، ويثير مواطن الخيال لدينا. وقبل المغرب من ذلك اليوم أيضاً وصلت قافلة أخرى من المواد الغذائية، وتكرر المشهد السابق بتفاصيله وبشكل أعنف، واستطاع فهمي وعمر الحصول على إحدى عشرة صمونة لينة نسبياً دون أن يلحق بهما أي ضرر، فكرمناهما بأن منح كل واحد منهم نصف صمونة إضافية. وارتفعت معنوياتنا، فقد دخل جوف كل واحد منا أكثر من صمونة ونصف خلال نصف نهار، رغم أن ذلك زاد من شهيتنا للطعام.

في ذلك اليوم أيضاً زارتنا عمتي الصغيرة بمعية زوجها وابن عمي الكبير، وجلسوا معنا نصف ساعة، وكانت عمتنا تشكي هي الأخرى من صحتها، فقد بدت لنا ضئيلة الجسم، شاحبة الوجه. وكان ابن عمي قد جلس قربي هادئاً كعادته، قوياً وخجولاً، ورغم أنه يكبرني بعدة سنوات، إلا أننا كنا دائماً نحب بعضنا وتمتد صداقتنا إلى أيام الطفولة منذ أن ولدنا ونشأنا معاً في قصر جدي الكبير الذي تم إنشاؤه بالأحجار الكلسية البيضاء وبطابقين، وكعادته حريصاً على راحتنا قال:

- هل أنتم بخير يا شفان ؟

- الحمد لله

- هل حصلتم على بعض الطعام؟

- نعم ، بضع صمونات

- نحن أيضاً

ثم قال لنرمين:

- وأنت كيف أحوالك؟ لم أكن أتصور أن تصمدي وسط تلك الظروف التي مرت بنا.

فقالت نرمين:

- الحمد لله، وأتمنى أن لا تعود تلك الليالي الممطرة والباردة جداً

وقال زوج عمتي:

- إذا توقفت الأمطار، وارتفعت درجات الحرارة، ستبرز مشكلة الحصول على الماء، فالمياه المتوفرة هنا لن تلبي حاجة هذا الجمع الغفير.

فقال صالح:

- علينا أن نحاول تنظيم بعض الأمور، إذا قدر لنا أن نمكث هنا مدة طويلة

وقال فهمي:

- إننا بحاجة إلى تنظيم ومسؤولين للسيطرة على المعونات وتوزيعها بشكل عادل، فقد رأينا ما حصل مع القوافل التي وصلت اليوم، وسيموت الضعفاء من الجوع، لعدم استطاعتهم خوض ذلك الصراع الضروس من أجل الحصول على الطعام.

فقال عمر معلقاً:

- لن ينفع معنا أي شيء، فنصفنا جاهل، والباقي قد حوله الجوع إلى وحش جائع، يجن جنونه بمجرد أن يرى الطعام

وقالت عمتي:

- ماذا سمعتم، هل سنبقى هنا طويلاً؟

فقلت:

- لا أعتقد أن أحداً هنا يعرف الإجابة الصحيحة، وبضمنهم أفراد القوات المسلحة التركية

ثم همس ابن عمي في أذني:

- من هذه العائلة التي معكم؟

- انهم أقرباء أحد أصدقاء فهمي من (مانگيّش)، وقد طلب منا الاعتناء بهم

ثم غادر زوارنا المخيم وطلبوا منا أن نتصل بهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك، فشكرناهم فانصرفوا.

جاء الليل، وأوقدنا النار كما فعل كل مخيم على ذلك المنحدر الذي دخل التأريخ، فكان مرة أخرى منظراً فريداً من نوعه، حيث ألوف النيران كانت تتصاعد ألسنتها إلى السماء، فامتلأ المكان بالحرارة والضوء، وكان التنقل بين المخيمات والتحرك هنا وهناك بعيداً عن المخيمات أيضاً سهلاً، وتحلق الناس حول النيران يرتبون أماكن النوم، وتجفيف الملابس والأغطية ، وكان البعض قد استولى على كمية كبيرة من الطعام، فجلسوا لتناول طعام العشاء، وكان فهمي قد ملأ الوعاء البلاستيكي بالماء من العين الوحيدة قرب الوادي الكبير، بالتدافع مع الناس الذين يصعب طرح مفاهيم النظام والعدل والصبر عليهم.

جلسنا قرب النار، وطلبت مني سميرة أن أتفقد الطفلين، فقد كانت قلقة على أحوال يوخنا الصغير الذي كان مضطجعاً على ظهره أكثر

الأوقات، وكانت تارا جالسة قربه تمسح جبهته براحة يدها بحنان، وقالت:

– أظن أن حرارته مرتفعة قليلاً

وعندما تفحصته، قلت لها:

– نعم قليلاً، لا تقلقي، ليس في وسعنا عمل شيء غير الانتظار لعلهم يسمحون للمرضى بالذهاب إلى(چـــهلى) أو وصول الفرق الصحية، علينا أن نسقيه الماء، لأنه يفقد سوائل كثيرة.

كانت ظروفنا الصحية سيئة، ورائحة أجسادنا التي مضى عليها قرابة أسبوعين دون استحمام، وكان بعض الناس الذين التقينا بهم تفوح منهم رائحة كريهة نتيجة الإهمال بسبب الظروف القاسية وقلة الماء أصلاً.

وكانت تارا تلك الليلة وعلى ضوء النار في حالة ممتازة، فقد غسلت وجهها وسرحت شعرها الجميل، ورتبت ملابسها وتلون وجهها بلون أحمر من جراء انعكاس ضوء النار المشتعلة قربنا، وكنا جميعاً قد اتفقنا أن نغسل أرجلنا وجواربنا.

وقلت لتارا:

– كيف حالة گورگيس؟

– انه أفضل حالاً

نمنا تلك الليلة دون إنشاء سقف بناء على طلب الأكثرية فقد كان الجو لا ينذر بسقوط الأمطار، ورغم ذلك فقد وضعنا الأعواد الخشبية والحبال للطوارئ. وعدنا إلى الترتيب السابق؛ بطانيتان فرشتا بشكل عرضي جنباً إلى جنب، وفي أحد الأطراف تبدأ سميرة ثم طفلاها فتارا

ونرمين وعمر وصالح وفهمي وأنا على الطرف الآخر، واستعملنا ثلاث بطانيات كغطاء، اثنتان للنساء والأطفال وواحدة لبقية الأربعة، وامتدت سهرتنا وكذلك فعل معظم الناس إلى قرابة منتصف الليل.

ازدادت تلك الليلة أخبار كارثتنا المفجعة لتشمل أرجاء المعمورة، وتصدرت نشرات الأخبار، بشكل يبدو فيه وكأن مأساة هذا الشعب الذي لم يرحمه ولم ينصفه أحد على مر التأريخ الطويل قديماً وحديثاً قد بدأت بترك تأثير ايجابي يعطي الامل بنتائج تصب في مصلحتنا.

في صباح اليوم التالي استيقظنا على أصوات الناس من حولنا وحركتهم، فقد وصلت قافلة المواد الغذائية، وهرع الناس لعلهم يحصلون على شيء من الطعام، وكان فهمي وعمر يركضان مع الناس إلى أسفل المنحدر حيث وقفت عدة سيارات، ورغم أن الجنود الاتراك منعوا الناس من الصعود على ظهر السيارات هذه المرة، وكانوا يرمون أكياس الصمون والمواد الأخرى على ذلك الحشد الهائج من الناس الذين أحاطوا بالسيارات بشكل حلقات متداخلة في كل الاتجاهات لتصيب أكبر عدد من الناس، غير أن ذلك الأجراء لم يكن صحيحاً أيضاً، فقد حصل على الطعام من كان قوياً يدفع الناس ويحاول المستحيل للاستيلاء على أكبر كمية ممكنة من الطعام، أولئك الذين أسماهم عمر(بتجمع أهل العضلات القوية)، كان المشهد بائساً وبقي الناس بدون طعام غير فئة قليلة، والسبب الرئيسي هو شحة الكمية مقارنة بعددنا الهائل، فمئات اللوريات لم تكن لتسد جوعنا ذلك اليوم. وعندما انتهت تلك المعركة وعاد فارسانا دون أن يحصلا على شيء رغم اللكمات والضربات التي تلقياها أثناء الصراع. وكان فهمي متألماً من جراء سقوط أحد الأطفال

تحت أقدام الناس، ويعتقد أن جمجمته قد تهشمت!، ولا يعرف شيئاً عن مصيره.

وقالت لهما نرمين:

- لا بأس عليكما، لا تقلقا، سيكون بمقدورنا تحمل الجوع

وقالت لهما تارا:

- ما الأخبار؟

فقال عمر:

- سمعنا أنه سيسمح لبعض المرضى بالتوجه إلى مركز القضاء(چەلى)

فقالت نرمين:

- سوف أذهب أنا مدعية المرض

فقلت لها:

- لماذا؟

- يجب أن أستحم، فلم أعد أطيق جسدي

- أين تستحمين؟

- سأطرق باب أحدى الدور، انهم أكراد مثلنا ولا بد أن في قلوبهم رحمة، وربما هناك حمامات عامة للنساء، من يدري؟

وطلبت سميرة أن تذهب معها، وكذلك فعلت تارا.

فقال فهمي:

- لا نستطيع الموافقة على هذا الطلب

فقالت نرمين:

- ماذا تقول أنت يا شفان ؟

- حسناً سأذهب معكن إلى النقطة التركية لأستطلع الوضع، وربما أوافق هناك

وهكذا ذهبنا نحن الأربعة، ووجدنا أن الأتراك يسمحون لبعض المرضى بالذهاب، وحاولت أن أشرح لهم بما أعرفه من الكلمات التركية بأن سميرة مريضة للغاية، ولا تستطيع السير وحدها ويجب أن ترافقها أختاها، وكنا قد دربنا سميرة لتجيد دور المريضة، من تلقينها لبعض التأوهات، ورتبنا هيئتها لتخدم الدور، وفي الأخير وافق الضابط التركي قائلاً وباللغة التركية:

- حسناً النساء فقط، أما أنت فعد إلى المخيم

وعدت إلى اخوتي والأطفال، كان الجو مشمساً أكثر الأحيان، والبرد معتدلاً يمكن احتماله. وامتلأ المكان بالحركة من غير هدف ، وتزاحم الناس على الماء.

في المخيم عاتبني عمر بقوله:

- كان عليك أن لا توافق على ذهابهن لوحدهن

- لا تخشى شيئاً، لقد ذهب العشرات، وقسم منهم نعرفهم، وسيكونون معاً في الذهاب والعودة. ثم أن مسألة الاستحمام أصبحت مشكلة كبيرة وخطيرة بالنسبة للجميع.

جلست مع أخوتي ندخن السجائر التي هي الأخرى أصبحت على وشك النفاذ، لم يكن أحد منا يرغب في الكلام، حتى أن فهمي عاد

وإستلقى على ظهره، وأظنه تمنى تلك اللحظة أن تهبط عليه عدة صحف قديمة ليقرأها سطراً سطراً ولمرات قضاء للوقت كعادته عندما يلجأ إلى الصمت كلياً.

أما أنا فقد مشيت إلى مرتفع قريب وأخذت أتطلع إلى الطبيعة التي أحبها وإلى الجبال التي أعشقها من حولنا وعلى امتداد البصر، ولأول مرة شعرت بالوحدة وإكتشفت أن ذلك يعود إلى غياب تارا، فاحترت بين أن أنبذ تلك الفكرة وبين أن أطلق العنان لمشاعري، وسألت نفسي أيمكن لمثل تلك المشاعر النبيلة أن تجد لها مكاناً وسط تلك الظروف غير الطبيعية حيث يتعرض الإنسان إلى أبشع أنواع الحرمان والضغط النفسي دون أن يرتكب ذنباً؟ وكعادتي أنحاز عقلي إلى الاحتمال الثاني، فذلك يتناسب مع أخلاقياتي واتجاهاتي الفكرية، فقد اعتدت أن أختار ما تمليه علي نفسي وما يرضاه ضميري قدر المستطاع دون أن أكترث لرأي الأكثرية، لأن مسألة إرضاء الناس فكرة عقيمة وتشد الإنسان إلى الوراء وتجعل تقدمه بطيئا، وبالتالي فأن ما ينجزه ويحققه ويبدعه يصبح شيئاً ليس له شأن؛ لذلك فقد اشتقت إلى تارا بمجرد غيابها عني وأدركت أن وجودها أصبح ضرورياً بالنسبة لي، ويخفف عني كل ما كنا فيه دون الناس.

قرب مخيمنا كانت أسرة صغيرة تتكون من أب شاب وزوجة وثلاثة أطفال وأخت شابة تدعى فاطمة، وكانت تربطنا بتلك الأسرة صلة قرابة من بعيد، وكانت بقعة الأرض التي تم اختيارها لتكون مخيماً لهم تبعد عنا عدة أمتار فقط، وكنا نسلم على بعضنا ونسأل عن أحوال بعضنا البعض بشكل رسمي، وكانت فاطمة متوسطة الجمال، وعلمت من عمر الذي

كان يبدي إعجابه بها على سبيل المزاح، إنها من حملة شهادة البكالوريا العامة، وموظفة في دائرة البريد، أما أخوها فكان معلماً في إحدى الاحياء الشعبية في مدينة دهوك.

بالرغم من تحسن الأحوال الجوية فقد زادت نسبة المصابين بالأمراض، وتدهورت صحة الضعفاء من الناس وبخاصة الطاعنين في السن والمصابين بأمراض القلب والسكري وارتفاع ضغط الدم، وزاد عدد الوفيات أيضاً.

كانت الحياة هناك سجناً مفتوحاً، فليس هناك عمل منتظم نؤديه، ولا مواد غذائية لنتسلى ونقضي الوقت بأعداد الطعام، ولم نكن في حالة نفسية مقبولة لنجتمع ونمارس بعض الألعاب، إضافة إلى أننا لم نكن نعرف شيئاً عن وجودنا في ذلك الوادي والسفوح في العراء، ورغم أن الأمطار قد توقفت إلا أن البرد لم يزل شديداً في الليل وفي الصباح. في ذلك اليوم أشرقت الشمس ونعمنا بالضوء والحرارة نسبياً. وكنا نعرف أن چەلێ منطقة جبلية، فقد يصل ارتفاع القمم الجبلية حولنا إلى ألفين من الأمتار فوق مستوى سطح البحر، وتلك المناطق الجبلية تتصف بالبرودة حتى في الصيف وبخاصة في الليل وفي الصباح.

كان الوقت عصراً حينما عادت نرمين وسميرة وتارا من رحلتهن، عدن وقد تبدلت هيئتهن كلياً بعد الاستحمام، ببشرتهن البيضاء، وملابسهن النظيفة وشعر كل واحدة منهن النظيف والمسرح. وبدت تارا أجملهن في نظري، كانت شيئاً ذلك العصر وسط الجبال بحيث تركت في ذاكرتي ذكرى أحملها معي بقية عمري، وعندما وصلن المخيم سلمن

علينا، وكانت معهن خيمة صغيرة وصفيحة دهن نباتي زنة عشرة كيلوا غرامات وكمية من المعكرونة. ووسط فرحتنا جميعاً، قالت نرمين:

- كيف يبدو منظرنا الآن يا أخوان؟

فقلت:

- في أحسن حال

و قال عمر مازحاً:

- تحتاجون الآن إلى حراسة مشددة

و قال صالح:

- نعيماً حمامكن

و قال فهمي:

- أين أخذتم الحمام؟

فقالت نرمين:

- عند عائلة كوردية كريمة, رحبوا بنا كثيراً وجهزوا الحمام, وقدموا لنا غذاء فاخراً. تصوروا كان غذاءنا الرز والمرق وخبز حار ولبن ثم شاي ساخن، وقدموا لنا الدهن والمعكرونة وصحناً من الألمنيوم وثلاث ملاعق طعام وطلبت منهم بعض الملح وكمية من البصل.

فقلت:

- انه إنجاز مميز ما قمتن به اليوم

و قال عمر:

- والخيمة (وكان يتفحصها) إنها جديدة وممتازة

و في تلك الأثناء جاءت فاطمة وزوجة أخيها، تسألان النساء عن رحلتهن مبهورتين بمظهرهن الجديد، وكانت المقارنة بين نرمين وتارا وأختها والفتاتين الزائرتين بائساً للغاية.

في الحال أمرت أخوتي أن نعد مستلزمات نصب الخيمة، فوزعت الأعمال بيننا حيث طلبت من فهمي وعمر محاولة الحصول على آلة حادة من أحد المخيمات لإحضار الأوتاد اللازمة، وشرحت لهم مواصفات تلك الأوتاد الخشبية، وكذلك محاولة جلب بعض الحطب. وقمت أنا وصالح بقلع الأحجار وتسوية الأرض و باشرنا بالعمل وأبت تارا إلا أن تشاركنا. فقلت لها:

– عليك بالراحة، فلا بد أنك تعبة من الرحلة، ومنظرك جميل، وسوف تتسخ ملابسك النظيفة.

فقالت هامسة مبتسمة:

– هل أبدو جميلة؟

فقلت لها:

– أجل، لقد تحسن شكلك ومظهرك كثيراً

و كانت قد وضعت الكحل الأسود في عينيها الواسعتين الجميلتين، وقليلاً من أحمر الشفاه على وجنتيها البارزتين وعلى الشفاه. فرحت تارا بذلك الإطراء واحمرت وجنتاها وأطرقت رأسها.

عندما عاد فهمي وعمر، نصبنا الخيمة بشكل محكم، وتم غلقها من أحد الأبواب، وطمرنا جانبيها بالتراب، ثم حفرنا حولها خندقاً ضحلاً تحسباً من الأمطار. فحصلنا لأول مرة على شبه غرفة تحافظ علينا من البرد والمطر وتعتبر ستاراً أيضاً بيننا وبين الآخرين.

وتم فرش البطانيات بعد أن كنا قد فرشنا تحتها كمية من الحشيش اليابس لنخفف من تأثير الرطوبة، وكان الكل فرحين بذلك الامتياز وقتها. ثم قامت نرمين وسميرة بطبخ كمية من المعكرونة فقد كان الجوع شديداً. وحصلت سميرة على كمية من الحبوب الطبية المانعة للإسهال، وجعلت ولديها يبلعان كمية منها.

وحالما ارتفعت رائحة الدهن المغلي والبصل، خرجت زوجة شقيق فاطمة وأطفالها الثلاثة يتأملوننا رغماً عنهم، فلم يدع الجوع تلك الأيام أحداً ليتذكر الوقار أو العيب. فقلت لجماعتي:

– ما رأيكم أن نقدم لهم أول صحن، انظروا إلى عيون الأطفال، لا أحتمل هذا المشهد أبداً

فقال صالح:

– هل أنت مجنون؟ أن هذه المعكرونة لن تكفينا غير نهار واحد

وقال فهمي:

– ما هذه العاطفة التي ليس لها مكان؟ لنفرض أننا أطعمنا تلك الأسرة، هناك عشرات الألوف من الناس لم يذوقوا الطعام منذ أيام

وقال عمر:

– ثم أنهم ليسوا أقرباءنا، ولسنا مسؤولين عنهم

وناديت تارا ونرمين وسميرة، وطلبت منهن إبداء الرأي فيما لاحظناه وكنا نتحدث عنه مختلفين في الرأي، وطلبت منهن اتخاذ القرار لأنهن أحضرن الطعام. فقالت نرمين بعد أن تطلعت إلى وجوه الأطفال الثلاثة ومنظرهم الذي يؤثر في الوجدان:

– لا أدري، القرار لك يا شفان ، أنت المسؤول

– وأنت يا سميرة

– القرار لك

– وأنت يا تارا

– لا أدري، أقترح أن نجمع الأصوات

فكانت ثلاث أصوات ضد أربعة أصوات لصالح تقديم ظبق واحد من المعكرونة لأسرة فاطمة. وذهبت أنا ونرمين وتارا وقدمنا للأسرة الجارة الطعام، ورغم أنهم حاولوا جاهدين عدم قبوله، إلا أن الجوع لم يكن ليرحم ساعتها، إضافة إلى جديتنا، فشكرونا وهجم الأطفال على الصحن قبل ان نغادر مكانهم. ثم طبخنا طبقاً آخر لنا، ثم ثالثاً أيضاً حتى شبعنا ولأول مرة بعد أكثر من عشرة أيام من الجوع الشديد.

عندما هبط الليل، أشعلنا النار في الحفرة التي أعدت أمام باب الخيمة وجلسنا حولها، وكنا ولأول مرة في حالة أفضل من الأيام التي مضت، فقد أصبحت لنا خيمة، وملابسنا جافة تماماً، وكذلك البطانيات الخمسة التي نشرناها أمام الشمس والهواء لطرد الرطوبة ولتعقيمها. ودارت بيننا أحاديث شتى، من مقارنة ظروفنا بالحياة التي نعيشها في المدن التي تركناها، وحول مستقبلنا المجهول، إذ كان البعض منا لا يزال يعتقد أن قوات السلطة تتعقبنا وقد تدركنا في أي وقت. فقال عمر:

– دعونا من ذلك الحديث الذي لا يجدي، واحمدوا الله على الطعام والخيمة، ولنبارك جهود النساء، نحن الآن كقبيلة من الهنود الحمر، وهنا خيمة الزعيم، ولا ينقصنا سوى بعض الريش الملون وشريط ملون وفأس

لنزين بها الرئيس ثم نبحث عن بعض الأطيان الملونة لندهن بها وجوهنا ونرقص رقصة الحرب حول النار على أنغام الطبول والصيحات، نرقص متكئين على القدم اليسرى. تصوروا منظر شفان وقد أصبح زعيماً لهذا الجمع الغفير من الناس!.

وقال فهمي معلقاً:

– أجل أنه يصلح لتلك الأدوار سيما أنه كان عصر اليوم إنسانياً للغاية، وعطف على الأطفال الجياع

فقاطعته نرمين ضاحكة:

– على الأطفال فقط؟

فقال عمر ضاحكاً:

– وعلى عمة الأطفال أيضاً!

فشعرت بالحرج ولم تستحسن تارا ذلك المزاح، كان ذلك واضحاً على وجهها ونظرات العتاب في عينيها الجميلتين.

وقال صالح معلقاً:

– الشعور الإنساني شعور نبيل، وبخاصة في ظروف مثل ظروفنا الحالية

وأخيراً تكلمت أنا، فقلت:

– إن ظرفنا الحالي، مناسب جداً ليثبت فيه المرء انه لم يتخل بعد عن إنسانيته، وليس أدل على إنسانيتنا أكثر من التضحية لأجل الآخرين، وتعلمون جميعاً أجر إطعام الجائع عند الرب.

ذلك اليوم السعيد نسبياً لم تكن مجموعتنا الوحيدة التي حصلت على خيمة، فقد رأينا في العصر عدة خيم أخرى قام أصحابها بنصبها مثلما فعلنا نحن. كذلك لاحظنا ازدياد عدد الأطفال الذين توزعوا بين المخيمات طلباً للطعام، كان أغلبهم رث الثياب، حفاة الأقدام، أشعث الشعر، اتسخت ملابسهم وأجسادهم بسبب عدم إمكانية الاستحمام. وكان أغلبهم يقولون:

- خالة أو خال، هل لديكم بعض الطعام؟ أي شيء، أية كمية، وتمتد أصابعهم لتحك فروة الرأس.

وعندما كانت نرمين وتارا تعدان المعكرونة مر بنا عدد من الأطفال على شكل وجبات وطلبوا منا طعاماً، فقال لهم صالح:

- ليس لدينا طعام، أذهبوا إلى أهاليكم

وظل طفل صغير يحدق في الإناء وهو على النار، وينظر إلينا لا يود أن يبرح المكان. وقالت طفلة لعمر:

- أعطوني فقط ملعقة واحدة.

في تلك الليلة ناقشنا ذلك المشهد أنا وأخوتي ولم نستطع الاتفاق على رأي موحد، وأستحوذ ذلك المشهد المؤلم على خيالي، وسبب لي أرقاً حاداً، خلالها كنت أرى عيني تلك الطفلة البائسة التي لا أعرفها تحملق في كل ركن من أركان الخيمة الجديدة وسط الظلام الدامس. نمنا تلك الليلة دون أن نطبخ شيئاً من الطعام للعشاء؛ فقد قررنا الاقتصاد في الطعام الذي كان لدينا.

وفي داخل الخيمة، افترشنا الأرض كالجنود، على شكل طابور طويل وفق التسلسل السابق، وبالرغم من برودة الجو إلا أن داخل الخيمة كان دافئاً نسبياً بعد أن أغلقنا الباب، وكنت الأخير قرب الباب، ولاحظنا تلك الليلة أن سميرة وأختها شعرتا بالإحراج ولأول مرة، مع أن الذي تغير فقط وجود خيمة تلمنا وتسترنا وتعزلنا عن الناس. وقال عمر بعد أن أكتشف عدم استطاعة النوم:

- ماذا بك أيها الزعيم؟ هل أنت بخير؟

- لاشيء، أنا بخير. كل ما هنالك أن الوقت لم يزل مبكراً بالنسبة لموعد نومي، فأنا كثير السهر كما تعلم

- والله بت أخشى عليك من القضايا الإنسانية، ألا تستطيع التفكير في نفسك فقط؟ أو على الأقل في مثل هذه الظروف

فقال فهمي وهو يفاجئنا:

- ليت تلك القضايا الإنسانية تستحق كل هذا السهر والأرق، إنها حتى لا تملك أية مسحة من الجمال

فقالت نرمين:

- عن ماذا تتكلمان؟ دعا الرئيس في حاله

فقال فهمي وعلى الفور:

- عن الإنسانية والمعكرونة والتضحية

فأنفجر الجميع بالضحك إلا تارا وأختها، وأغلب الظن لم تفهم سميرة شيئاً، أما تارا فربما اكتفت بأن ابتسمت أو ضحكت مع نفسها.

فقلت لهم:

- إنني أمركم بالنوم ويجب أن ينقطع الكلام

فقال عمر:

- هل هناك قانون يمنع الشعب من الكلام؟

كان اليوم التالي من أجمل الأيام بعد تلك الأيام السابقة التي قضيناها في الطريق وفي حلبى، حيث كانت الشمس ساطعة، وشعرنا بالدفء، وبدأت الأرض تجف شيئاً فشيئاً، وظهرت بعض مظاهر الربيع من العشب الأخضر وانتفاخ البراعم على أغصان الأشجار، وتلك الطيور الصغيرة الجميلة ذوات الأذيال الطويلة وألوانها أبيض وأسود أو وجود عدة ألوان أخرى كانت تحط هنا وهناك على الزبال ومخلفات الناس وهي تصدر أصواتاً مميزة ورقيقة، إضافة إلى الغراب الصغير.

ومضت الأيام على ذي الحال، وتبين لنا أن تلك المنطقة الجبلية ستكون محلاً لأقامتنا إلى أجل غير مسمى. وأستمر تدفق المساعدات الغذائية على مخيمنا، وزاد عدد السيارات التي كانت تصل مرة أو مرتين في اليوم، وتمكننا من الحصول، وبخوض ذلك الصراع الذي لم يخف، على المواد الغذائية المختلفة التي كان يتم خزنها، وتستعمل تحت رقابة صارمة، كذلك استطعنا الحصول على صفيحة فارغة كبيرة وأخرى صغيرة، قمنا بتسخين الماء للإستحمام نحن الرجال والأطفال. أما اللحى فكانت طويلة ويشاركنا في ذلك كل رجال المخيم. وفي أحد الأيام تمكنت عائلة فاطمة من الحصول على خيمة صغيرة أيضاً، وقمت أنا بالأشراف على نصبها لقلة خبرة أخيها وجهله التام بنصب الخيم.

وخلال تلك الأيام المشمسة الجميلة وزيادة عدد قوافل المؤن الغذائية، نسينا بعضاً من آلام الأيام العصيبة التي كنا فيها نرتجف تحت البطانيات المبللة بالماء حتى الموت، حيث كان البرد سكيناً حاداً يلدغ أجسادنا.

وازداد تقاربنا أنا وتارا، وكانت تتحدث بحرية وتسألني أسئلة كثيرة حول مختلف شؤون الحياة وعن الحب والزواج والطريقة المثلى في فحص ثم اختيار العريس. ولاحظت أنها تحاول أن تكون قريبة مني دون أن تكترث لوجود الآخرين، وكذلك فعلت أنا، حتى بات معلوماً لدى الجميع أننا أقرب الناس إلى بعضنا، دون أن يحاول أحد من أخوتي أو أختي إبداء شعورهم على شكل منهج كلامي.

وكانت أسرة فاطمة تزورنا ونزورهم لهذا السبب أو ذاك وبخاصة النساء. ولاحظت أن تارا لا تستحسن سلوك فاطمة وعجرفتها، كذلك هي من جانبها كانت تكتفي بأداء واجبات التحية والجيرة مع تارا بشكل رسمي فقط. حتى أن تارا عبرت عن رأيها أكثر من مرة في شخصيتها الغريبة وحبها لفرض آرائها وطباعها على الآخرين.

كان صباح يوم السابع عشر من نيسان يوماً حاسماً في حياتي أنا وتارا، يوماً نحمل ذكراه معنا باعتزاز ما تبقى لنا من العمر. كان يوم الحب، يوم رد فعل إيجابي شجاع للظروف التي كنا نمر بها. فبدلاً من أن ننضم إلى ذلك الجمع الغفير من الناس الذين اتخذوا من الشكوى وسرد الحوادث وأخبار الموت والمرض والجوع والخوف من كل شيء، التجأنا أنا وهي إلى الحب لنطهر به نفسينا ونغذي روحينا بعاطفة نبيلة واعية

تطلبت منا الكثير من الشجاعة وروح المغامرة لإظهارها وصيانتها، تلك العاطفة التي نبحث عنها نحن البشر على اختلاف طبقاتنا ومستوى وعينا أو أعمارنا طول العمر.

وكانت فاطمة سبباً في أن تتفجر تلك العواطف وتخرج وتتحرر من عقالها دون أن تدري هي ما فعلت ولن تعرف ذلك أبداً. ففي اليوم الذي سبق ذلك اليوم لاحظنا أنا وتارا بعض الصخور المزروعة في التراب كانت تعيق سيرنا في المسافة التي تفصل مؤخرتي خيمتنا نحن وعائلة فاطم.

وكانت مؤخرة خيمتنا قد تراخت بسبب ميل بعض الأوتاد، فقررنا أن نعالجها ونقلع تلك الصخور. غير أن الذي حدث صبيحة ذلك اليوم كان حادثاً عرضياً قامت فيه فاطمة بإسداء خدمة العمر لنا أنا وتارا، كانت السبب في أن نعترف لبعضنا بالحب الذي كان ينمو بشكل سريع خلال تلك المدة القصيرة وكنا نكتمه من حيث لا ندري، ربما بسبب الفروق العديدة التي بيننا، من فرق العمر واختلاف الدين وجملة من الأمور الأخرى، وان حباً من ذلك النوع الذي ربطنا كان يلزمه عشر سنوات لنتعرف فيها على بعضنا ونمتحن بعضنا البعض من خلال الأحاديث والمواقف والعمل المشترك.

الذي حدث هو أن الجو كان مشمساً ودافئاً، وتناولنا طعام الفطور وكان شيئاً بسيطاً، ولا أدري أين ذهبت تارا بعد ذلك مباشرة، وتفرق أخوتي من حولي كذلك قامت نرمين بزيارة عماتي وأولاد أعمامي، أما سميرة فقد أخذت طفليها بعيداً عن المخيم، ربما ليقضيا حاجتهما، أو لمجرد المشي والتريض وتغيير المكان. وبدافع من حرصي الشديد على

ترتيب واصلاح الأشياء بدأت بقلع الصخور، وكنت قد نسيت لحظتها اتفاقنا أنا وتارا مساء اليوم السابق، بل لم أحمله محمل الجد كما فعلت تارا، وذلك ما اكتشفته بعد الحادث.

وعلى أصوات ضرب الصخور ببعضها لتسهيل عملية القلع جاءت فاطمة نحوي وألقت تحية الصباح، ثم عرضت خدماتها لمساعدتي، ورحنا نقلع الصخور معاً ونرميها بعيداً عن الخيمتين، ونسوي الأرض، ثم أصلحنا من شأن الخيمة، وذلك بقلع الأوتاد وتغيير مكانها وشد حبالها من جديد، وكنا على وشك أن نفرغ من العمل عندما أقبلت تارا، وذهبت إلى داخل الخيمة، وبعد أن فرغنا من العمل ذهبت فاطمة وعدت إلى الخيمة، فوجدت تارا بحالة لم أعهدها سابقاً، كانت بادية الغضب، ممتقعة الوجه، تنفجر غيضاً، وعندما دخلت الخيمة خرجت هي على الفور دون أن تنظر إلي، ووقفت على بعد خطوات من خيمتنا تنظر إلى الجبال حولنا. وكانت تلبس بلوزة بيضاء طويلة الأكمام أبيض ومخططة بالعرض بعدة خطوط من اللون الأخضر الفاتح والأصفر الفاتح ذات الصوف الخفيف وهي تعقد يديها أمام صدرها، وتغير من مكان قدميها بين الحين والحين، ولم تدع لي فرصة لأكلمها، كان تمردها وموقفها واضحين على وجهها طيلة ذلك اليوم وكذلك في الليل الطويل الذي دخلت بين أحضانه في نقاش لا ينتهي مع نفسي عن سبب تمردها وبتلك الحدة.

وفي لحظة من هبات القدر قررت أنني أحبها كثيراً، وأتذكر لحظتها أن كل هموم العالم انزاحت من فوق صدري وأنا مستلق على ظهري داخل الخيمة في الساعات المتأخرة من تلك الليلة، وبأن شيئاً ثميناً دخل نفسي

وأستحوذ على قلبي وانتشله من وحدته الأزلية، وبأن كل ما تعرض له قلبي من تيارات عاطفية سابقة كان شيئاً تافهاً ووهماً موروثاً، وغزت خيالي سعادة لا توصف، وشعرت بالانتصار وبأنني وجدت فجأة شيئاً ثميناً لا يهتدي إليه كل الناس، وبأن تلك المشاعر الصادقة مست الروح والعقل والوجدان فطهرت كل شيء في طريقها، ولو كنت قادراً على التعبير بشكل أفضل، لكنت وثبت من مكاني وملأت الوادي الكبير بصيحة خالدة، عظيمة، توقظ كل الناس ليشهدوا على ولادة ذلك الحب العظيم، دون خجل أو حياء، فالحب راحة تغمرنا، ونعمة لا تصيب كل الناس، وهو منهج متكامل سام ليس فيه عيب أو خجل، وتلك المشاعر الرفيعة موسيقى تملأ الكون سلاماً، ولحن يرفعنا إلى السماء !.

ولا بد أن تارا هي الأخرى كانت مستيقظة فقد سمعت صوتها وهي تسعل عدة مرات، وأيقنت أيضاً أنها تبادلني الحب، ولا أدري لماذا لم يمر في ذهني أي سبب آخر لموقفها الصارم صباح ذلك اليوم الجميل. لم أثب واقفاً على قدمي فجأة تلك اللحظة، ولم أجرأ على أن أقف على صخرة ووجهي إلى ناحية الوادي وأصرخ صرخة عظيمة تشق ذلك السكون المطبق، وفي ضوء القمر، صرخة تدوي طويلاً، بل غمرني هدوء وصفاء وراحة كبرى، وامتلأت نفسي بعاطفة تكفي الكون، وأخذت أهمس باسمها تارا.... تارا رغماً عني وأنا أحس لأول مرة في حياتي بالحب الحقيقي الذي يسمو فوق الماديات، وبالسعادة، ذلك الوهم السحري الذي نبحث عنه جميعاً ونفعل المستحيل فلا نجده.

في صباح اليوم التالي جلسنا لتناول طعام الفطور، وكان عبارة عن قطع من الصمون والبسكويت وبعض الحليب، وكانت تارا مطرقة الرأس وتتحاشى أن تلتقي عيوننا، صامتة، ووجهها يتغير كثيراً عندما تتألم من

شيء، ولكنها رغم ذلك بدت لي جميلة، نظرة ببشرتها البيضاء، ويديها وأصابعها الرشيقة، تلك اليدين اللتين كنت أقبلهما بنهم كل يوم تقريباً فيما بعد إلى أن فرقنا الزمن. حتى أن أختها سميرة تكلمت معها بضع كلمات بلغتهم، فأجابتها بكلمة واحدة دون أن ترفع رأسها عن الأرض، وقالت لها نرمين:

– ما بك يا تارا؟ أنت متألمة من شيء ما

فقالت بصوت هادئ:

– لا شيء، عندي صداع، فلم أنعم بالنوم ليلة الأمس بسبب الأرق

كانت تارا تبدو متألمة فعلاً، أما أنا فقد غمرتني سعادة كبرى وأصابني راحة بلا حدود، وشعرت لأول مرة بأنني يمكن أن أكون شيئاً، وبأنني صنعت شيئاً ليس باستطاعة الكثيرين الوصول إليه، وامتلأ قلبي حناناً، وغبت وانفصلت عن ذلك الواقع وتلك الجموع التي أدمنت على الشكوى ولا تفعل شيئاً، وترفض كل شيء حولها ولا تغيره، وحلقت في الفضاء أتلحف بالغيوم المسافرة أبداً دون أن تتعب كأنني في محراب وحولي الملائكة ترتل أناشيد المحبة، فنسيت الغربة، والجوع والمستقبل المجهول، وخوفنا الأزلي الذي ليس له نهاية.

وبعد أن فرغنا من تناول الطعام، راحت تارا تلهي نفسها مع محتويات حقيبتها الشخصية، فأخرجت المرآة، وراحت تنظر في وجهها وتعدل من خصلات شعرها الجميل. وفي تلك اللحظة صاح عمر:

– لقد وصلت قافلة الأرزاق، إنها قافلة كبيرة

فأشار علينا فهمي أن يشترك أكبر عدد منا في الصراع من أجل الحصول على أكبر كمية من المواد الغذائية ولزيادة تلك الفرص. فقررت أن نشترك أنا وتارا ونرمين إضافة إلى فهمي وعمر، ومع الحماس الذي أبداه صالح وإصراره وافقت على اشتراكه معنا أيضاً، وقلت له:

– سوف تبقى مع نرمين وتارا على طرف التجمعات دون أن تخوضوا صراع التدافع والتسابق مهما كانت ظروف التوزيع. انحدرنا على المنحدر نحو فسحة الوادي الرئيسي حيث كان حشد مخيف من البشر الجائع يتطلع إلى حمولة السيارات اللوري كما تتربص لبؤة الأسد فريستها وتتحين الفرصة المناسبة للهجوم. وسألت تارا في الطريق عما يشغلها، فقالت دون أن تكلف نفسها مشقة النظر إلي:

– لا شيء

– أريد أن أتكلم معك

وفي تلك اللحظة انفصل عنا صالح ونرمين ليلحقا بعمر وفهمي، فكانت لنا فرصة الانفراد ببعضنا أنا وتارا، فقلت لها:

– ماذا يؤلمك؟ علينا أن نتكلم

ولما كنت واثقاً من سبب موقفها مني، رغم ذلك عدت أقول لها:

– لا أستطيع أن أراك على ذي الحال، ولك مكانة خاصة عندي

ولما آثرت الصمت أيضاً قلت لها:

– هل بسبب حادثة الأمس؟ إنني أعرف ذلك

فقالت معاتبة:

- لقد اتفقنا أن ننجز ذلك العمل أنا وأنت، فلماذا قمت بإنجازه مع فاطمة؟ وأنت تعرف أنها لا تطيقني، وأنا لا أحتملها

- حسناً إني أعتذر، ولم أقصد ذلك، كل ما هناك أنني وبعد تناولنا الطعام، ذهبت إلى مكان العمل بانتظارك، ثم شرعت بالعمل وجاءت فاطمة لتساعدني، وقد تأخرت أنت.

- لقد غبت بعض الوقت، وكان بإمكانك الانتظار قليلاً، وكان هناك متسع من الوقت، ولكنك تحب المغامرات كما يبدو

- حسناً أرجو أن ننسى الأمر كما أرجو أن تعلمي بأنني البارحة ولحد هذه اللحظة كنت متألماً ولم يهدأ لي بال إلا هذه اللحظة، فقالت باستحياء وقد توردت وجنتاها ونظرت إلي وعيناها تشعان ببريق لم ألفه، كانت من تلك النظرات التي يطرب لها الرجل ويشعر بالاعتزاز:

- أنا كذلك، هيا لنلحق بالآخرين

في تلك اللحظات من ذلك اليوم الذي امتلأ بالجمال والحب والحنان، كنت أرى تلك الجموع البائسة الغفيرة التي يزداد عددها حول السيارات وهي تزحف نحوها من كل صوب كأنهم يقيمون عرساً مهيباً، ويحتفلون بذكرى عزيزة، أو كأنهم وقفوا جميعاً للاحتفاء بنا أنا وتارا، ونحن نحمل لهم المحبة والسلم، القوة والأمل، الهدف وروح الكفاح. لم أكن حزيناً مثلهم ولا يائساً مثل أي فرد منهم، ولم أكن أشعر بالضعف أيضاً، بل على العكس من ذلك كنت أشعر بسعادة غامرة، وأكثرهم حباً للحياة وشعوراً بالضوء، مستمتعاً بالألوان، أملأ رئتي بهواء بارد نقي.

وعندما وصلنا المكان، طلب الأتراك من جموعنا أن ننظم أنفسنا على شكل مجموعات، ليتسنى لهم توزيع الطعام بشكل هادئ وليصيب أكبر قدر من الناس، إلا أن أحداً لم يستجب بل حاول البعض الهجوم على المواد فتعرضوا للضرب، وأخيراً تم توزيع الطعام بالطريقة السابقة، واستطعنا الحصول على كمية جيدة من الطعام، حتى تارا ونرمين وصالح نجحوا في الحصول على نصيب معقول من المؤن نسبة إلى العدد الهائل لسكان المخيم. وعدنا إلى خيمتنا. وكانت تارا فرحة وقد خرجت من صمتها، وعاد وجهها الجميل إلى حالته الطبيعية، وكانت تضحك وهي تحمل عدة علب من البسكويت، حتى أن نرمين قالت لها:

- هل زال الصداع؟

فقالت:

- أجل، أجل

فنظرت إلي نرمين قائلة:

- ماذا أعطاك الرئيس؟ هل يحمل معه حبوباً لمعالجة حالات الصداع الحادة ونحن لا نعرف؟

فقالت تارا مازحة فرحة:

- أجل، ولحالات خاصة من الصداع

فقالت نرمين معلقة:

- هذا واضح، هذا شيء جديد

كانت فرحتي لا توصف عندما اكتشفت أنني أحبها، وأيقنت أنها تبادلني نفس الشعور، ولأول مرة شعرت أن الحب هو الاحترام والشعور

بالقوة وبالأمل، شعور روحي ونقي يتجاوز الغرائز، وتمنيت أن يهتدي إلى الحب سائر الناس. وتساءلت:

- ماذا يمكن أن يكون شكل العالم يومها؟

ومضت بضعة أيام أخرى، وبدأت قوافل كبيرة وكثيرة من المؤن الغذائية تدخل المخيم، ولكن الجوع الشديد وعدم التنظيم حرم منها أغلبية الناس، وبخاصة الضعفاء منا، ولم تنفع صيحات ونداءات القوات التركية، أو المصلحين من طرفنا في كبح هيجان الناس وتدافعهم وصراعهم على المواد الغذائية، وقلة تلك المداد الغذائية أصلاً كان سبب المحنة.

أما أنا وتارا، فقد توطدت علاقتنا يوماً بعد يوم، وكثرت اللحظات التي ننفرد فيها ببعضنا دون أن نبالي برأي الآخرين. وكنت أسمعها أجمل وأرق الكلمات. واتفقنا أن أجمل لغة تقال بها كلمة احبك هي اللغة الفرنسية(ژوتـيّم) والتي استعملناها حتى ساعة الوداع، يوم أصبح ذلك اليوم أصعب لحظات الزمن في حياتي، بالرغم من أننا كنا قد أعددنا نفسينا جيداً، غير أن الوداع أقتلع كل الواقع، وضرب ضبط النفس والشجاعة عرض الحائط. وكنا نتناقش في شتى المواضيع، وتسألني مئات الأسئلة حول شؤون الحياة والعلاقات الاجتماعية، وتركز كثيراً على سلوك المرأة وزينتها، وإطارها الخارجي، وتسألني ماذا أحب في المرأة، وكيف أحبها أن تبدو به من مظهر عام. وكانت تستمع إلى كلامي باهتمام، وتستحسن معظم آرائي.

بالرغم من تحسن الظروف الجوية، وحصول الناس على بعض الطعام، والمؤن الأخرى، إلا أن الحالة الصحية للكثيرين ظلت تتحول كل يوم نحو

الأسوأ، وكانت حالات الإسهال الشديدة تهدد حياة الأطفال بشكل خاص، ومن أسباب ذلك مياه الشرب وضعف أجسادنا والنظافة، واستحالة تنظيم حياتنا بشكل أفضل؛ لإنعدام الشروط اللازمة والأدوات المطلوبة. فشحة المياه منعتنا من الاستحمام، وكنا في العراء بشكل بدائي لا يصدق، ولا نملك أية أدوات، تساعدنا على أن نشعر بإنتمائنا إلى أواخر القرن العشرين.

ولكننا كنا نحمل معنا خبراتنا المتنوعة والمتباينة والتي لا تصنع شيئاً في تلك الظروف. لقد عشنا سنين طويلة في ظل نظام وظروف عامة تم فيها تجميد الفكر ومحاربته بشكل منظم ومدروس منذ أكثر من عشرة أعوام، عندما تم أحياء الغباء والتخلف والانتماءات العقيمة، وتسيد سوح العمل والابداع بمجموعة منتقاة من الأغبياء الذين ليس لهم صلة بالعصر؛ فإنعدم التنافس الحقيقي في ساحات العلم والفن والأدب والسوح الأخرى (وإستمر ذلك بعد حرب الخليج الثانية حيث تم تدمير كل شيء)، لذلك هجر الناس قراءة الكتب وعزفوا عن ممارسة الفنون والآداب، لتخلو الساحة لأصحاب الطبول وعديمي الذمم الذين صفروا تلك النشاطات وسفهوها بشكل مقرف، مما لم يحصل في أي زمن آخر لأي مجتمع بشري. وتساءلت يومها:

– كيف تكون الحياة لو قدر وأن تعرض المجتمع البشري إلى كارثة كونية أو عالمية، وتم فيها تدمير الآلة كلياً، هل يعود الإنسان إلى العصور الحجرية، أو الرعوية الزراعية في أحسن الأحوال؟

في تلك الأيام، حيث كنا نعيش في الثلث الأخير من شهر نيسان، كنا ننعم في الليل بضوء القمر الذي كان يضفي إلى علاقتنا أنا وتارا

الشيء الكثير من الشاعرية، ويطلق العنان لتوغلنا في دهاليز الخيال لننسج الأحلام الوردية وكلها وهم يمسحه ضوء النهار، وننتج الوف الكلمات تمجد الحب وروعة فكر الإنسان، لا يثنينا عن ذلك كل ما كان حولنا من أزمات وألم لا يطاق.

ففي حين كان الناس يرتجفون رعباً من تكرار مشاهد الموت والدفن، وحالات الجوع القصوى والأمراض، كنا أنا وهي نعيش عالمنا الخاص ونقترب من بعض أكثر، حتى أصبحنا روحاً واحدة تعيش في جسدين فوق أرض (چـهلې) الجبلية التي تساعد على الوهم والأحلام والحب والحياة، والإصرار على أن لا نسقط، والقوة التي كانت تأتينا من حيث لا ندري، وراحة البال ونحن لا نعمل، وهدوء الأعصاب وكل ما حولنا بائس يشد الإنسان للوقوع في متاهات المقارنات التي تذيق الإنسان مرارة الوجود. وكنا نتساءل:

- هل يصنع الحب المعجزات؟

و كان صوتها الذي أحببته يردد بعدي كلمة (ژوتـيْم) نقولها للبعض بشكل همس، هي أقرب إلى الموسيقى منها إلى الكلام. ثم دخلت كلمة (أعبدك) حينما كانت عواطف الحب ونشوة اللقاء تغربل تفاهاتنا وتنقي أفكارنا، فنصبح نغمة تليق بصمود الجبال، وبحراً من الذوق والأدب والهدوء والجمال، حينما تحولت تارا إلى أميرة للقلب والفكر والخيال، وأصبحت روحاً طاهرة عشقتها بلا حدود؛ فأدركت يومها أن بهجة الحياة في الحب، والحب هو السعادة، وأن الإنسان الذي ليس له القدرة على أن يحب شيئاً بكل طاقاته لا يعدو أن يكون فرداً بائساً لقطيع يملأ الكون، صخباً وظلماً وفتكاً وتدميراً.

في تلك الأيام أيضاً بدأت أكره النوم لأنه يبعدني عن تارا، كما كنت أكره غيابي أو ابتعادي عن المخيم دونها، فقد أصبح وجودها معنا هي الحياة التي نحلم بها جميعاً، وأصبح النظر إليها هو الجمال بكل أشكاله، وبمقدار حبي وتعلقي بها كان ينمو في الطرف الآخر من معادلة حبنا الفراق الذي كان يهددني ويقض مضجعي كل لحظة، رغم أنني كنت أقول لها:

لقد اعتدت أن أواجه المشاكل وأعيشها لأستطيع تداركها أو حلها أو تجاوزها أو تحملها في أسوأ الأحوال. وبسبب من تركيبتي الاجتماعية والفكرية، كنت أسبق الأحداث دائماً ولم أزل.

وبدأت أحس فعلاً بأنه ليس فيها شيئاً لا يعجبني قطا!، وبدأت أحس أيضاً أن حبي لها يزداد كل يوم بشكل مذهل دون إشباع. وكنا عند وجود الآخرين نلجأ إلى التعابير والأفعال الرسمية بشكل صارم مع عدم استطاعتنا إخفاء الاحترام لبعضنا البعض الذي كان الدليل الحاسم والأوحد على الحب، وذلك ما تعلمناه معاً أنا وتارا من حبنا الطارئ الكبير.

وفي غضون ذلك تحسن حالنا بعد أن اعتدنا حياتنا الجديدة، وازدادت قوافل المؤن والاهتمام العالمي الذي بدأت تظهر نتائجه، حيث بدأ الحلفاء برمي المساعدات عن طريق الجو كجزء من حملة الإغاثة الشاملة التي بدأت بها الطائرات الأميركية والتي كانت ترمي حمولات من أثنين إلى ثلاثة أطنان من المواد الغذائية وأغطية وخيم عن طريق المظلات.

وكانت المواد الغذائية معلبة بشكل عبوات فردية صغيرة، تحتوي على الحليب الجاف والبن السريع التحضير وأنواع من البسكويت والسكر وعلب الكبريت الخشن وخيم متنوعة الحجم وحقائب النوم والبطانيات وعشرات من المواد الأخرى. وفشلت تلك الحملة أيضاً بسبب من تنظيمنا السيئ وعدم وجود خطة، وسقطت بعض الحمولات على خيم مأهولة باللاجئين وقتلت بعض الأفراد. وفي تلك الفترة الزمنية تم تقسيم المخيم إلى مجموعات بشكل عشوائي، وتم الاتفاق عن طريق الحلفاء والسلطات التركية على أن ترمى تلك المظلات خارج المخيم لتفادي الحوادث المؤسفة، أي في المناطق الخالية من الناس.

وبدأ ما أسميناه (صراع الغابة) حيث يأكل القوي الضعيف، وظهرت (تكتلات العضلات والأفراد) حيث كانت تسقط بعض المظلات خارج المخيم بمسافة ميل واحد ويتسابق الناس نحوها، ويستغرق ذلك أحياناً حوالي نصف ساعة للوصول إلى العبوة، بسبب وعورة الأرض، وعندما كنا نصل هناك نجد أن جماعة قد وصلت قبلنا، وتم فتحها وتقسيم كافة المحتويات فيما بينهم، وكان التسابق نحو مظلات الأغذية صراعاً مشروعاً من أجل البقاء، وعلى أسلوب حياة الغابة.

ومضت الأيام أيضاً، وكان وضعي النفسي مرضياً، ممزوجاً أيضاً بقلق حملته معي منذ نعومة أظفاري، وخوف يتعاظم لصالح التفكير المستمر بلحظات الوداع الذي كان واقعاً مراً يتراءى لي في أجمل اللحظات وأحب الأوقات تلك اللحظات التي كنا أنا وتارا نعيش في حلم من أجمل الأحلام، وكان حلماً فارغاً أيضاً !، غير أنني تعودت أن أقتطف لنفسي مقطعاً من الزمن أحبه كلما تسنى لي ذلك، أحاول فيه أن أعيش راضياً، وأندمج في مفردات الحياة الصغيرة، وبدلاً من أن أنتظر الهزيمة واليأس

والضجر، أدفعها بعيداً عني، ورغم إمكانياتي المتواضعة، قررت أن لا أستسلم للضعف يوماً.

وكنت أرى الحياة حلماً قصيراً، والحب بالنسبة لي أمراً عظيم الشأن، ضرورياً كل لحظة، وكان الحب دائماً يقوي من شأني ويهذب أفكاري ويدفعني إلى التطور والعمل الجاد ولا شأن له بالزواج، وليس شرطاً أن ينتهي بالزواج أصلاً، وبما أن حباً من ذلك النوع يجب أن ينتهي بالفراق، فأن ما تتركه تلك التجربة المركزة الطارئة جدير بأن يكون محط احترام استثنائي، يتحول إلى ذكرى حية لا تموت، وبدلاً من أن يؤلمنا، يجب أن يضيف إلى عقلنا مفردات ثمينة خالدة، ألم يمسنا ويدغدغ مشاعرنا بلطف، ويجعلنا في حالة هيجان عاطفي ووجداني عارم، فنصرخ في داخلنا ونرفض الواقع الذي يقضي صراع المادة فيه على أجمل ما في هذا الكائن البشري المعتوه الذي لا يتعظ من ويلاته المزمنة، وذلك الاحتجاج هو الينبوع الذي يتفجر أعمالاً خالدة تخص الشعور فقط، وتنتمي إلى محراب الروح، وهي وحدها التي تليق بعقولنا، بثقافتنا وخبراتنا التي نمت عبر عصور كثيرة بشكل بطيء.

كان حبي لتارا ينمو بسرعة مذهلة. وكنت أقول لها:

- وكل يوم أحبك أكثر

فكانت تفرح كثيراً

وكنت أقول لها أيضاً:

- يا عاشقة الكلمة والإطراء، أو لحن النجوم وحياء القمر، وألوف من تلك الكلمات التي كنت أطريها فيها فتمتلئ غبطة وسروراً.

فأعود وأقول لها:

- أنك تحبين هذه الكلمات والإطراء

فتضحك ضحكة منتصر معتد بنفسه وتقول:

- أجل هذا صحيح

وكلما كان ينمو حبنا كانت مظاهر الربيع تنمو معنا، فنزداد فخراً بأنفسنا وقوة، رغم أنها كانت تشكو أحياناً من سوء ظروفنا وظروف بلدنا إلا أنها لم تكن تولول كبقية النساء عموماً، أو الرجال على حد سواء في تلك السنوات.

أما ما حدث في مدينة دهوك والقصبات فلم نكن نعرف شيئاً، ماذا فعل الجيش ببقية الأهالي؟ وماذا فعلوا بالوف البيوت التي تركناها وراءنا بكل أمتعتها؟ كذلك المحلات والأسواق، وكان ذلك يقلقنا أيضاً.

أما في المخيم الكبير الذي كان يعيش فيه أكثر من ربع مليون إنسان في أسوأ الظروف الحياتية عدا أنها كانت منطقة جبلية جميلة، فقد مرت الأيام سريعة بشكل مذهل بالنسبة لي بالطبع، فقد كنت أحلم أن أمسك بالزمن لأجعله يتوقف عندنا، أنا وتارا، زمناً يكون لنا وحدنا، زمناً مليئاً بالحب فقط، فقد كانت بقية مفردات الحياة رتيبة مملة، تبدأ بأن نستيقظ من النوم، وبعد تناول طعام الفطور الذي كان إعداده، شأنه شأن بقية الوجبات، من اختصاص النساء، وأقصد سميرة ونرمين وتارا. وكانت نرمين وتارا تختلفان مع سميرة كثيراً بالرغم من أن مائدتنا كانت فقيرة وبسيطة، ثم نتوزع لإحضار الحطب الذي كان من واجباتي أنا وصالح وأحياناً تأتي معنا نرمين وتارا ترويحاً عن النفس ولتغيير الروتين.

أما خوض الصراع للحصول على الغذاء فكان من واجبات فهمي وعمر وأشاركهم أنا ونادراً صالح. أما ما يتبقى من الوقت فكان لتبادل بعض الزيارات الاجتماعية، والنوم وتبادل الأحاديث والأخبار المختلفة. والغريب أن المخيم بدأ يتحول شيئاً فشيئاً إلى سوق بضاعي بسيط، حيث أخذ بعض الناس يشتغلون بالتجارة، من بيع الأطفال للسجائر واللبان وأنواع البسكويت والمواد الغذائية المتنوعة، وكانت البضائع التركية تزداد في المخيم، يأتي بها التجار الشباب من القرى التركية القريبة، مثل الحلوى والأواني والأقداح والملاعق ومواد أخرى كثيرة.

وأزداد عدد الخيم، وكانت تلك الخيم بأشكال مختلفة، وألوان عديدة، فكان منظرها على تلك السفوح منظراً فريداً. وفي تلك الفترة تمنيت أن يكون معي أوراق بيضاء وألوان وأقلام فقد اشتقت إلى الرسم، وتمنيت أن أكتب ملاحظات كثيرة عن رحلتنا تلك، وعن التجربة التي أجبرتنا الظروف أن نعيشها بتفاصيلها المملة، وآلامها المبرحة، بصرخاتها المدوية الكثيرة، وبتلك اللحظات التي انتشلني الحب فيها من عالم كثير القسوة، كثير الألم، ورمتني أنا وتارا في عربة مرصعة بأنفس المعادن، نسير فوق الغيوم، ونرتفع بذواتنا فوق الألم واليأس والندم.

زارنا ذلك الشاب الذي كان جاراً لنا قبل أن نحصل على الخيمة، وعرفت منه أنه طالب في كلية الطب في السنة الأخيرة، وكان قلقاً على حالة ابنته الصغرى، فقد أنهكها الإسهال وأستنفذ قوتها. كان شاباً لطيفاً هادئاً وكذلك زوجته. وتكلمنا عن الأطفال الذين كانوا يتألمون كثيراً، وقد تحولت أجسادهم النحيلة إلى كائنات مخيفة ولا نستطيع شيئاً، وقال:

- معنا عدد من الأطباء وكثير من أفراد الأسرة الطبية ولكننا لا نملك أي دواء، وما كان منه مع البعض نفذ في وقت مبكر، ولا زلنا ننتظر وصول بعض المساعدات الطبية العاجلة. وكان اسمه (سەگڤان)، يحمل فوق أكتافه الهم الإنساني الثقيل في وقت مبكر.

زارنا عبد الله وأكبر أبناء أخيه، وطلبا مني الرأي في انتخاب أحد الأفراد من ذوي الخبرة ومن عائلة معروفة ليكون على رأس مجموعة اللاجئين في المخيم الذين ينتمون إلى عشيرتنا، حيث ساد الاتجاه إلى التكتل في مجموعات على ذلك الأساس، وطلبا مني أن أقوم بتلك المهمة، وقال عبد الله:

- لقد أجريت عدة لقاءات مع الكثيرين من رجالنا واتفقوا على أن تكون قائد ومسؤول مجموعة عشيرتنا

فقلت له:

- شكراً لكما ولبقية الرجال على هذه الثقة التي منحتموها لي، ولكنني أرى نفسي غير مؤهل لأداء هذه المهمة

فقال ابن أخيه:

- أستاذ إذا لم تكن أنت مؤهلاً لهذه المهمة فمن يكون غيرك أهلاً لذلك؟

- عمك عبد الله

فقال عبد الله:

- أنا

- نعم أنت

- ولكنك بثقافتك وإجادتك لعدة لغات وأهلك.....

- إن هذا لا يجدي الناس نفعاً في حالتنا هذه

- وكيف ذلك؟

- الناس هنا في حالة سيئة وأغلبهم قرويون بالطبع، وأنا أبن مدينة كبيرة، لا أعرف لغتهم ولا أستطيع التفاهم معهم مثلك، إضافة إلى فرق السن، فأنت رجل أكبر مني، نشيط وتتصف بهدوء الأعصاب، وأنا شخصياً معجب بأسلوبك الهادئ، وذلك خير لنا جميعاً.

وأيدني فهمي وعمر وطلبوا منه القيام بتلك المهمة، وقلت له:

- نرجو منك أن تقبل القيام بهذه الخدمة وسوف أقوم بإبلاغ الجميع بهذا الاختيار، ، وهذا أمر قطعي بالنسبة لي

وقد علمت أن السلطات التركية والحلفاء طلبوا من اللاجئين أن يحاولوا تقسيم المخيم إلى مجموعات معقولة، وعلى أن يتم ذلك بتسجيل عدد الأسر في كل مجموعة، وعدد الأفراد وأعمارهم وأجناسهم في كل أسرة.

وعندما أستأذن الضيفان بالانصراف صحبتهما أنا وفهمي الذي طلبت منه أن ينضم إلينا. وقمت أنا وفهمي بالاتصال بمن نعرفهم من عشيرتنا وابلاغهم بالخبر، وطلبت من كل عائلة أن تعد قائمة بالبيانات المطلوبة عن عائلاتهم. كذلك طلبت من مجموعة من الشباب أن يعملوا كمساعدين لعبدالله لتسهيل مهمته، وبخاصة في حالات استلام الحصص الغذائية وفي حالة توزيعها. ووقع اختيارنا على ثمانية شباب من بين من تطوعوا لتلك المهمة، وجميعهم يتصفون بصفات جيدة، وطلبت منهم أن يتولوا قبل كل شيء إعداد القوائم المطلوبة، واقترحت عليهم أسلوباً معيناً لتنظيم تلك البيانات، وقلت لهم:

- يجب أن لا تنسوا أنكم بصدد القيام بمهمة إنسانية غاية في الدقة، عليكم بالهمة والنشاط والعدل والإخلاص. ثم عرجنا في طريق عودتنا على عبدالله، وأبلغته بأن كل شيء قد تم أعداده لتسهيل مهمته، وأعطيته قائمة شفهية بأسماء مساعديه ورجوتهم أن يبلغني في حالة حدوث أية مشاكل من شأنها أن تعرقل عمله لنحاول معاً تذليلها وأيجاد الحلول المناسبة.

في طريق عودتنا وجدنا طفلة جميلة تبيع بعض التفاح قرب مخيم أسرتها، ولا أدري كيف جذبتني تلك الطفلة بمنظرها الوقور وهدوئها وكومة صغيرة من التفاح الأحمر كان على الأرض أمامها، فطلبت من فهمي أن نشتري عدة قطع من التفاح، فقال فهمي:

- لا داعي لذلك، ولا بد أنه غالي الثمن

- لقد قررت أن أشتري

واشترينا خمس تفاحات، لكل منا نصف تفاحة، ويبقى نصف تفاحة نتصرف بها عند التقسيم

و عندما عدنا إلى المخيم فرح الجميع وقالوا:

- تفاح، من أين لكم هذا التفاح؟

- لقد اشتريناه من طفلة في طريق عودتنا إلى المخيم

وقام فهمي بتقسيم حبات التفاح بيننا بعد أن تم غسلها بالماء، وقسم أول تفاحة وناول النصفين إلى الطفلين، وقسم الثانية وناول نصفيها إلى سميرة ونرمين، ثم قسم الثالثة وناول النصف الأول إلى تارا ثم ناولني النصف الآخر بحركة مسرحية وقال:

- والنصف الآخر للرئيس بالطبع

فقلت:

- ولماذا بالطبع؟

فقال عمر ضاحكاً:

- لأنه بالطبع

فقلت:

- ولماذا؟ لا أفهم

فقال صالح:

- ليس من الضرورة أن تفهم، خذها يا أخي ولا تجعل منها قصة

و تم تقسيم الباقي، وأخذنا نأكل التفاح، لحظتها خطر ببالي أن أخذ حبة من النصف تفاحة التي كانت معي وطلبت حبة من تارا. فقال عمر:- ماذا أنت فاعل يا شفان ؟

- أريدهما لأجل شيء ما

فقال فهمي وعلى الفور:

- لماذا لا تجرب طريقة الإبهام كما يفعل الهنود الحمر؟

ابتعدت بضع خطوات من المخيم؛ وأعطيتهم ظهري ثم زرعت حبتي التفاح جنباً إلى جنب في التربة، ووضعت قربهما علامة مميزة وهي عبارة عن صخرة متوسطة الحجم، وعندما عدت لأجلس في مكاني، قالت نرمين:

- شفان ألا ننصب الخيمتين؟

فقلت لعمر:

- هل الأوتاد جاهزة؟

- نعم

- إذاً هيا للعمل

وكنا قد حصلنا من عبوة إحدى المظلات على خيمتين أخريين وبعض البطانيات الصغيرة الرقيقة، ومواد غذائية متنوعة وغير ذلك. اتفقنا أن نقيم الخيمة الثانية جنب الأولى بشكل متوازي، وتستخدم للنساء والطفلين، أما الثالثة فأقمناها على الجهة الثانية للأولى، وكانت خيمة صغيرة نسبياً، وقررنا أن نستخدمها كمخزن وكحمام وحفرنا ساقية لتصريف الماء. وكعادتها أبدت تارا تعاوناً مثمراً في العمل، حتى أن صالح قال لها:

- ألا تتعبين يا تارا؟

- لم نبذل الكثير من الجهد لكي أتعب هل تعبت أنت؟

- قليلاً

وهكذا تطور محل أقامتنا في المخيم بشكل أفضل، وزادت الأغطية والمؤن، وبدأت بوادر الاستقرار تظهر علينا بعد أن سلمنا زمام أمورنا للأقدار بما يخص وجودنا في (چەلێ) ومستقبلنا المجهول.

استمرت حالات الوفاة، وكالعادة كانت نسبة الوفيات من الأطفال الأسوأ حظاً عالية، ورغم أن الأسطول البري كان نشطاً ومستمراً مما ساعد على سد بعض النقص الكبير للأغذية إلا أنها لم تكن تكفي الجميع بصورة مرضية، وذلك بسبب سوء التوزيع أصلاً، وقلة تلك الأغذية نسبة إلى عددنا الهائل.

في تلك الليلة جلسنا قرب النار رغم أن الجو فقد الكثير من برده السابق، وكان القمر بدراً، كانت ليلة مليئة بالشاعرية والهدوء والسكون، ونحن نعد أنفسنا بنوم عميق وبحرية تامة بعد أن أصبح لدينا خيمتان. ودارت بيننا أحاديث شتى، ولا أدري كيف انتهى المطاف بنا إلى الكلام حول الأبراج وذكر كل منا برجه، وقالت نرمين لتارا:

– وما برجك أنت يا تارا؟

فقالت باستحياء:

– نفس برج الرئيس، برج الثور

فقال عمر:

– هل تمزحين؟

– لا، لقد ولدت في العاشر من أيار

فقال فهمي:

– أبشر أيها الرئيس

فقلت:

– ولماذا؟

فقال فهمي:

– لقد أصبح لك أنصار

وقالت نرمين:

– ويه! هذا يعني أن عيد ميلادك يصادف بعد أقل من أسبوعين

– أجل هذا صحيح

فقالت نرمين:

– ما رأيكم أن نحتفل بعيد ميلادها؟

فقالت تارا باستحياء:

– شكراً، ولكن أيعقل هذا؟ وفي مثل هذه الظروف

وقالت نرمين:

– ولم لا؟ دعونا نحاول أن نمرح قليلاً وعلى سبيل التغيير، ما رأيك يا شفان ؟

فقلت:

- أنا موافق، لم لا

وقال فهمي:

- سوف نشعل غصناً خشبياً بدلاً من الشموع، والأغنية جاهزة بالطبع

فقال صالح:

- ومسألة الهدايا!

فقالت تارا:

- وجودنا معاً أكبر هدية!

فقالت نرمين:

- حبيبتي تارا، قالتها وهي تمرغ أصابعها في خصلات شعرها الجميل وقد توردت وجنتاها بسبب الحرارة التي تنبعث من النار.

في تلك الليلة الربيعية في أحضان الجبل، كانت صحة يوخنا أصغر أفراد قافلتنا قد تحسنت؛ فجلس معنا قرب أمه وهو يقضم قطعاً من البسكويت الجاف مع القهوة المرة لتساعده على التغلب على حالة الإسهال الشديد.

وبمرور الأيام أصبح معلوماً لدى الجميع من أفراد مجموعتنا أن هناك تقارباً واضحاً بيني وبين تارا، من نظراتنا التي تعكس الكثير من حبنا، ومن رغبتنا في الظهور بأجمل صورة، ومن الخلوات الكثيرة التي كنا نصنعها، ومن الصداقة الحميمة التي ولدت ونشأت عبر الرحلة إلى تركيا

وظهرت ملامحها في (چەلێ). وكنا نلتقي كثيراً، ونتحدث بجدية، ونصنع معاً أجمل الكلمات، وكنت كل صباح أقول لها كلمات غاية في التهذيب، أنقيها بحذر وتأن شديدين، كلمات هي أقرب إلى الشعر، معجونة بموسيقى سهلة تطرب النفس، كلمات لن تستطيع أية امرأة رفضها، وكانت تبدأ مثلاً:

- تارا ويا أجمل الخلق

أو تارا حلوة الجبل

أو تارا أيتها اللحن الخالد

أو تارا ويا أميرة القلب والفكر والخيال

وأغلب تلك الرسائل الشفوية كانت تنتهي بـ(وكل يوم أحبك أكثر). وفي بعض الأيام كنت أسمعها رسالتين، إضافة إلى مئات التعابير الرقيقة، والملاحظات التي كانت تسميها تارا (ملاحظات ذكية). وأذكر أننا كنا قد اتفقنا أن نرمز لكلمة الحب أو أحبك بالفرنسية التي كنا نقولها للبعض عدة مرات في اليوم، وعندما نكون مع الآخرين بكلمة(زبيب) مرادفاً لكلمة (ژوتيّم)، وكلمة عبدالله مرادفاً لكلمة (أعبدك)، وكان الآخرون يتساءلون عن سر تعلقنا بالزبيب!.

وبلغت تلك الرسائل لحين رحيلها أكثر من مائة رسالة، من أجمل وأرق ما يمكن أن يقولها رجل لامرأة، والتي أصبحت خلاصة تلك التجربة، وترجمة صادقة لتلك العواطف السامية التي كانت السبب في ولادة تلك السمفونية الخالدة التي ملأت سماء الجبل ورفعت من شأن مخيمات (چەلێ)، وكانت رداً جريئاً وشجاعاً لحالة التداعي واليأس والفراغ

التي عشناها، وجعلتنا نقف على أقدامنا مرفوعي الرأس كذكر حجل بري يقف فوق صخرة يشرف على وادي عميق في عز الربيع.

جاء أيار تلك السنة يحمل الكثير من الدفء والجمال، بعد أن تفجر بكل مظاهر الربيع من ضوء وهواء نقي وألوان أوراق الأشجار والخضرة وتلك الزهور البرية التي كنت أجمعها وأقدمها لتارا كل صباح وأنا أقول:

- ژوتيّم

فتقول بصوت هامس دافئ:

- ژوتيّم

وجاء أيار محملاً بالحب أيضاً، تلك العاطفة التي كانت تنمو بلا حدود. وتحسنت أوضاعنا بعد أن تم تقسيمنا إلى تسعة مجموعات (قواطع) مستقرة ومنظمة، فتخلصنا نهائياً من مشكلة سوء التوزيع، وزاد حجم تدفق المساعدات الإنسانية، ووصلت أولى الفرق الصحية، وتم الحد من خطورة الكثير من الحالات المرضية. كذلك وصلت فرق صحية أخرى للاعتناء بتوزيع مياه الشرب، واقامة المزابل، ومعالجة مياه الصرف الصحي. كانت فرقاً عديدة، رسمية وغير رسمية، تمثل منظمات إنسانية لم نسمع بها من قبل، مثل (منظمة أطباء بلا حدود) و(الباحثون عن الدموع)، ومنظمات تعتني بالأطفال والنساء وغيرها. وقام الكادر الطبي ومن ينتمي إلى تلك الأسرة بالتطوع للعمل في تلك الفرق؛ لتوسيع حجم العناية الصحية. كما وصلت فرق صحفية كثيرة ومن شتى بقاع الأرض، وتم إجراء عشرات اللقاءات الصحفية المصورة على أشرطة الفيديو وتم

إرسالها إلى محطات التلفزة والصحف والمجلات، فذهل العالم، وزادوا من اهتمامهم بقضيتنا وبدأت تناشد المجتمع العالمي لإيجاد حلول عاجلة لمشكلتنا الأساسية مع السلطة المركزية في العراق.

كما علمنا بأن معظم المؤسسات الاعلامية العالمية قد نصبت معدات للبث المباشر بالقرب من المخيم اضافة الى قيام الاتراك بنصب جهاز تلفون دولي في مدخل المخيم، قام العديد من اللاجئين عن طريقه، بالاتصال بذويهم في الخارج. نتيجة لذلك بدأ المخيم يشهد زواراً من اوروبا وامريكا من اقرباء سكان المخيم، جاءوا لنجدة ورؤية ومساعدة اقربائهم.

وكان المخيم يعج بعشرات الحوادث كل يوم، إضافة إلى الأحداث التي كانت تتغير وتمر بسرعة، تلك التي أصبحت تشكل قوام الأحاديث والتي لم تكن لتهمنا في شيء، حيث كنا أنا وتارا نعيش في معبدنا الخاص الذي أنشأناه حبة فحبة، شبراً فشبراً، معبداً طهر جسدينا، فخفتنا وحلقتنا عالياً إلى حيث السحر والخيال، فأصبح فناً رفيعاً يبهر الآخرين، وكان دعوة للصمود والقوة والانتصار، كان نهراً صافياً يروي الربوع فيتفجر جمالاً وألواناً وغناء، كان صرخة قوية لتقضي على الضعف والكسل والتيه وعدم الانتماء، كان هدفاً بحد ذاته ومنهجاً غنياً كفوء.

مساء العاشر من أيار حيث صادف عيد ميلاد تارا، كان مخيمنا يعج بالحركة لإعداد بعض الأشياء البسيطة المتوفرة لدينا، وكنت قد أحضرت هدية، وهي عبارة عن كأس حفر بإتقان من الخشب بواسطة سكين حاد، طوله سبع سنتيمترات وقطره سنتيمتران، غلفناه بورق البسكويت، ثم وضع في علبة صغيرة من الكرتون، وكتبنا عليها عبارة (عيد ميلاد سعيد)، وكانت تارا تحب أن يحتفى بها وأن تكون محور اهتمام من قبل

الآخرين، لذلك كانت قد أعدت نفسها بإتقان، فلبست بدله زرقاء لماعه، وصففت شعرها بعناية، فبدت جميلة ونظيفة كأنها عروس مقارنة بمظهر الناس في تلك الظروف. وفاجأنا فهمي بأن وفق في الحصول على شمعة متوسطة الحجم، وقال:

– ستكون هذه الشمعة تعبيراً عن العدد الكلي للشموع التي تمثل عدد سنين عمرك، وذلك ما لن نفكر بأن نسألك عنه أبداً وكما جرت العادة.

فشكرته تارا وقالت:

– لن أنسى هذا اليوم وهذا الاهتمام المخلص، أما عن عمري فأنني اليوم أحس معكم بالنضج أكثر من أي وقت مضى.

وجرت مراسيم عيد الميلاد، حيث أشعلنا الشمعة الوحيدة التي أفلح فهمي في الحصول عليها، وكانت تارا وبمساعدة نرمين وسميرة قد أعدت تشكيلة من أنواع البسكويت وبعض المعلبات وأشياء أخرى بسيطة، وصادف أن حضرت فاطمة فأغضب حضورها تارا وبخاصة عندما كانت تكلمني، وكان ذلك واضحاً على وجهها حيث تغيرت ملامحه وغار ذلك الفرح الطاغي وركنت إلى الصمت ألا في حدود المجاملات.

وبعد هبوط الظلام حلقنا حول تلك الأشياء وبدأنا ننشد (عيد ميلاد سعيد) باللغة الإنكليزية أعقبها (سنة حلوة يا جميل) باللغة العربية، ثم أكلنا ما استطعنا تدبيره بعد أن أطفأنا الشمعة وقدمت لها الهدية بإسم أفراد مجموعتنا، وسرت بها كثيراً، وقلنا لها:

– نعتذر عن استحالة الحصول على الهدايا التقليدية في مثل هذه المناسبات، نرجو أن يكون هذا الكأس معبراً عن حبنا وتقديرنا لك.

فضحكت بعد أن أحمر وجهها وقالت:

- أنه كأس جميل وتحفة صغيرة نادرة، سوف أحتفظ به باعتزاز، وأنا شاكرة لكم جميعاً هذا الاهتمام

و بعد ذلك سألتها نرمين:

- ماذا تشعرين اليوم؟ وأنت تستقبلين سنة جديدة؟

فقالت بعد تفكير:

- أحاول أن أستعرض أحداث العام الماضي وأستفيد من أخطائي ثم أفكر بما أنجزته وما لم أنجزه وأسباب ذلك

فقال لها عمر:

- وماذا في ذهنك للمستقبل؟

- أتمنى أن نعود إلى الوطن دون إذلال وأن تتغير الأوضاع لصالحنا

و قال لها فهمي:

- ماذا تعلمت في العام الماضي؟ مثلاً شيئاً يمكن أن يكون إضافة جادة إلى شخصيتك

فقالت وهي تبتسم:

- لا أدري بالضبط، فحياتنا مغلقة ومحدودة كما نعلم جميعاً، ولكن مع ذلك يمكن القول أنني استطعت التخلص من الكثير من الكره، ووجدت نفسي مسالمة أكثر، ونمت عندي القدرة على الصفح، وقررت أن يكون الحب منهجي في الحياة.

فقالت نرمين بصوت خافت:

- الله...الله

فقال لها صالح:

- هل يمكن في نظرك التخلص من الحقد والكره مثلاً، وكيف؟

فقالت تارا:

- أظن نعم وذلك بأن نجد طريق الحب

فقلت لها:

- أي حب تعنين؟

- الحب الذي ناقشناه نحن مرة، أن الحب وحدة لا يتجزأ وليس له أنواع، فحب العمل أو الموسيقى أو امرأة، وأعني الحب الذي يرفع من شأن الإنسان ويقويه ويدفعه للتفوق والإبداع.

وهكذا أصبحت تارا تستطيع الكلام عن الحب بحكمة، بل والتنظير فيه أيضاً.

وبعد أن تفرق الجمع بعد أن تمنينا لها حياة سعيدة وعمراً مديداً، كان واضحاً أنها لا تريد أن تتكلم معي، وكانت تتحاشى نظراتي، وعلمت مرة أخرى أنها الغيرة، وحاولت أن أشرح لها أنها يجب أن تتغير وتنضج وأن لا تصعد إلى قمة التل في كل موقف، فاعتذرت وسوينا الأشكال بعد أن تأكدت أننا لم نوجه الدعوة لفاطمة لتحضر الاحتفال.

بالرغم من وصول الفرق الصحية واقامة المراكز الصحية وتوفير الأدوية، فقد كانت بعض الحالات المرضية قد وصلت إلى نهاية المطاف واستمرت الوفيات. وممن أصيبوا بكارثة مروعة ذلك الشاب الطالب في السنة الأخيرة من كلية الطب، وأقصد(**سه‌گفان**) الذي كان جاراً لنا قبل أن تحصل بجموعتنا على الخيم، وكان قد التحق بإحدى الفرق الصحية الإنكليزية للاستفادة من خبرته، وكانت صحة ابنته الصغرى (9 أشهر) في تدهور مستمر، أما ابنته الكبرى (3 سنوات) فكان حالها لا ينذر بخطر، وبينما كانوا يتوقعون موت الابنة الصغرى في أي وقت ماتت الكبيرة بشكل مفاجئ، مما سبب لوالديها ولنا جميعاً ألماً شديداً، وأذكر أننا جميعاً ذهبنا لمواساة والديها وساعدناه في عملية الدفن. وبعد يوم

واحد فقط ماتت الابنة الصغيرة أيضاً والتي كانت مصابة بجفاف شديد. وأذكر أنني ركضت مع أخوتي صوب خيمتهم مع صراخ زوجته الشابة، وعلى مقربة منهم اكتشفت أنني فارغ لا أملك شيئاً ذا قيمة تذكر. اهتزت معنويات تلك الأسرة الصغيرة، وكان مصابها فاجعة مميزة. وكانت أم الطبيب الشاب تواسي زوجة أبنها الشابة بعد أيام بكلمات رقيقة محاولة زرع الأمل والأيمان في نفسها المتألمة المنهارة دون جدوى.

وبمرور الأيام أصبح الجزء العلوي من المنحدر المشرف على الوادي مقبرة لشهداء رحلة المليون، وكانت تكبر وتتوسع مع مرور الأيام ليحضن ترابها تلك الأجساد الطاهرة التي صارعت الموت بشجاعة نادرة، وعندما هزمها المرض والبرد والجوع عادت إلى أحضان تربة وطنها، وستظل تلك المقبرة شاهداً على غباء هذا الكائن الأحمق الذي ندعوه(الإنسان)، الذي لا يعينه عقله الجبار على التخلص من (جنون التأريخ) وأعني به الحرب والقتل والتعذيب والدم والخوف والقسوة. تلك النفوس الأبية التي رفضت أن تموت كالخراف، ولم ترحمها الأقدار، بل كان كل شيء ضدها حتى عوامل الطبيعة تلك السنة في ذلك الربيع المتأخر، حيث ضرب أبطال (چه لێ) مثلاً خالداً على رفض العبودية، وعلمت الأجيال كيف يجب أن نعشق الحرية مهما كان الثمن، فامتزجت دماءهم الزكية بدماء ألوف الشهداء الذين سقطوا بين أحضان الجبل عبر أجيال كثيرة، وكان درساً بليغاً للأجيال، بأن الحرية لا تمنح بسهولة.

في تلك الأيام وقد أصبحنا أصحاب قضية إنسانية ملأت أخبارها أرجاء المعمورة، بدأ بعض المغامرين من سكان مخيمنا بالعودة سراً إلى دهوك، وبعد أن هدأت الأوضاع وبسطت السلطة هيمنتها المطلقة على سائر أرجاء القطر. وأخذ عدد هؤلاء يزداد كل يوم لكي يتفقدوا

ممتلكاتهم وبيوتهم التي تركوها لرحمة قوات السلطة، وبدأت الأخبار تنتشر بين سكان المخيم بسرعة مذهلة. فعلمنا أن الذي حدث صبيحة الواحد والثلاثين من آذار عندما دخلت قوات السلطة بأعداد غفيرة إلى مدينة دهوك، تم تفتيش كافة البيوت الفارغة والمأهولة على حد سواء، وتم نهب الكثير من الممتلكات، وقاموا بتدمير صفوف من البيوت في محلة (بروشكى) الشعبية بدعوى أنها كانت مأوى لرجال (اليێشمەرگە). وأقامت السلطة مؤسساتها الإدارية والأمنية، وعاد المحافظ والمسؤول الحزبي، وأقام الجيش الربايا حول المدينة.

وعلمنا أن الكثير من البيوت تعرضت إلى النهب كلياً أو جزئياً، وعلمنا أيضاً أن والدينا بخير وقد أرسلا لنا السلام والتمنيات. وكانت تلك الأخبار تهز مشاعر الناس في المخيم وأخذوا يفكرون بممتلكاتهم، وساعد على تعميق تلك الأفكار التي تبعث على القلق استقرار الأوضاع في مخيمنا الكبير، وزوال الكثير من أسباب الخوف وتحسن الأوضاع الجوية.

أما مجموعتنا فقد كان فهمي قلقاً على زوجته، ونرمين تفكر بمستقبل دراستها، أما عمر وصالح فكان الأمر عندهما سيان. فعمر سيعود إلى الجيش وحياتها وأوامرها غير المعقولة، أما صالح فكان قلقاً على أدويته التي يتناولها بانتظام، أما أنا فقد كنت أتمنى أن يتوقف الزمن لأبقى مع تارا أطول فترة ممكنة، وهذا يعني أنني كنت أكثر سعادة، فقد اهتديت إلى طريق الروح وعالم فيه الورد والموسيقى وغناء الألوان وأجمل النسمات تشعرني بالقوة وأمل بلا حدود، وقد تحولت الأشياء حولي إلى مفردات متنوعة غاية في الجمال، وهناك حماس مذهل للتفوق. أما سميرة فكانت تتمنى أن تعود مع طفليها إلى بيتهم الصغير في مانكێش وتعود إلى

حياتها الاعتيادية بأسرع وقت ممكن، وأخيراً كانت تارا تحلم بأوربا أو أمريكا أو أستراليا وتترك وراءها هذا المجتمع الذي لا يحاول أفراده شيئاً من أجل راحته وسعادته، ويأبى التخلي عن جهله الموروث.

في البداية كنا أنا وتارا مقتنعين أن العاطفة النبيلة التي ربطتنا عاطفة واعية نسيطر عليها سيطرة تامة، وليست وسيلة لهدف مرسوم، غير أن الأيام والعشرة والظروف القاتلة التي عشناها وحاجتنا الماسة للإشباع بتلك العاطفة جعلت من ذلك الشعور الجميل بكل نبله وموسيقاه الخالدة هدفاً في حد ذاته، وأصبح حلماً يحلق فوق روحينا، وهما تمتزجان كلياً بحيث أزالت كل الحواجز التي كانت بيننا وأبديت استعدادي للاقتران بها؛ لنبرهن للعالم أن حباً من ذلك النوع يفرز احتراماً نادراً يمكن الحفاظ عليه بعد الزواج أيضاً، بل يمكن تعزيزه وتعميقه وتوسيع أبعاده لينمو دون توقف ودون أن تتسلل إليه لحظة ضعف أو ملل، كما نمت بذرتا التفاح اللتين زرعتهما في الثلث الأخير من شهر نيسان أمام باب المخيم، وكانتا تنموان ويزداد طولهما كل يوم لتكونا الشاهد على ذلك الحب. وكانت تارا بدورها تتمنى أن نلتقي ونعيش معاً لنعزف معاً تلك الأنغام التي تطهر الجسد وتنعش الفكر، وتجعل منا أكثر إنسانية وسلاماً، لولا فرق الدين وأمور أخرى. وكانت تقول:

- أين سأجد رجلاً يحبني مثلك كل هذا الحب؟

وكنت أقول لها:

- إذا شاءت الأقدار أن جمعتنا مرة أخرى، أينما كنا وفي أرذل العمر، أرجو أن لا تمانعي في أن نعيش معاً ولو للحظات

فتقول:

– انك لا تفقد الأمل أبداً، وخيالك واسع، وللأحلام عندك اعتبار رصين

فقلت لها:

– لدي إحساس قوي بأننا في النهاية سنلتقي معاً، أما كيف ومتى؟ لا أدري، ولكنني مؤمن بأن الأقدار التي جمعتنا هكذا صدفة سوف تجمع شملنا من جديد، مهما ابتعدنا عن بعضنا ومهما كانت الظروف.

وكانت تارا عندها قد تحولت في نظري إلى رمز بديل لكل الأشياء التي أحببتها وحلمت بها. كان حبها عاطفة شاملة رفعتنا بعيداً إلى عالم نقي، عالم الفكر والروح والجمال والقوة، إلى حيث الراحة والرضا، عالم يخلو من الألم والحقد والملل والكذب والأقنعة الكثيرة.

وكنا نلتقي معاً في خلوات كثيرة، نمارس فيها طقوس الحب التي كانت غاية في الأدب، طقوساً أقرب إلى العبادة منها إلى كلمات أو نظرات، وكان الوقت يمضي بسرعة مذهلة، وكان ذلك يقلقنا بالطبع لأنه يعني دنو الفراق وتوقف الموسيقى وخلو المعبد والعودة إلى نمط حياتي رفضناه وتجاوزناه أنا وتارا إلى عالم السحر والأمل والصحة والنظافة.

وعندما كنت أنظر إلى وجهها وعينيها وشعرها أقول لها:

– سأموت وعيناي لم تشبع من وجهك بعد

وكانت تارا تعني لي بناء فنياً متكاملاً ومنسجماً ونادراً، بناء يرضيني كلياً وأعشقه بلا حدود، بناء شامخ أستحوذ على كل عناصر الجمال، وتكون في وقت قصير بشكل مركز؛ لأننا كنا بحاجة ماسة إلى عاطفة نبيلة نغذي بها روحينا؛ لحماية نفسينا من السقوط ولكي لا تهتز إنسانيتنا، فقد قررنا أن نكون أقوياء حتى آخر لحظة، وعندما اكتمل

البنيان وترسخت عناصره الجمالية حدث لي ما كان يحدث للمثال الخالد(مايكل أنجلو) عندما كان ينبهر بالتماثيل الرائعة التي كان ينجزها، حتى أنه من شدة إعجابه كان يسجد لها، وهكذا تحولت تارا إلى معبد مقدس، ليس فيه شيء يمكن أن أتعامل معه بشكل اعتيادي. وكانت تصر على أن أحضر حفل زفافها إذا ما تزوجت، متجاوزاً ذلك الموقف الشعوري الصعب لأبرهن لها على شجاعتي وتمسكي بمبادئي التي أعلنت لها مراراً. وكانت تتمنى أيضاً أن تصطحب معها خطيبها يوماً لتزورني كي أتعرف عليه وأمتحنه للوقوف على مدى صلاحيته أن يكون جديراً بها ثم توافق على الزواج منه.

بعد منتصف شهر أيار من ذلك العام تبنى الحلفاء المشروع الأوربي لإنشاء منطقة آمنة للأكراد. وكان المشروع قد رفع إلى مجلس الأمن من قبل بريطانيا وفرنسا. وهكذا أصبح معلوماً لدينا أن سكان المخيم في (چەلێ) سوف يعودون إلى مدنهم والى بيوتهم. ولاستكمال الترتيبات تم اقتراح إقامة مخيم ضخم مرحلي في مدينة زاخو تحت حماية قوات الحلفاء، ثم تم تحديد المنطقة الآمنة ومنطقة الحظر الجوي شمال خط العرض رقم(36). وطلبوا منا الاستعداد للسفر، غير أن الناس رفضوا العودة إلى مدينة دهوك مثلاً ما لم تغادرها سلطات بغداد بشكل نهائي.

ولإنجاز ذلك عزز الحلفاء من الوجود العسكري متمثلاً بوحدات من القوات المسلحة الأمريكية والبريطانية والفرنسية والاسبانية والهولندية وجنسيات اخرى، وكثفت من دوريات الطائرات الحربية والمروحية، وكانت تلك الطائرات الحربية تستفز الوحدات العسكرية لقوات السلطة، وبخاصة الربايا المقامة على قمم الجبال، بأن تطير فوقها بمسافات منخفضة جداً أو إلقاء المياه الحارة في الربايا لإجبار جنودها على ترك تلك المواقع. وبعد

أن تم سحب كل أشكال وجود السلطة في المدن بدأت الهجرة العكسية، فعاد الناس إلى بيوتهم، ووضعت المنظمات الدولية أسطولاً ضخماً ومنظماً من السيارات لأتمام تلك الهجرة العكسية. كان سكان مخيم (چيه‌لي) قد خف عددهم كثيراً؛ حيث عاد جمع لا يستهان بهم إلى مدنهم تباعاً وسراً.

في الأسبوع الأخير من أيار، أصرت سميرة على أن لا تنتظرنا لنعود معاً، لذلك سجلت أسمها وأسماء أفراد أسرتها مع أول قافلة للسيارات.

وهكذا وصلت عملية هجرتنا ومأساتنا إلى نقطة النهاية، وكان ذلك يعني أن ساعة الوداع قد حانت. وأنسدل الستار على مسرح حبنا أنا وحلوتي تارا. وأخيراً جاء الوداع، ولم يكن مثلما كنا نريده ان يكون موقفاً عادياً نقول لبعضنا (مع السلامة)، فعندما تحدد يوم السفر لم أستطع النوم في الليلة التي سبقت ذلك اليوم الذي بقيت فيه جسداً ضعيفاً غادره روحه، وفقد الإحساس بالجمال، وخرجت من الخيمة لأجلس في العراء تحت ضوء القمر ولا يدري بحالي أحد، كان لكل منا تأملاته وأحلامه وآلامه الخاصة، ولا بد أن تارا هي الأخرى كانت تتقلب في فراشها عبثاً تحاول أن تستجمع أسباب النوم.

ومضى الليل بطيئاً، وزاد صرير الحشرات ثم نامت هي الأخرى، وقلت الضوضاء والنيران وصوت الراديوات حتى سكن كل شيء حولي، فبقيت أنا والقمر نحاور بعضنا البعض بصمت، ونشكو ظلم الأقدار وتفاهة الحياة العضوية التي مصير كل شيء فيها إلى الفناء حتماً. ومر شريط حياتي في خيالي بسرعة، فقرة فقرة، يوماً بعد يوم، حدثاً بعد حدث، وأدركت أن أثمن ما فيها كان لقائي بتارا التي كانت تشكل

المشاعر التي أفرزتها حبنا إضافة ثمينة ونادرة من حيث النوع وكحالة إنسانية مرضية؛ ففرحت كثيراً ثم عدت أحزن كالثكلى وهي تقبر فقيدها، فكرهت الوداع وأنا أمسك بكل مشاعر الحب، أضمها إلى صدري وأودعها في خيالي وأطلق موسيقاها الخالدة لتنطلق في الفضاء لتتحرر من سجنها، ومن قيودها فتعود إلى السماء، وتتحول مع الغيوم المسافرة وتنزل مطراً يهب الحياة أينما كان الجهل والظلم والقيد والدموع.

ومضى الليل ثم انتصف ونام كل الخائفين إلا أنا والقمر والصمت الذي كان يلف الجبال، ذلك الصمت الذي طالما عشقته طول عمري وأودعته أسرار خيالي وروعة حبنا أنا وتارا التي سوف تحضر غداً معاً مراسيم الوداع، وعلي أن أكون ممسكاً بوقاري وعواطفي التي ستتحول حتماً إلى طوفان هائج، وكيف سأكون هادئاً وأتصنع اللامبالاة وحولي الجبال تئن من شدة جراحها وثكلها منذ الأزل؟، وربما كانت تارا تنام بسلام، نوم طفل جميل يخشى الظلام ويحلم بفجر قوي يمسح الخوف والألم.

وخطر ببالي أن أهرع إلى تارا، لتخرج معي إلى القمر، فأنا وهي وطن مستقل سعيد، وجعلت الظروف الصعبة حبنا في عرس دائم، وخاضت نفسانا تجربة المستحيل، نرفض النوم والقيد والعيب، نتعانق، ونقسم بالجبل وبالقمر وبكبرياء الحرية على أن نبقى معاً طول العمر، لنؤلف ألحاناً شجية ونقدم زهوراً لدعاة العنف والحرب والظلم وإبادة البشر لعلهم يرمون والى الأبد أسلحة الحرب والدمار، فيصبح الليل نهاراً، ويكون المطر نعمة، وتتحول الطيور مثنى مثنى، وتتجمع حولنا كل فراشات العالم، ويبتهج كل أطفال الأرض.

وأمتد بصري إلى خيمتها وكانت ساكنة، لعل تارا كانت تغط في نوم عميق هرباً من إعادة مشاهد لحظات الوداع، وربما كانت تتقلب في فراشها وتلعن الحب والموت وكل أشكال الحرمان، وأدركت أن تارا تحولت إلى معبد مقدس، دخلته تائباً صافياً نقياً، وأنها رمز كبير للأدب والرقة والجمال، وإنها ملاك طاهر وفي وجهها رفعة الإنسان، وفي عينيها محبة المسيح والمطر، وأدركت أيضاً لحظتها مدفوعاً بقلقي وخوفي من محنة الوداع أنني بغيرها غصن يهتز ضعفاً ويصيح بوجه الزمن ويركض بلا انقطاع ويموت كل يوم ألماً ورفضاً، وأدركت أيضاً أن حبي لها فضاء بلا حدود، وعاطفة تملأ الكون نغماً، لحناً لن ينتهي فموسيقاه في كل قطرة ماء، في الغيوم وعلى ظهر النجوم، وفي كل عقل نبيل.

ومرت في خيالي الأيام التي عشناها معاً لحظة فلحظة، لحظاتها الحلوة التي كنت أزداد فيها قوة، وتلك التي كنت أشعر فيها أنني إنسان حيث أختار عقلي الحب بديلاً للضعف والخوف والهزيمة. وعندما كنت أقول لها:

- لقد تغيرتي كثيراً في هذه الفترة الزمنية القصيرة رغم ظروفنا القاسية

فكانت تقول:

- الفضل يعود لك، فلقد تعلمت منك الكثير

- الفضل كله للحب، وتعلمنا منه أن الإنسان يجب أن يحيا وأن يعمل ويحب.

واقتربت من الفجر، واستيقظت كل حواسي، وجميعها تشاركني محنتي، وتعبر عن رفضي للفراق الذي نقترب منه شيئاً فشيئاً، وكنت في غاية الألم، وإسم تارا ينساب بين شفتي حلواً وفي غاية الحنان، ولم أكن يوماً

أحلم أن أحب شيئاً يصب في عقلي كل ذلك التعلق واحترام الذات، وتساءلت:

– لماذا كتب على من كان على شاكلتي أن يودع المواكب، وأن يحضر مراسيم انتحار القلب والفكر والحرية، وأن يحضر عرس القلب دون أن ينزل إلى ساحة الرقص واللهو والغناء.

رغم ذلك لم أشعر بالندم على حبنا، ولم أحس لحظة بالضعف أو الألم الذي يبعث فينا ذلك النشيج الذي يفرزه الحرمان، بل كان حبنا قد استحوذ على العقل والنفس، وجعل من الأيام تمر بسرعة كدقات القلب. فقد كانت تارا زهرة الأيام العصيبة، وعلمني حبها أن الحب محنة ومعركة ككل المعارك، وتضحية وعطاء وموسيقى تعزفها آلات ذكية. وهو ليس لعبة نتسلى بها، بل إعصار يبني قصوراً فخمة وينشيء مملكة من الجمال ليس له أول ولا آخر.

ومع انبلاج ضوء النهار التالي، شعرت بالبرد، وأخذ جسدي النحيل يرتجف، وغمرني سكون غريب، وأيقنت أننا بدون الحب صحراء خالية، وكائنات بليدة، وهبت على ذلك الوادي الذي أرتبط بمأساة هجرتنا وعلى المخيم الكبير نسمات هواء باردة ومنعشة، وعندما أخذت لنفسي عدة أنفاس عميقة شعرت به بارداً في رئتي، فساد جسدي المهزوم رعشة برد غير عادية فأشعلت النار قرب الخيمة، ولكن البرد كان يهز بدني فأيقنت أن ذلك كان ضعفاً غزا أطرافي، وكان خوفاً هائلاً من لحظات الوداع، وكانت هزيمة شنعاء أيضاً في معركة الحب؛ فتألمت كثيراً، وأخذ ذلك الألم يعصر رأسي وأنا لا أطيق تلك الهزيمة، وكان الانتصار مستحيلاً أيضاً.

ومع بزوغ شمس النهار، أزداد توتر أعصابي، وشعرت بالضعف، وتمنيت أن أمسك بعجلة الزمن لتتوقف عن الدوران وأنا جالس قرب النار والسيجارة لا تفارق أصابع يدي. كل الجمال حولي تحول إلى تماثيل فقدت روحها، الصخور والأشجار والخيم التي بدأ البعض من سكانها يخرجون منها لاستقبال يوم جديد. وكانت نرمين أول من صحت، وحينما خرجت من الخيمة قالت:

- صباح الخير يا شفان

- صباح الخير

- كنت سهراناً طول الليل، أليس كذلك؟

- نعم لم أستطع النوم

قلت ذلك وأنا مطرق الرأس، لم أستطع أن أنظر إليها، فقد كان وجهي متألماً كثير الضعف.

فقالت بعد أن جلست قربي:

- لا بأس عليك يا شفان ، كان عليك أن لا تطلق العنان لعواطفك منذ البداية، لكي تجنب نفسك هذا الموقف الصعب

- هل تقصدين...

- أجل يا شفان أننا جميعاً ندرك ونحس بحبكما، ولكننا آثرنا أن نظل بعيدين خوفاً على مشاعركما

- لقد حاولت أن أقاوم مشاعري وجاهدت كثيراً لكي لا تتطوردون جدوى فقد كان ذلك الشعور قوياً أقتحم قلاعي وأستحوذ على القلب والعقل.

- صدقني أنها لا تستحق منك كل هذا الصدق والوفاء

- ربما، ولكن قلبي يرفض هذا، وأدرك تماماً أن عقلي صنع ذلك الحب خطوة فخطوة، وحصل ما حصل

ثم خرج عمر وبعد أن أخذ يحرك ذراعيه ويستنشق الهواء النقي قال:

- صباح الخير

فقلنا معاً

- صباح الخير

ثم جلس معنا وقال:

- كيف أحوالك أيها الزعيم البطل!

- بخير، بخير

ثم أبتسم وقال بعد أن نظر إلى نرمين:

- (تكبر وتنسى)، كلنا لها

فأدركت أن حبنا لم يعد سراً كما كنت أظن

وعندما لم يعلق أحد منا أضاف عمر قائلاً:

- ليست هناك امرأة تستحق منك كل هذه المشاعر النبيلة

- لا أدري يا عمر، فلقد اعتدت أن أطلق عنان عواطفي فذلك أفضل من بقائها حبيسة في النفس، حيث أنها ستؤلمنا أكثر

فقالت نرمين:

- ليس هناك أنبل من عواطف الحب، ولكنها كما ترى تطلب في الأخير محطة لترتاح هناك وتستقر

في تلك اللحظة خرجت تارا من خيمتها، وحالما وقع بصري على وجهها خارت قواي من جديد، وذهب جهد سهر الليل بطوله في استجماع أسباب الشجاعة سدىً، وكذلك القناعة بالقدر والمقسوم والحظ والنصيب، فقد عاد قلبي إلى الرقص والتوتر والخوف، وأنتابه فرح لا يوصف أيضاً. اقتربت منا وقالت:

- صباح الخير

فقلنا:

- صباح الخير

- ما بالكم؟ أرى أنكم أبكرتم النهوض هذا الصباح

فقال عمر:

- أجل وأنه الصباح الأخير لك هنا

- نعم وسوف تلحقون بنا بعد أيام أليس كذلك؟

- أجل أنها مسألة أيام

وبعد أن أتم عمر جملته قال لنرمين:

- هيا لنتمشى قليلاً

وهكذا بقينا أنا وتارا لوحدنا في ذلك الصباح الذي شهد وداعنا وفراقنا الأبدي، نتبادل النظرات وفي قلبينا حزن عميق. جلست تارا قربي صامتة تنظر إلى وجهي، ثم قالت:

- شفان

- يا روح شفان

- لا أحب أن أراك هكذا، لقد اتفقنا على أن نتصف بالشجاعة ساعة الوداع، أليس كذلك؟

- نعم، أنني أحاول أن أكون طبيعياً قدر استطاعتي

ثم نظرت إلى وجهها الجميل وقلت:

- ژوتيّم

فقالت بنبرة عميقة:

- ژوتيّم

- انه الوداع يا تارا، لقد جاء سريعاً

- انه القدر، وعلينا أن نرضى بنصيبنا من الحياة

- ژوتيّم

فقالت:

- ژوتيّم وهي تبتسم ابتسامتها الساحرة

فعدت أقول لها وقد غاب وجهها عن ناظري عندما امتلأت عيناي بالدموع:

- أحبك حتى زوال الشمس

فقالت:

- تمالك نفسك أيها الحبيب المخلص، لقد خرجت الشمس وسيصحى الناس من حولنا

فقلت لها:

– أسمعي يا حياتي، سوف نفترق بعد ساعات، أرجو أن تعلمي بأني بانتظارك إلى آخر لحظة من عمري، وسأهرع لمساعدتك وخدمتك أينما كنت وبكل إمكانياتي.

– لا أشك في ذلك يا حبيبي، وأنا شاكرة لك ولأفضالك

وبعد لحظات صمت قلت لها:

– تارا أيتها المسافرة الحبيبة

فقالت:

– نعم يا شفان

– سوف أكتب عن رحلتنا هذه وعن قصة حبنا أنا وأنت، وهذا وعد أقطعه على نفسي، وستظل كلمات رسائلنا باقية، لعل فيها ما ينفع الناس لكي لا يغيب الحب عن عقولهم الى الأبد في خضم هذا الزمن الرديء، وفي ظل هذا الصراع المجنون من أجل المادة.

فقالت:

– لكم أتمنى أن يتحقق ذلك

امتلأ المخيم بالحركة، فقد عاد من خرج من مخيمه لأداء صلاة الفجر، وأشعلوا النيران لإعداد الخبز وتحضير الشاي أو القهوة وطعام الفطور. وكانت تلك الفعاليات تشبه إلى حد كبير ما كان يحدث في القرى صباح كل يوم، باستثناء أصوات الحيوانات الأليفة التي يملكها القرويون عادة. وكانت عدة عائلات أخرى تستعد ذلك الصباح لبدء رحلة العودة إلى بيوتها، غير مأسوفة لأنها لن تترك وراءها غير الآلام الكثيرة والعذاب الذي تجرعناه، إلا أنا وتارا فقد أجبرنا على أن نترك الذكريات الأعز على القلب والنفس والعقل، فسوف نترك سبب قوتنا

وصمودنا ومرحنا، نترك ذلك الشعور السحري المعنوي الذي يجعل من هزيمتنا أمراً مستحيلاً، وبالرغم من ذلك هاهي تلك المشاعر النبيلة التي تبعث فينا الراحة في معركتها دون أن تموت، فالحب لا يموت، بل هو رسالة الإنسان في الحياة الدنيا، ولكنه يمكن أن يتعرض للقسوة والغدر والاغتيال، فيهزم ليس لأنه ضعيف، بل لأنه لا يحارب بسلاح فتاك أو خنجر مسموم.

ثم أجتمع شمل أسرتنا وبدأنا بتناول طعام الفطور، وكنت أنظر إلى وجهها الجميل الذي أحببته كثيراً، أكثر من أي شيء آخر، وأخذت أمعن النظر فيه أيضاً، وكانت عيوننا تتحول كل في نفس الآخر، وكانت تلك النظرات المخلصة في محنة وألم من هول الفراق وقسوة الوداع. وبعد طعام الفطور ساعدناهم على جمع وحزم أمتعتهم، وقلت لها في خلوة دامت لحظات:

– لا أصدق أننا نفترق عن بعضنا أيتها الحبيبة الغالية

فقالت بهدوء

– لقد كنا ندرك بأن هذا اليوم ينتظرنا أليس كذلك؟

– نعم ولكنه صعب للغاية

– علينا أن نتحمل ذلك أنه قدرنا الأحمق

و بكينا معاً، وقلت لها:

– أنك لا تعرفين ما يحصل لي هذه اللحظة ولن تعرفي ذلك أبداً، أنني أتمزق وأتحول إلى كتل صغيرة

فقالت:

– هيا كفى بكاء

وناولتني منديلاً ورقياً، وطلبت مني تجفيف دموعي. ولا بد أن أخوتي وأختي لاحظوا ذلك الألم الكثير في وجهي، والمحنة القاتلة التي عشناها أنا وتارا في اللحظات التي سبقت الوداع ولكنهم لم يلمحوا بأية إشارة أو كلمة كأنهم لم يلاحظوا شيئاً. وعندما حانت لحظات الرحيل، لم يكن وداعاً كما كنا نتكلم عنه أنا وتارا أن يحدث بهدوء، إذ لولا الناس حولنا لكان الوداع قد تحول إلى دراما يهتز لها الجبل وتحنو عليه السماء الزرقاء الصافية. وفي العراء وقبل أن تصعد للسيارة نظرنا إلى بعضنا البعض بعمق دون حياء، وقال كل منا للآخر:

- أهتم بنفسك مع السلامة

ولم ننطق كلمة (ژوتـيّم) بل قلناها لبعضنا بواسطة العيون، حيث كانت النظرة الأخيرة محملة بكل حبنا واحترامنا وأحلامنا والحرمان والأمل ا لذي لا يود أن يموت أبداً في تلك اللحظات. ثم تحركت القافلة وغابت تارا إلى الأبد.

فقال **فهمي**:

- أن تارا أميرة

و قالت نرمين:

- لقد أحببتها كأنها أختي، وستترك في نفسي فراغاً واضحاً

و هكذا وبعد أن، شهدت (چـهلێ) قصة حب طاهرة، عادت لتشهد دموعاً غزيرة وغالية من نوع آخر غير تلك الدموع التي اذرفت على قبور الضحايا الكثيرة بسبب البرد والمرض والجوع.

بعد رحيلها شعرت أنني كتلة فارغة، إطار يخلو من كل شيء، وبدأ صدري يؤلمني، وعدت إلى ذلك الشعور حيث نكتشف في لحظة أننا لا شيء، بلا هدف، بلا قوة، وتتحول الأشياء حولنا إلى عناصر متشابهة، بلا لون أو طعم.

وهكذا مات حلمي الجميل أيضاً، وتمنيت أن يتحقق جزء من حلم الكورد هذه المرة بعد فاجعة الهجرة الجماعية تلك (رحلة المليون) وينعم أخيراً بالحرية ولو إلى حين.

تمّت

تارا ورحلة المليون

و بمرور الأيام اصبح الجزء العلوي من المنحدر المشرف على الوادي مقبرة لشهداء رحلة المليون و كانت تكبر و تتوسع مع مرور الأيام ليحضن ترابها تلك الأجساد الطاهرة التي صارعت الموت بشجاعة نادرة ، و عندما هزمها المرض و البرد و الجوع عادت الى احضان تربة وطنها و ستظل تلك المقبرة شاهدا على غباء هذا الكائن الأحمق الذي ندعوه (الأنسان) ، الذي لا يعينه عقله الجبار على التخلص من (جنون التأريخ) و أعني به الحرب و القتل و التعذيب و الدم و الخوف و القسوة . تلك النفوس الأبية التي رفضت ان تموت كالخراف ، و لم ترحمها الأقدار ، بل كان كل شيء ضدها حتى عوامل الطبيعة تلك السنة في ذالك الربيع المتأخر ، حيث ضرب أبطال (جه لي) مثلا خالدا على رفض العبودية ، و علمت الأجيال كيف يجب ان نعشق الحرية مهما كان الثمن ، فأمتزجت دمائهم الزكية بدماء الوف الشهداء الذين سقطوا بين أحضان الجبل عبر أجيال كثيرة ، و كان درسا بليغا للأجيال بأن الحرية لا تمنح بسهولة .





كورنيش المزرعة - مقابل ثكنة الحلو - بناية الحسن سنتر، بلوك(2)، ط4 - بيروت - لبنان
تلفاكس: 00961 1 306951 - 00961 7 920452 - خليوي: 00961 3 790520 - ص.ب: 14 - 6501
E-mail: library.hasansaad@hotmail.com